

عبد الباقي يوسف

دين

رواية

عبد الباقي يوسف

# داين



رواية

تتالت النداءات على مسمعه متداخلة بأزيز الريح وطققة احتراق الخشب في الموقد المستقر بجانبه، رغب بفتح عينيه لكن النعاس حمله مرة أخرى إلى السكينة ، لقد تناول زجاجة كبيرة من النبيذ منذ ساعتين والآن يستمتع بالدفء الذي يسري في عروقه ، تناولها على جرعات متلاحقة ليتغلب على البرد من جهة ، ويتمكن من النوم الذي لم يذقه طيلة ثلاثة أيام سابقة ولكن النداءات ذاتها لبثت تتوالى عليه دون انقطاع ، أحس بثقل جبل في جسده لدرجة عدم قدرته لإبداء أي حركة تشجّعه على فتح عينيه ، لبث متنقلاً بين النوم واليقظة وأحس بلحظة أنه زوج لامرأتين ، المرأة الأولى هي النوم ، والثانية هي اليقظة ، وليس هو لكنها رموشه التي أخذت تستيقظ هنيهة هنيهة وتتباع مثلما تتباعد غيوم عن شمس محتجة ، عندئذ أخذ كل ما في الخيمة شكل أشباح تدور حوله تارة ، ويدور حولها تارة أخرى . تشبثت كفاه بطرفي الإسفنجة التي يتمدد عليها، وحدها نيران الموقد تبدد الظلام وتحيل الأشياء المحيطة إلى أشباح تتراقص ، أدرك للتو أنه يكاد يختنق عطشاً ، وأن نسبة الماء في جسده هبطت إلى درجة الصفر وفي لحظة قفز حديث رسوله إليه أن : مدمن الخمر يموت عطشاً . مد يده إلى بيدون الماء أمسكه بيده وكأنه

سفينة النجاة ، رفع رأسه قليلاً إلى أن تمكن من التقاط فم البيدون بفمه فأخذ يمتص الماء البارد ويشعر بأنه يخترق عروقاً قاحلة يمدّها بالحياة ، لم يكن يصدق أن كمية الماء كلها فرغت في جوفه لولا أنه شعر بفراغ البيدون ، عندها قذفه بعشوائية وجلس القرفصاء على الإسفنجة واستطاع أن يميز صوت ابنه هذه المرة ويميز الكلمات التي يقولها . لملم أجزاءه المشتتة ووقف على قدميه ، لكنه سقط في مدخل الخيمة ، بدت الرغبة في النوم أقوى من مقاومتها وبدا الخروج كالموت .

لا يدري أي جزء من الليل تمضى ، وأي جزء منه تبقى ، لكن النداءات المستغيثة تبعد احتمال أي محاولة نوم أو حتى استرخاء ، إنها نداءات ابنه الوحيد في هذا العالم ، ابن الخامسة عشرة الذي هو الآخر لأحد له في العالم كله سواه ، هذه النداءات ذاتها استطاعت أن توقفه على قدميه مرة أخرى ليخرج إلى ضفة النهر ، ويرى علامات الابن من خلال الضوء الموجه إليه وهو يعطي إشارات الالتحاق به في المركب الواقف على مسافة خمّنّها رغم ثملة بكيلو متر . عندها وضع إصبعين من أصابع كفه اليمنى في فيه وأطلق صفير الاستجابة ، فانطفاً ضوء البيل وتوقفت النداءات ، ترك ثيابه على الضفة تحت حجرة ملساء وقذف بجسده المترنح في المياه ، تحسس حرارتها وهو يمضي في الاتجاه غطساً فيشعر أثناء عملية الغطس بأنه يدخل تحت بطانية فيواصل العوم تحت

الماء ، وبعثة أحس بخفقات شديدة في قلبه اضطرته إلى التمهّل ، تناولته نوبات إقياء حادة ، واستولى ألم مباغت على جهة الرأس اليسرى ، تهدلت عضلاته ، انقلب يواصل السباحة على ظهره من خلال ما تبديه يده بحركات متباطئة على سطح الماء وقد صدرت منه غرغرة : الحقني يانجم . كان إذ ذاك قد قطع ثلاثة أرباع المسافة ، رأى نجم الذي تناهت إليه غرغرة الاستنجد أن أباه سيغرق ، وتذكر للتو أنه تناول زجاجة كبيرة من النبيذ ، وماكان عليه أن يناديه ، لا بد أنه ثمل الآن لا يقوى على الاستمرار في العوم ، وعلى عجل ربط الحبل الطويل ببطنه وقذف جسده في النهر وهو يحس بقوة عشرين رجل تندفع إليه . كانت المرة الأولى التي يستجديه فيها الأب ، ذاك الأب الصارم القاسي الملامح القوي البنية كالجبل ، ناول لأبيه الحبل المعتض بالمركبة ثم أب إليها يسحب الحبل إلى أن أمسك بيديه وأعانه في الصعود على ظهر المركبة . إتجها إلى الشبك الذي كان خلف كل تلك النداءات . لقد كان ما علق به فوق قدرة نجم ولذلك استنجد بأبيه ليعينه على سحب السمكة الضخمة قبل أن تفلت وهذا الثقل ذاته منعه محاولة قيادة المركبة التي تربط الشبك ، مد الأب يديه إلى الشبك وأخذ يتقنن بسحبه والشبك يستجيب رويداً رويداً مع الحركات المتقنة بمهارة ، ونجم يلتقط تلك الحركات ويخترنها في ذاكرته. بهتا في فجاءة الاحتمالات عندما لاحت أسمال من بين الشبك

، تبادلًا نظرات الهلع بيد أن الأب لبث يستجر حتى تبدت امرأة غارقة ، بكامل ثيابها الشتوية ، ترك بشري كل شيء وكأنه لم يعد قادراً على مقاومة حالة الإنهاك التي استبدت بعضلاته ، تمدد منهوك القوة في أرضية المركبة يتقفف ، عندئذ أخذت خيوط بيضاء تبتد ظلمة الليل ، بعد دقائق معدودة نهض محاولاً مقاومة الإنهاك ، هز رأسه هزات سريعة في محاولة لاسترداد صفاء الذهن ، وثب بحركة رياضية نشيطة ووقف أمام المرأة المشبوكة : ماذا سنفعل يا بشري ؟ ! . قالها نجم وقد اعتاد أن يناديه باسمه في المواقف الجدية . أشار إليه الأب أن يوجه المركبة إلى الخيمة وفي أثناء الاستدارة غدا يحل عنها الشباك إلى أن أخرجها كما يُخرج سمكة ، وقفت المركبة على الشط فحمل بشري الغريقة على ذراعية داخل الخيمة والماء يسح من فمها بغزارة ، وضعها على الإسفنجة : سندفنها يا نجم . قالها بلهجة لا تقبل النقاش وخرج من الخيمة ، فلحقه الابن يبحثان عن موضع بالقرب من الخيمة ، ولما رأياه عادا إلى الغريقة لحملها إلى الحفرة ، عندئذ وكأنهما يرياها للتو لفتت الثياب الشتوية الكثيرة أنظارهما ، تلك الثياب التي توحى بأنها تنتمي إلى عائلة ثرية ليست من القرى المجاورة على قدر ماهي ابنة مدينة . أشار لابنه أن ينزع عنها كل تلك الثياب ويبقيها بثوب واحد ، وانصرف ينتظر في الخارج ، عند ذلك انبعث صوت فزع من الابن وهو

يهرع كالسهم الطائش إلى أن سقط على مسافة بعيدة، لحقه الأب فرعاً،  
حملة على ذراعيه إلى النهر، هناك انتفض الإبن ورمى بنفسه في حوض  
أبيه والهلع يسيطر عليه: تحركت الميتة عندما نزعت عنها الثياب .  
قال الأب: هذا تبداً لك .  
قال: ليست ميتة! .  
قال: لكنها ميتة .

وامتنع الابن الاقتراب من الخيمة .. دنا الأب بخطا وثيدة صوب الخيمة  
وكأنه يدنو إليها أول مرة ، مد قدمه بشيء من تردد وولج ، كانت بعض  
الثياب مرمية بجانبها فمد يده إلى جبهتها ، سمع أنيناً خافتاً، مدّ رأسه إلى  
الخارج وهتف : تعال يا نجم إنها حية . ثم عاد يوقد النار بالقرب منها ،  
يخفف من ثيابها المبلولة ويغطيها بكل ما في الخيمة من ثياب ناشفة  
إضافة إلى البطانيتين الوحيدتين ، وفي لحظة خاطفة وهو في ذروة  
الانشغال لتوفير دماء للغريقة قفزت إلى مخيلته / باهرة/ المرأة الوحيدة  
التي دخلت حياته وأمضى معها ست سنوات من عمره، قفزت مهنة  
المحاماة إلى ذاكرته ، تذكر مكتبه ، زبائنه، مرافعاته، قضاياها،  
دعاويه، زملاءه، قصر العدل ، كل ما كان يملأ عالمه ، شقته المغلقة  
وسط المدينة تلك الشقة التي لا يتصور نفسه أن يفتح بابها ، وتذكر  
صبيحة الإخفاق الكبرى ، تذكر الساعة العاشرة التي عاد فيها إلى البيت

وقد نسي إضبارة أحد أصحاب الدعاوى فرأى رجلاً معها على سريره ، أوهم نفسه بأنها ما تزال نائمة وأن ذلك تبدًا لناظريه ، لكن الرجل لم يترك له حتى الوهم عندما حطم زجاج النافذة وفرّ منها . فأشار إليها أن تلحقه من ذات النافذة المحطمة ، كان نجم آنذاك في الخامسة من عمره، ورأى نفسه وحيداً في العالم مع ابنه ، مزق إجازة الحقوق ، ترك كل ما يعنيه في المدينة ، حمل ابنه واتجه إلى أي فسحة تبعده عن ضجيج المدينة ، فسحة بعيدة عن الناس ، رأى بأنه لن يحتمل البقاء ليلة واحدة في هذا الضجيج ، اتجه صوب النهر ولجأ إلى خيمة أحد الصيادين ، أحس بأن رؤية الماء تخفف عنه هول الصدمة التي يبذل محاولاته لنسيانها وكأنها لم تقع ، كان يقول لنفسه أن كل شيء في هذا العالم ممكن الحدوث حتى تلك الأشياء التي لانتوقع حدوثها ولو بنسبة واحد بالمئة ، بعد أيام استقر على فكرة شراء خيمة وعدة صيد ، وراح ينصب خيمة على بعد من الصيادين . عشر سنوات متواصلة أمضاها في هذه الخيمة ، عشر سنوات لم ير فيها وجه المدينة ، يرفض لقاء أي شخص مهما كان قريباً ، وسنة بعد سنة يكبر معها نجم إلى أن أصبحا صديقين يمكن له أن يذهب إلى السوق ويجلب كل حاجات الخيمة، يمكن له أن يقبض قيمة السمك من التجار الذين يأتون ويشترون منه على النهر ، عشر سنوات لم يشتر ثوباً ، لم يرتد حذاءً جديداً ، ويتمتم لنفسه بسرية



: ما دمت أملك ثمن النبيذ فإن العالم سيكون بخير، مادمت قادراً على الشرب فإنني سأكون بخير، وعندما يحل أجلي فإن هذا الرجل الصغير سيكون قادراً أن يحفر لي حفرة صغيرة : / يا شجرة الخوخ عند بابي إذا لم أعد يوماً فالربيع أت دوماً ازهري أنت / . في المساء استطاعت الضيفة أن تفتح عينيها وبشري يقدم لها وجبة من السمك وبعض فاكهة أحضرها نجم للتو من السوق، قالت وهي تفتح عينيها وكأنها استفاقت من نوم دام سنة : في أي سماء أنا، ثم رنت إليهما : عند أي ملكين أكون؟ .

قال الرجل بوقار: كنت عالقة في شباكنا وأتينا بك إلى هنا ، هذا ما جرى فجر اليوم . ثم خرج ليلحقه ابنه حتى تتناول شيئاً من الطعام ، وبعد ساعة عادا ليرياها قضت على قسم من السمك والفاكهة .  
قالت : كنتُ جائعة ، يبدو بأن الطعام أعاد إلي بعض وعيي ، الآن أدرك ماحدث ، لكن بحق الله هل لكما استضافتي لأيام إلى أن أتدبر أمري .. الليلة أو غداً سيأتون يبحثون عني في النهر .. أطلب منكما أن تخفياني عنهم . ما قالتها المرأة حدث بالفعل ، ففي صبيحة اليوم التالي جاءت دوريات من الشرطة والغواصين يبحثون في عن فتاة قيل بأنها غرقت في النهر وطيلة شهر كامل لم تنقطع السيارات عن المكان ، حتى رجال الشرطة لبثوا يمشطون الموقع إلى جانب الغواصين الذين يبحثون عنها

في كل مكان من النهر المسجور حتى فقدوا أمل العثور عليها ، لكن الناس لم يفقدوا الأمل عندما علموا أن من يعثر عليهاحية أو ميتة له مكافأة بمئتي ألف ليرة ، وكان هذا يدفع حشوداً كبيرة من الصيادين و الغواصين للبحث ليلا نهاراً علّهم يجدوا لها أي أثر فينالوا المكافأة المجزية . ذات يوم لاتدري كيف خرجت منها عبارة : ألا تفكر أن تمنح نجمك مئتي ألف ليرة ؟ .  
حمل زجاجة النبيذ وخرج يتناولها عند مدخل الخيمة . أحست ذكرى بأنها جرحته فطلبت من نجم أن يعتذر بدلاً عنها .

فتاة فنية في الثانية والعشرين ، وجهها دائري كأن النور يشع منه ، تتمتع بلياقة صحية ، تتقد بالنضارة والحياة ، تنضح بالقوة والنشاط ، تتبع نظاماً دقيقاً للاهتمام بصحتها حتى يبدو للناظر إلى فمها أنها تغسل أسنانها سنّاً سنّاً في اليوم ثلاث مرات ، ترتدي ثياباً سوداء تمنح جمالاً مدهشاً لبشرتها وقامتها ورشاقتها ، يبدو للناظرة من جهة أخرى أن هذا التناسق الجسماني الذي تتمتع به هو الذي يمنح السواد كل ذاك الجمال والجاذبية ، شعرها أسود طويل كثيف ينزل إلى منتصف الظهر إذا ما أسدلته ، لكنها على الأغلب تلفه وتغطيه بإشرب أبيض فيزيد الوجه دائرية ونوراً وإشراقاً، تقيم كل صلاة في وقتها، لا تكاد تبدي حركة إلا

وتذكر معها الله وهي مع الأيام تتخذ نظاماً دقيقاً في النظافة والاهتمام  
بنوعية وتنوع الطعام، ولا يخفي بشري عن نفسه بأنه يشعر بشيء من  
الارتياح لهذا التغير المفاجئ الذي طرأ على نمط العيش في عزلته ،  
وهو الذي قرر أن يتخذ من اللامبالاة والفوضى طريقة جديدة لحياته،  
لكن ما لهذه المرأة- التي تبدو له وقد هبطت عليه من السماء وليس هو  
الذي سحبها من النهر شبه ميتة- تأتي بهذا التغيير وهو يستجيب بليوننة  
وود لما تطلب من أدوات التغيير للعيش في هذه الخيمة المنعزلة حتى أنه  
تجراً وقال لها بلهجة إعتذارية : أنا لا أصلي لأنني أشرب ، ظروفى لا  
تسمح لي بالصلاة ، ألا ترين حرجاً بالعيش مع شخص يشرب ولا  
يصلى وأنت في كل هذا التدين ؟ قالت : لو لم أرك بهذا النقاء لترددت  
طويلاً قبل إتخاذ قرار البقاء ، ولكننى ما ترددت ساعة واحده عندما  
رأيتك فيما أنت فيه .

مع بدء فصل الربيع هدأت الأوضاع ويبدو أن الناس الذين تفرغوا للبحث  
عنها غدوا على يقين بأنها لم تنتحر في هذا المكان وهكذا فحتى أهلها  
انقطعوا عن التردد وبدأوا يفكرون بمكان آخر لجأت إليه، لكن أمها بقيت  
مصرّة على أنها رمت نفسها في النهر ، فذكرى دوماً كانت تقول لها  
بأنهم لو أجبروها على هذا الزواج من كافور فإنها ستلجأ إلى الله عبر  
النهر لأن الماء هو الأمان وهو السر، هذه الأقوال كانت ذكرى تكررها

على مسمع أمها حتى أنها في صبيحة الاختفاء قالت لهم جازمة : إنها في  
النهر.. لقد ذهبت إلى الله تشكو له ظلمكم لها هناك .  
صار بمقدور ذكرى أن تخرج من الخيمة نهاراً بعد أن بقيت نحو شهرين  
حبيسة الخيمة لا تجسر على الخروج إلا هنيهات قليلة في منتصف الليل  
عندئذ بدأت تحس بالآلام في صدرها ومعدتها وخاصة في الليل فتشعر بأن  
أمعاءها تتمزق وأن صدرها ساحة حرب، إقترح بشري أن يأخذها إلى  
الطبيب ، لكنها خشيت أن يراها أحد في المدينة ويخبر أهلها فأثرت  
السقام على عودتها مهزومة للبيت . بدأت الآلام تغزوها حتى إنها لم تعد  
قادرة على النهوض من الفراش وأخذ جسدها في الذبول وفي لحظات  
يخطر لبشري إنها تودع الحياة ، ألمه هذا الشعور واهتدى إلى فكرة ان  
يأخذها للعلاج في مدينة أخرى ويبدو أن ذكرى لم يبق أمامها إلا أن  
تتحدى خوفها وتخاطر بهذه الفكرة وهي تميل لنمط جديد من الحياة .  
طلب بشري من ابنه أن يذهب إلى المدينة لشراء بعض الحاجات ، ثم  
صمت قليلاً وقال له بأن يجلب عدة حلاقة . افترت بسمة على ثغر نجم  
بهذا الطلب وهو يتخيل أن أباه يزيل هذا الشعر الكثيف الذي ملأ وجهه  
بشكل عشوائي ، وكان في السنوات السابقة عندما يضيق وجهه بالشعر  
الزائد يحمل مقصاً صغيراً ويخفف ما يراه يزيح الضيق عن وجهه  
الدائري . عند الظهيرة اتجه نجم إلى المدينة، ابتاع لها ثياباً واتفق مع

سيارة خاصة على موعد لأخذهما إلى العاصمة . وقف بشري طويلا أمام المرأة وهو ينظر في ذقنه ، في هذا الوقت أمسكت ذكرى بيد نجم وخرجا حتى يبعدا عنه الحرج وهو يحلق ذقنه بشكل جيد لأول مرة منذ عشر سنوات . في المساء كانت كل الترتيبات مجهزة للسفر و لبعده احتمال الشبهة ابتعدا عن الخيمة ليقفا على الطريق العام بانتظار وصول السيارة التي وقفت أمامهما بعد الغروب بساعتين .

دخلا عيادة طبيب للأمراض الصدرية ، وهناك تم التحليل والتصوير فقال الطبيب بأنها مصابة بمرض ذات الرئة ، إضافة إلى مرض قديم أخذ مداه عندما تعرضت لبرد شديد نتيجة غرقها في النهر والبقاء فترة طويلة في الماء ، وقال أن برودة الطقس كان عاملا في إنقاذ حياتها لأن الإنسان ليس بوسعه أن يبقى ساعة تحت الماء إلا في حالات استثنائية مثل شدة برودة الجسد لأنه عندذاك يحافظ على قدر من الأوكسجين لفترة أطول من الحالة المعتادة . ثم قال لبشري بأن العلاج يتوجب البقاء في المشفى أياما ريثما تتماثل للشفاء ، وبالنسبة للمرض القديم فهو يحتاج لعملية جراحية بعد علاج مرض ذات الرئة الجديد . استفسر عن التكاليف ففوجئ بمبلغ لم يكن يتوقعه .

عندما علم الطبيب بأنه لا يملك هذا المبلغ أخبره أن بإمكانه المعالجة و إجراء العملية في إحدى المشافي العامة لكن المشفى الخاص يوفر لها العناية التامة والراحة والدقة في العلاج .

لبثا ثلاثة أيام وعادا إلى الخيمة بخفي حنين قالوا لنجم الذي كان ينتظرهما : القضية أعقد مما كنا نتصور يانجم . وشرد بشري بتدبير المبلغ : لا بد أن أدبر النقود ، أظن بأنني سأستطيع أن أحصل على نفقات علاجها في مشفى خاص، لقد وهبها الله لنا وعلينا أن نحافظ عليها .

تمتم نجم بحزن : لا نستطيع العيش بلا ذكرى يا أبي .. اعتدنا عليها .

قالت ذكرى : أنا أيضا لأفكر بالذهاب إلى البيت ليعالجني أبي لأن علاجه لي سيضعني أمام مطلب العائلة بالزواج من ابن عمي ، سأكون قد شفيت له، وأنا أفضل الموت الذي يبعدني عنه .

تستيقظ ذكرى بعد نوم عميق من إرهاق السفر وإذ ببشري ليس في فراشه ، تستغرب ، تنظر إلى الخارج ، السفينة في مكانها ونجم لا يزال نائما فالوقت باكر والشمس لم تشرق بعد ، يتحرك نجم في فراشه يستيقظ ، يتناول إبريق الماء ولا يرى أحدا في الخيمة ينادي :

ياب .. ذكرى .

مع انتشار الصوت تلج ذكرى إلى الخيمة : صح النوم نجمي ، وقبل أن يجيب : أبوك يا حبيبي .

- أبوي أحلى أب في هذا العالم .  
- لم ينم الليلة في الخيمة ! . ولفتت الثياب نظرها ، لقد ترك ثياب العمل وارتدى الثياب الجديدة التي اشتراها للسفر .

في التاسعة والنصف صباحاً كان بشري يجلس في مكتب عقاري يتناول كأس شاي من يد صبي :متى يأتي معلمك يا ولد ؟  
هلاً .. هلاً عمو .. صار وقته .

يدخل رجل قصير القامة يرتدي نظارة سوداء وما إن يرى بشري حتى يتسمر في المدخل ، ينهض بشري واقفاً قبالة ، يخلع الرجل نظارته والصبي مبهوت بينهما ، صدر صوت من الرجل : خالي بشري ، أنت خالي بشري؟! .. يتقدم نحوه بفرح مبالغت .

قال بشري وهو يفتح ذراعيه : صدّيق ،ابن أختي يا غالي . واحتضنا بحرارة ، لم يجلس الرجل وقال بأن المكتب لا يكفي لاستقباله بعد هذا الغياب ، لكن بشري قال بأنه حضر لأمر طارئ ولا بد أن يعود إلى ابنه ، عندئذ قال : وكيف هو نجم .. هل كبير .. لماذا تحرمتنا منكما هكذا يا رجل .. ليس على لسان أمي غير بشري وكأن لا أخوة لها غيرك .  
أحياناً في منتصف الليل تقوم من فراشها وتقول : بشري أين أنت الآن يا أخي .

حتى أنها عندما تلکم بقدميها فإنها تستغيث بك قائلة : بشري أخي  
انجدي •

وعندما تؤكد على شيء تقول : برأس بشري الذي هو أعلى من العالم  
كله عندي .

مرة قلت لها : يا أمي تحبيني أكثر أم تحبين بشري ؟  
قالت : الابن يمكن تعويضه بابن آخر ، لكن الأخ إن ذهب لا يمكن  
تعويضه •

وأمام إصراره على البقاء في المكتب جلسا فقال بشري : إي يا ابن أختي  
أنا جئت إليك لتبيع لي الشقة .

- خير إن شاء الله

- أنا بحاجة لثمنها

- إذا كنت مصراً يوجد شخص منذ شهرين يبحث عن شقة

- اتصل به الآن إذا كان ممكناً لأنني مستعجل .

رفع صديق سماعة الهاتف واتصل بالمشتري لكن قيل بأنه ذهب إلى  
القرية لعزاء وسيعود غداً ، وأمام هذا الجواب تمسك ابن أخته به وأصر  
أن يأخذه إلى البيت وحتى يضعه أمام أمر واقع ، اتصل بالبيت وقال  
لأمه بأنه سيأتي ببشري بعد قليل • ثم على عجلة كتب على ورقة بيضاء  
: يرجى مراجعتنا غداً .



أعطاهما للصبي ليغلق المكتب ويعلقها على الباب .  
كان يوماً حافلاً فقد اتصلت أخته بكل الأهل والأقرباء وعزمتهم .  
أمضى بشري يوماً عائلياً حميمياً وكلهم يصرون أن يعود إلى مكتبه  
وعمله ويعرضون عليه الزواج مجدداً لأن خيانة امرأته لا تعني نهاية  
العالم.

وقال أخوه زهدي الذي يصغره بثلاث سنوات وهو صاحب مطعم كبير  
في قلب المدينة :

يا أخي لو عمل كل واحد مثلك كانت الحياة انتهت من ملايين السنين .  
وقالت عمته عائشة : أقسم بأن محبتي لك لا تقل عن محبتي لأبيك عليه  
رحمة الله لأنك رائحته في الدنيا .

أرجوك يا بشري تعود لأهلك وتزوج وتتجب لنا الأطفال نحن خسرناك  
يابن أخي وأنت خسرتنا من أجل امرأة راحت بحال سبيلها وأنتهى كل  
شيء .

في الصباح اتجه صديق وبشري إلى المكتب وعلى الفور اتصل بأبي  
حمدي الذي سيشتري الشقة فأتى بعد ساعة من الاتصال .

ذهبوا إلى الشقة وبعد أن رآها وأعجبه موقعها اتجهوا إلى السجل  
العقاري ، حصلوا على بيان قيد عقاري بملكيته وعادوا ثانية إلى المكتب  
واتفقوا على السعر .

ثم ذهبوا جميعاً إلى الكاتب بالعدل ، هناك أعطى بشري وكالة خاصة لصديق تخوله القيام باجراءات التفريغ من اسمه إلى اسم المشتري . عند العصر عاد بشري إلى الخيمة وهو يقول بأنه باع الشقة حتى يتمكن من أخذ ذكرى إلى العاصمة وإجراء عملية لها في مشفى خاص . إنها خطوات غاية في السرعة ، لايفكر بشري بشيء من خلالها سوى السرعة في إعادة ذكرى إلى الطبيب ، هكذا يشعر بأنه يفعل شيئاً مجدياً ، يشعر بأنه يقوم بكفاح في سبيل أمر يهمه ألا يخوض في البحث عنه ، ولكن رغم ذلك يشعر بأن نورا يضيء كل خطوة من خطواته ، هذا النور الذي يزيح كذلك جانبا من الظلام الذي يستعمر كل خلية من خلاياه

في أمسية اليوم التالي إتجهوا للمرة الثانية إلى العاصمة وذهبوا إلى ذات الطبيب في مشفاه الخاص .

تفاعل الطبيب لهذه السرعة لأن كل ساعة تأخر تمكّن المرض من جسمها وبذات الوقت تقلل فرص الاستجابة للعلاج . لبثت عشرة أيام تتلقى الاستراحة والعلاج المتواصل في المشفى وبعدها سمح لها الطبيب بالخروج على أن تبلغه هاتفياً فور حصول أي طارئ على صحتها .

عادت ذكرى تتلألاً على ضفة النهر وفي الخيمة ، وغالباً تخرج في الليل  
معهما للصيد . في إحدى المرات كانت تسحب الشباك فسقطت في النهر  
، قفز بشري إليها حملها على ظهره وقال لها : نجم أثقل منك وأنت في  
الثانية والعشرين عليك أن تأكلي جيداً لتكوني قوية .  
وقالت : هل ستخفف النيذ وتحلق ذقنك كل أسبوع من أجل خاطري ؟  
نظر إليها مطولاً ولم يجب .  
أضافت : أنت في الثالثة والأربعين لكن إهمالك لصحتك يجعلك تبدو  
شيخاً .  
قال : بنيتي قوية وأستطيع أن أزحزح جبلاً .

قالت : أجل لكن الصحة لا تدوم إلا بالمدارة . هل تظن بأن الحياة  
انتهت بالفعل ، لكن الشمس ستلبث تشرق ، الخيانة تستمر ، وكذلك  
يستمر الإخلاص ، يمكن لك أن ترفض الخيانة وهذا موقف إيجابي تبديه  
، بالنسبة لي كان علي أن أقبل العيش مع خائن طوال عمري ، كان  
مفروضاً علي وعند ذاك قلت أن الموت سيكون الحل الوحيد في الليلة  
الأخيرة بعد تهرب وتأجيل وتعذير دام خمس سنوات ، لقد رأيت  
الخلاص في الموت الذي كان سينهي كل شيء ، أنت لم يفرض أحد عليك  
العيش معها ، وكان موقفك سامياً بالرفض .

الآن تعرفت بعالم آخر ، عالم العزلة والصيد والاعتماد على الجهد العضلي لتأمين لقمة العيش ، وأظنني كنت سأخسر الكثير ، كان سيفوتني جانب هام من الحياة لولا قراري .

لم تعد قادرة على إخفاء حقيقة إعجابها برجولته ، وأنها تميل لأن يكون الرجل الذي يملأ عالمها ، وهي تدرك أن لديها ما يمكن أن تقدمه لهذا الرجل الذي بدا وجوده في تلك اللحظات مقترنا بوجود الحياة بالنسبة لها ، الرجل الممتلئ بالحياة الذي يملأ فراغ الأب والأخ ، ويكون الزوج المحب لزوجته التي تصغره بعشرين سنة ، إنه كالجبل الذي يمكن لأي امرأة أن تسند ظهرها إليه وهي مطمئنة على المستقبل . فقالت العبارة التي طالما أرقتها في الليالي الطويلة ، قالت بشجاعة دون أن تدع مجالاً لأي تردد هذه المرة : هل تقبل أن نكون معا ياسيدي ؟

بدت المفاجأة واضحة في وجهه ونهض ، لكنها نهضت معه وقالت : هل سترفضني يا بشري ؟

قال : أنا أفكر بشيء آخر .. أن تعودني إلى البيت لأنه يستحيل عيشك هنا إلى الأبد .

قالت : لكنني جادة .

قال : وهل تظنين أن ذلك سيجدي ، أظنني أخذت حصتي من الحياة في هذه المسألة ، وأظنني سأكون سعيداً في النحو الذي أنا فيه ، مثل هذه

القرارات الكبرى لا تُتخذ وأنت هنا يا ذكري ، تُتخذ عندما تكونين في بيتك وبحرية تامة والعالم كله مفتوح أمامك .

في أكثر اللحظات الكونية حساسية ، تلك اللحظات التي تستقبل الطبيعة فيها أولى أنفاس النهار وتودع آخر تلويحات ليل مضي ، يبلغ بشري ذروة الخدر ، يشعر بأنه يصعد إلى السماء لكنها ذكرى التي تمسك به فيترنح بين الأرض والسماء : أظنني كنت مريضاً بالمرأة منذ سنوات طويلة وأنني ما أزال أتنفس مخلفات الشفاء ، وأظنني على وشك حمى بامرأة جديدة ، هذه الحمى تأتيني بالدوار وتعيدني إلى جحيم أرتعب من ذكر تفاصيله ، ما تزال آثار حريقه في حواسي وروحي ، إنني مصاب بحمى الحب مرة أخرى بحمى المرأة وأظنها الحمى التي تقف خلف كل هذا الوهن الروحي الذي أخذ يستوطن نني مرة أخرى .

يهتف لها وهما يبركان على ضفة النهر المسجور في ظلمة دامسة دون أن يرى أحدهما وجه الآخر : لو تعلمين أن حزن العالم كله يسكنني ولا أجد غير هذه الزجاجة تخفف عني ، آه يا ذكري كم أشعر بقوة الألم تحتلني وتنهكني . وتأتي نبرات ذكرى عذبة رقراقة إلى سمعه : ألا ترى ياسيدي أن الإنسان هو أكثر المخلوقات شاعرية لأنه أكثر المخلوقات حزناً ، يأتي الإنسان حاملاً حزنه ومعاناته على أكتافه ، إنه حمال الأحزان .. كل ذرة تراب ،

كل ورقه شجرة ، كل منخفض ، كل فصل لهو شاهد على معاناته .  
عندما يولد يُقال له أول ما يُقال : تذكر أيها الإنسان بأنك فان . لكنة  
يصر على الحياة ويقبل العيش فيها ، لأن الحياة أفضل من العدم .  
أجل يا بشري ألم نفتح عيوننا على معاناة عمر بأكمله ألا نروض أنفسنا  
لاحتمال هذه المعاناة والانسجام معها ؟

الإنسان جاء ليعاني ويتألم ويكافح لا ليقطف الزهور ويمضي، مايمهم هو  
نجاحك في محاولة الانسجام مع كونك مخلوق حزين ، لا أن تكافح  
للتجرد من هذا الحزن ، إذا حذفت الطبيعة الحزن منك ، حذفت الإنسان  
منك ، أنت جئت لتضع لبنة في عمارة الحياة هذه العمارة التي بُنيت  
بلهات الإنسان ودمه وعرقه وأرقه ، استفدت من تجربتي النهر  
والمرض بأن الصحة العامرة تستقر في لحظات تخالها الأخيرة لك في  
هذا العالم ، هناك في آخر لحظات الاحتضار لأول مرة تفتح شهيتك  
الكبرى على الحياة التي لم تكن رأيته من قبل وتعانقها بنبضاتك الراحشة  
الأخيرة عند ذلك عند ذروة المرض الجسدي عند ذروة المرض الروحي  
تفتح عيناك على حقائق أخرى وأنت مطروح في حديقة الموت  
والاحتضار ، وتتساقط على أسماعك كلمات نورانية : أنت ابن الألم ،  
الألم هو الذي صنعك، كن على حذر من السقوط أنت مخلوق قابل  
للسقوط ، قابل للسمو . قدر رغباتك كما يقود الراعي الماهر قطيعه ،

لا تدع القطيع يقود الراعي . أنت ابن التراب لا تنس للحظة أنك من صلصال . ليس بالرخاء وحده يحيا الإنسان ، بل بالألم أيضاً ، ليس بالشبع يحيا الإنسان، بل بالجوع أيضاً ، ليس بالصحة يحيا الإنسان ، بل بالمرض أيضاً . إن الله أكرمك فلا تذلل نفسك ، هيا قم إلى الحياة هناك في القبر متسع من الموت لن يبقى منك إلا ما شيدته روحك ، عندما تقوم إلى الحياة وتفتح عينيك عليها ستدرك أن روح الله تسكنك ، أنك تحمل أمانته ، تحمل سره الخفي ، في تلك اللحظات النورانية ستدرك سر الله فيك ، تدرك معنى الإنسان فيك ، وستدرك كل الإساءات التي وجهتها إلى نفسك ، ستدرك كم كنت غارقاً في ظلمة الجهل . يحس بشري بأن الدموع تنهمر من عينيها وهي تردف بنبرة بكائية : كثيرون يفشلون في مسعى الانسجام بواقعهم فيعيشون في هامش الفعل الحراري للحياة ، هذا الفشل يعكس عكس المفهوم العام للحياة ، وعلى هذا المفهوم يهدرون أعمارهم دون أن يقدموا شيئاً . الشرف الكبير يكون في تقديم الهدايا إلى الحياة من خلال التصارع مع هذا الألم وهنا تبرز قدرات الإنسان وكفاءاته ويصنع من الألم ملحمة إنسانية كبرى . المعاناة يا سيدي هي شرط وجود الإنسان في الحياة وشرط تواصله الإنساني ، إنسان بدون معاناة لهو إنسان ناقص . الإنسان يحب الحياة يا بشري فهو الذي يبنيها ويحملها ويزرعها ويلطفها وبنجب أطفاله ليعيشوها ، إنه

يؤمن بجدواها ولذلك يعقد فيها الصداقات والعلاقات الحميمة ويصر على السيرة الحسنة والسمعة الطيبة .. الذين يبنون الحياة هم أكثر من الذين يدمرونها فإذا عملية بناء مدينة تستغرق ثلاثين سنة فإن تدميرها لا يستغرق ثلاثة أيام ، ومع هذا فإن الأرض عامرة ، وإذا عملية ولادة طفل واحد تستغرق تسعة شهور فإن عملية تدمير آلاف الأشخاص لا تستغرق يومين ومع ذلك فإن مليارات البشر يعيشون . الإنسان بخير ياسيدي رغم كل مظاهر الشر التي تبدو لنا في العالم ، الذين ينجبون ويربون هم أكثر من الذين يقتلون ، والذين يبنون هم أكثر من الذين يدمرون ، الذين يصلحون هم أكثر من الذين يفسدون ، كل ما حولي يصرخ : قم أيها الإنسان ، عليك أن تقول ما لم يقله غيرك ، عليك أن تغني ما لم يغنه غيرك ، عليك أن ترى ما لم يره غيرك ، عليك أن تسمع ما لم يسمعه غيرك ، عليك أن تكون ما لم يكنه غيرك . كل ما فيك يتميز عن غيرك .. صوتك بصماتك ، رؤيتك ، شكالك ، عليك أن تنفرد بتميزك وتتجه إلى ما لم يتجه إليه غيرك .

إنها حياتنا الرائعة يا بشري إنها حياتنا السحرية المدهشة التي ستهبنا أسرارها ودفنها وشمسها ونسيمها وأوراقها ، غداً يا بشري ستنتفتح وروود أكثر أريجاً ،



نرى أنهاراً أكثر أمناً ، نسكن بيوتاً أكثر دفاً ، نعرف أصدقاء أكثر  
إخلاصاً ، نستمع أغنيات لم نسمعها من قبل ، نلبس ثياباً لم نلبسها من قبل  
، نعيش حياة لم نعشها من قبل . .

غداً يا بشري الذي يكون كله لنا، وغدا ننجب أطفالاً لم ننجبهم من قبل  
نرى أعياد لم نرها من قبل ننشد أناشيدا لم نشدها من قبل ، غداً ستكون  
الحياة دافئة أكثر من قبل ، أجل يا بشري أقول لك بسرية أسراري كلها  
أهمسها لك كما أنك

لاتسمعها كما أنك لست هنا ، إنني سعيدة يا بشري سعيدة لأنني أتمتع  
بحواسي وأستطيع أن أميز الوجوه والأشياء حولي أستطيع أن أميز  
الكلمات التي أسمعها أميز المكان الذي أعيش فيه وأحفظ أسماء الأشياء  
أستطيع أن أفكر بحرية وأمشي وأقف وأتحدث وأصمت وأركض  
وأغتسل وأضحك وأنظر إلى الجهات، إنني أستمتع بالنظر والنوم  
والطعام و المسير وتمييز الأشياء و لحظات الإيواء إلى الفراش ولحظات  
النهوض منه ..

ياه كم تسحرني الحياة إنني يا سيدي ممثلثة بالحيوية ، أنظر كم أن الحياة  
حلوة أنظر إليها جيداً قبل أن نخرج منها أنظر إليها بقوة .

\* \* \*

في الصباح بينما كانت ذكرى تجلس جوار الخيمة تتأمل الأسماك التي ترتفع من النهر ، هبط قلبها وقد بوغتت بسيارة حكومية تقف أمام الخيمة ، أجالت بنظرها في النهر ، لم تجد السفينة التي تحمل بشري ونجم • نزل شاب من السيارة وألقى عليها السلام ثم أردف على الفور : هل هذه خيمة الأستاذ بشري عبد المجيد ؟ • أجابت ذكرى : هذه خيمة بشري • ألقى نظرات حول الخيمة والنهر قائلاً : أين هو ؟ إنه في النهر مع ابنه يصطاد السمك . - هل سيتأخر إلى أن يعود ؟ - تفضل انتظره ، ليس له موعد ثابت في العودة أنا في عجلة من أمري ، له مظروف هل لي أن أتركه لديك ؟ • هزت ذكرى رأسها بالموافقة لاستلام المظروف ، عندها سحب مظروفاً مغلقاً من السيارة وقال : هذا المظروف من معلمي القاضي إياد للأستاذ بشري • تناولت منه المظروف فقال الشاب : رجاء بلغيه سلام الأستاذ إياد ، وأدار السيارة عائداً . نظرت ذكرى في المظروف وأحست بريب نحوه فراحت تفضيه لتقع على رسالة مؤلفة من صفتين ، لبثت واقفة وبدأت

في القراءة : بشري هاأنذا أتجراً وأكتب لك رسالتي الأولى بعد كل سنوات الانتظار ولو بقيت لدي قدرة على الصبر أكثر لما كتبت، إنني مدين لك بكل هذا الذي أنا فيه وهو ذاته يشعرني بالإثم نحوك على كل ما أنت فيه لكن كل سنوات الدراسة و الخبرة لم تعلمني شيئاً مما علمتني إياه ، أصارك بأني وقتها كنت على علاقة بخمس نساء في وقت واحد إضافة إلى زوجتي ، كنت كالكلب المسعور ألهمت خلف النساء وتعلم أن من يكون في وضعي يسهل عليه أن يسرق ويكذب ويغدر ويحتال ، لكنك جنّت لتطهّر روعي من الآثام وكأن الله أرسلك إلي •

في ذلك الصباح الأثيم خرجت من بيتك مسعوراً ودخلت بيتي أنتظر دخولك إلي شهراً كاملاً لكنك لم تأت وظنت زوجتي بأني جننت ، لن تتصور كم كنت خائفاً على حياتي ، وفي أوقات أخرى كنت أتمنى فيما لو تحضر وتجهز علي بطلق نارٍ لتريحني من عالم كله قلق واضطراب ، كل طريقة على الباب كانت تعصر حواسي فحتى لو لم تكن أنت سيكون من يحمل إلي نبأ فصلي من مهنة المحاماة لأنني خنت زميلي وكيف ينطق بالحق خائن ، لكنني قررت الخروج وأنا أتوقع كل احتمال أسوأ من الآخر ، سألت عنك في قصر العدل وعلمت بأنك لم تدخله منذ ذلك الصباح •

ذهبت أسأل الجوار فقالوا بأنك اختفيت منذ شهر مع ابنك ، تلك التفاصيل التي لن أنساها ، تلك الشوارع التي مشيتها شارعاً شارعاً ، تلك الأماكن التي ترددت' إليها مكاناً مكاناً وأنا أبحث عنك لكن لماذا كنت أبحث عنك بذلك الإصرار حتى الآن لا أعلم ، لأجل أن تعاقبني ، لأجل أن أرى ما فعلته بك خيانتني لا أدري . لا أدري . لكنني علمت من أقربائك كل شيء ، من يومها وحتى الآن وأنا أتتبع كل أخبارك . لقد علمت بأنك سامحتني ولا أستطيع أن أصف لك شعوري حينها ، أنقذت حياتي يا بشري وأنقذت سمعتي والسمعة في واقعنا هي أهم من الحياة لأن الإنسان هنا إذا مات سينتهي ، لكن السمعة السيئة ستبقى تلاحقه وتصب اللعنة عليه آلاف السنين، وعلمتني يا بشري يومها أن أحافظ على سمعتي ، إنسان بسمعة سيئة هو أشبه بزبالة تتراكم عليها القمامة، وإنسان بسمعة طيبة هو أشبه بحديقة ورود فيها جمال الطبيعة والريح الطيب وتغريد البلابل ، أتعلم كم أنا مدين لك يا بشري أتعلم ، أتعلم لم نفذ الصبر على الأ أكتب ، لعلك لا تدري بأنني الآن صرت قاضياً وكان من المفترض أن تكون أنت القاضي وأكون أنا مكانك في عزلة عن الناس ، لكنني أحكم الناس بمبادئك وأفكارك ، أحكمهم بك يا بشري والإنسان لهو أسمى من أي قانون ، علمتني أن عدل الإنسان لا يكون في توجيه العقاب إلى المذنبين على قدر ما يكون في توجيه السماح لهم ، علمتني أن البطولة

السامية تكون في مدى القدرة على التسامح لا على العقاب ، علمتني أنني  
لن أكون قاضياً فاضلاً ما لم أكن قاضياً متسامحاً أكثر مما أنا قاض  
معاقب •

أصارك يا بشري أنني منذ تلك الصبيحة الأثيمة حرّمت على نفسي  
الخيانة ، سماحك لي طهر نفسي من الآثام، أدخلني إلى رحاب عالم  
النزاهة والنقاء والصدق ، إنه عالم حافل بالنور لم أكن أدخله ولم أكن  
أتوصل إليه لولاك . بشري أنا آسف على كل ما سببته لك من ألم وأنني  
أحني رأسي أمام ذكرك وأذرف دموع الندم ، يكفيك يا بشري أنك  
أصلحت إنساناً فاسداً بعفوك ، يكفيك أنك استطعت أن تزرع أشجار  
فضيلة في تربة نفس أثيمة .

أنهت ذكرى قراءة الرسالة ، نظرت حولها جيداً ثم أدمتها في حفرة  
خلف الخيمة .

ذكرى تحفر حضورها في مخيلته ، تسكن حواسه وفي أثناء حديثه تخرج  
كلمة منة بلهجة ذكرى ، تبدر حركة تقوم بها ذكرى ، ينتبه إلى أشياء  
تنبهه إليها ، وبدت ذكرى كمدرسة كبرى يتعلم منها أوقات العمل والراحة  
، وطريقة المشي والكلام ، وكم يخجل من إعلان هذه الحقيقية ، لكنة لا  
يستطيع الهروب ، فكل شيء يفضحة، مثلاً أن يردد مثلاً كانت قد قالته

ذكرى ، أو يروي حادثة كانت قد روتة ، أوفي تغيير نمط حياته . بدت ذكرى تسحره وتسيطر على تصرفاته ، وتفرض عليه كل ماتؤمن به ، حتى أنه يستمع سورة /آل عمران / عندما تغيب عن الخيمة ، ويواري عنها كل شكل للتأثر . لا يستطيع اكتشاف مصدر القوة الهائلة التي تدفع عينيه للنظر إلى مشيتها ، للإصغاء لحديثها ، لتناول ماتصنعة من طعام بلذة عجيبة ، للتحديق في كل حركاتها وهي تلاعب نجم لعبة رش الماء في النهر ، وأحياناً تدفعه رغبة جامحة لارتداء ملابس سوداء قاتمة كما تلبس ، ويحلم ببنتال أسود ، بقميص أسود بحذاء أسود ، بتياب داخلية سوداء ، بجراب أسود ، وأيضاً بمشية سوداء كتلك التي تمشيها ، وكم يهرب في آخر الليل من الخيمة هرباً من لهيب رائحتها بقربة يرتعب من مجرد التفكير بالعودة إلى عالم مازال منذ عشر سنوات يهرب من جحيمه ويتمتم بياس : ستكون هربت من امرأة لتقع في شباك غيرها ، ستعيدك عشر سنوات إلى الورااء . تقول وهي تحرق في نظراته إليها : يا سيدي عندما تتضايق من وجودي لن يبقى أمامي غير النهر مرة ثانية .

يقول : يا ماما أنت ضيفة وأنا أعتذر عن التقصير . ويسعى لإخفاء حبوره وهي تناديه / سيدي / ويناديها بفرح طائر : يا / ماما / ويقنعها بأنه يفكر بحل لتعود إلى بيتها ويقنع كافور ليتركها في سبيلها

ويشرح لها بأنه رجل متحرر في نمط حياته كما ترى ، وهي محافظة في طريقة حياتها ، وتحرره ربما يسبب لها الحساسية ، يواصل شرحه لها في هذا الإتجاه ، فهو في الظهيرات الحارة يكون ثملاً يتمدد شبيه عار على ضفة النهر يغني ويتمم بما يخطر له ، وهي تكون بكل ثيابها حتى بالإشرب على شعرها تصلي أو تسمع سورة آل عمران ، فنقول له : لكن ليس من حقك أن تتركني رغم كل ما ترى ، وما يجمعنا لهو أكثر أهمية مما يفرقنا لدرجة أنه بات من المستحيل علي أن أفكر بذلك النحو الذي تذهب إليه . إذا ذكروا أسماء ثلاثة أثرياء في البلد فإن أبي سيكون أحدهم ومع هذا فإن هذه الخيمة تساوي عندي كل قصور الملوك، وأي مكان آخر أنت فيه سيكون الأكثر أمناً بالنسبة لي .

بدأ بشري ينسجم مع الحياة الجديدة التي يعيشها مع ذكرى ولا يريد أن يتصور فراقها، لقد ملأت عليه فراغ العزلة وأحالت الخيمة إلى قصر . فهي ترتب أوقات العمل وأوقات الاستراحة وتجعل يوم الجمعة عطلة أسبوعية ، في كل صبيحة تعجن وتخبز على الصاج واستطاعت أن تقنع بشري بتربية الدجاج والأرانب فاشتري نجم أربع دجاجات وديكاً وزوجاً من الأرانب مع ستة من صغارهما وذات يوم بينما هي تحوش الحشائش للأرانب على بعد من الخيمة وقع نظرها على غنمة تائهة فجلبتها وربطتها بجانب الخيمة بالقرب من قني الدجاج و الأرانب.

إن أي ناظر لمنظر الخيمة والزهور المحيطة بها يتوقف للجلوس فيها وهو ذاته يشتم لمسات أنثوية تفوح من كل ركن ومن كل ذرة تراب تحيط بهذه الخيمة التي أصبحت تشرق . أما بشري فإنه اضطر أن يقول لتجار السمك بأنه مريض وأن الأطباء وصفوا له أن يكون في مكان نظيف منشرح كي لا يغلبه المرض ، وأن نجم هو الذي يتولى كل هذا التغيير .

في الصباح بشري ونجم يصطادان في النهر وذكرى تسقي الغنمة المربوطة بجانب الخيمة ومن بعيد تتراءى سيارة يراها نجم فيقول لأبيه : أنظر يا أبي .

يدير بشري نظره فيرى سيارة قادمة صوب الخيمة وعندها يدير اتجاه السفينة قائلاً : ألا تلتفت حولها .. مليون مرة قلت لها كوني حذرة من قدوم السيارات ، كأنها لصقت بالغنمة ..

انظري خلفك يا مجنونة . السفينة تدنو والسيارة تدنو يجلس فيها شخص إلى جانب السائق يشير بسبابته : أنظر يا مرعي .. امرأة تجلس عند خيمة بشري . يفرك مرعي عينيه بيد ويواصل القيادة بيد : لا أرى شيئاً يا أبا شاهر . يقول أبو شاهر : رحم الله نظرك يا مرعي أيام كنت تصطاد الأرناب في البرية .. امرأة يامرعي ، بعلمي أن بشري قاطع كل أقربائه ، من أتى بها هنا ، أول مرة أرى امرأة عند بشري منذ عشر سنوات !.



تفرغ ذكر بمن سقي الغنمة وتنهض ، ومع نهوضها تلتفت فترى السيارة بالقرب منها . تشعر بأن صاعقة وقعت عليها .. تنظر إلى النهر فترى بشري ونجم يهرولان ، تتسمر مكانها في ذهول دون أي حراك . تقف السيارة جانبها ، ينزل منها الشخصان يلقيان عليها السلام، فتجيب بإرباك : أهلاً وسهلاً ها هو بشري جاء . يأتي صوت بشري سابقاً هرولته : هذه أختي جاءت تطمئن علي . ثم يصوب نظرة عجلي إلى إرتباكها : ياماما اعلمي لنا ابريق شاي . تدخل ذكرى الخيمة ، تضع ابريق الشاي على النار ثم تضع كفها على خدها وتعض بأسنانها على شفتها السفلى وتتجحظ عيناها كأنهما يريدان الخروج من وجهها . يبرك بشري مع الشخصين على حصيرة مهترئة بجانب الخيمة ، يمر نجم مسلماً وهو داخل الخيمة .

يقول بشري في محاولة لتجنب الحديث عن ذكرى : السمك يفل هذه الأيام يا جماعة، الناس يفجرون الديناميت ويقضون على السمك بالزهر ، حرام ، السمك ينتفخ على الشواطئ حتناطير لا يأكله . يقول أبو شاهر: أنت بنعمة يا بشري الصيادون يعانون من الجمعية التي تمنعهم من البيع للتجار إضافة للضرائب . يطلق بشري ضحكة : أنا لست صياداً لتأتي الجمعية وتعاملني كالصيادين . أنا هربت لأتسلى وأضيّع عمري . السمك الذي أبيع لك يا أبا شاهر منذ عشر سنوات لا يكفي

حاجتي من الإنبييت والدخان ، كانت سيارة الجمعية تأتي في السنة الأولى وكنت أضيفهم الإنبييت، قلت لهم : أنا لا أبحث عن النقود ، أنا اخترت هذا المكان فقط لأشرب وأنسى عمري . ومن يومها لم أرهم .  
يطلع نجم من باب الخيمة حاملاً إبريق الشاي وسفرة عليها ثلاث كاسات وعلبة سكر وعلبة دخان حمراء طويلة . يجلس قبا لتهم ويبدأ في سكب الشاي وتقديمه، بعدها يذهب إلى البيكاب ينزل صندوق النبيذ . بعد شرب الشاي ، ينهض الجميع ، بشري وأبو شاهر ونجم ساروا نحو القارب بينما تقدم مرعي سائقا البيكاب . وعندها بد أوا يزنون السمك ويضعونه في السيارة وعندما فرغوا عادوا مرة أخرى إلى الخيمة ..  
أخرج أبو شاهر دفتر الحساب من جيبه مع آلة حاسبة صغيرة ، وعندها قدم لهم نجم إبريقاً جديداً من الشاي الساخن . بعد الحساب ناول أبو شاهر نقوداً ليد بشري قائلاً : هذا حقك كاملاً بعد أن حسمنا منه قيمة صندوق الإنبييت . وقبل أن يصعد السيارة نظر أبو شاهر إلى ساعته وقال : يا مرعي نصلي الظهر ونتيسر . فمد كل واحد شماغه على الأرض وأخذوا يصليان . انصرفت السيارة ولبثوا جميعاً في اضطراب قالت ذكرى :  
ماذا نفعل يا بشري ؟!

قال : لا نفعل شيئاً . عندها قال نجم وكأنه لم يعد يملك نفسه: / إي هذا أبو شاهر يبيع أمه بعشر ليرات / عند حلول الظلام جلسوا جميعاً داخل

الخيمة يسهرون على ضوء الللمبة ، وقد خيم سكون عليهم ، ذكرى تنتظر إلى بشري وهو ينظر إليها فينظران إلى نجم وكأنهم في انتظار حدث سيء لا يعرفون عاقبته. استمر السكون إلى منتصف الليل وبشري لم يشرب لأول مرة ، لكنه حطم رأس زجاجة فارغة وأحتفظ بها داخل الخيمة، تقول ذكرى : ألن تنام يا بشري .

- : لا لن أنام ، لا أريد أن يأتوا وأنا نائم ، أريد أن أكون يقظاً ، ليحدث كل شيء وأنا يقظ . تقول ذكرى : مضت عشر ساعات ولم يأت أحد ، لو علم ( كافور ) لآتى في نصف ساعة . لبثوا مستيقظين حتى الصباح وعندها نهضت ذكرى ، اغتسلت من النهر ولفنت الغنمة نظرها ، تذكرت بأنها نسيت أن تحلبها ليلة أمس ، لنجم كي ونسيت أن تصنع اللبن فتمتت في نفسها : لكن سأضع الحليب الساخن مع الفطور . ودخلت الخيمة حملت إناء وأشارت لنجم كي يمسك لها برأس الغنمة حتى تحلبها .. أخذ نجم إناء الحليب ووضع على النار بينما راحت ذكرى إلى قن الدجاج وأنت بخمس بيضات ثم أوقدت النار وبدأت تخبز على الصاج .. استغرقت عملية تحضير الفطور مع الخبز الساخن أقل من ساعة فقال بشري : كان يمكن لنا أن نفطر بخبز البارحة ولا ترهقي نفسك يا ماما . قالت : ليس هناك أطيب من فطور الصباح مع الخبز الطازج الساخن ، أفضل ما فعلناه هو تربيتنا للدجاج وأن الله أرسل لنا

غنمة ضائعة • نظر بشري إلى أنواع الطعام : البيض المقلي .. الزيتون .. الحلاوة .. الحليب وقال : كنا قبلك نفطر السمك أو المعلبات وخبز الصمون الذي نبليه بالماء .

قالت ذكرى : أدام الله علينا النعمة وحفظها من الزوال . وبعد أن فرغوا من الفطور قالت ذكرى : أرى بأنها عدت على خير ، ما رأيك يا سيدي ؟ قال بشري وقد أشعل سيجارة : لكن كوني حذرة في المرات القادمة ، ما رأيك أن تكوني معنا هذا اليوم ؟ • صعدت ذكرى المركبة دون أن تتحدث واتجهوا جميعاً نحو مساحات النهر نحو استقبال يوم جديد ورزق جديد .

في المساء وقفت سيارة أمام مدخل الخيمة ، نزل منها ثلاثة أشخاص اقتحموا الخيمة ، لكنها كانت خاوية ، انتظروا حتى لاحت لهم أطياف القادمين ، تقدمت المركبة إلى أن رست على الشط ونزلوا متجهين نحو الخيمة ليروا الأشخاص الثلاثة في انتظارهم ، عند ذلك صرخت ذكرى : إنه هو ، كافر . فقال ذات الرجل متوجهاً إلى بشري : أهو أنت الذي أخفاها عنا طيلة سنة؟! .

قال بشري : سأكلك حياً إن لم تذهب الآن .  
دنا إلى بشري بخطوات واثقة ، ولكن بشري قفز إليه ورماه أرضاً وصار يسدد لكلمات على وجهه، وعندما اقترب الآخران اتجه نجم إلى

واحد واتجهت ذكرى إلى الثاني يمنعانها الدنو من بشري . دام عراك لمدة نصف ساعة حتى انطلق عيار ناري ، فتوقفوا جميعاً ، رفع كافور مسدسه أطلق عيارات أخرى في الأجواء ، واستطاع أن يأخذها تحت التهديد بإطلاق الرصاص ، كان له ذلك عندما تدخلت ذكرى بنفسها وترجت بشري أن يبتعد عن سلاح هذا الطائش .. بسرعة خاطفة كانت ذكرى في السيارة و دارت العجلات بين الطين وبقايا الرمل مخلقة عاصفة من الدخان غطت الخيمة وما حولها ، وما إن هدأت العاصفة حتى كانت السيارة متوارية عن أنظار بشري وابنه . عندها هتف نجم بغصة مَنْ فقد شخصاً حميماً : أتظن أن كل شيء قد انتهى يا بشري . ولم ينتظر الإجابة.. ذهب شطر حافة النهر يقذف ما يقع في يده من حصى بقوة وكأنه يجرب عضلاته .

في هذه الأثناء دخل بشري الخيمة، فتح زجاجة نبيذ بأسنانه وجرعها على دفعتين في محاولة أخيرة للهروب من طيف ذكرى وما تركته من حضور بهذا الإختطاف القسري ، لكن الحضور بدا أكثر اشتعالاً مع أخذ النبيذ مفعوله : ليس للإنسان إلا الإنسان يا بشري لذلك أنا أرفض عزلتك .

أتظنين أن بوسع هذا الإنسان أن يحتمل كل الآلام التي تقع عليه فجأة كالصاعقة ،عندها سألتُ نفسي : يا إلهي أيمكن للإنسان أن يعيش مخدوعاً خمس سنوات مع من يراها كل يوم أكثر من أي شخص آخر ، هل تظنين أنه كان علي أن أواصل الحياة كما أن شيئاً لم يكن ، لقد انفجر الخبر بنظري في المدينة كبر كان ، وعندها كل شخص ، كل رصيف ، كل شارع ،

كل زميل ، كل قاض ، كل قريب ، كل شجرة ، كل جار ، وكل ما في البيت كان سيصرخ في وجهي :

إنه أنت الذي أمضى خمس سنوات مخدوعاً .

عشر سنوات في هذا الضياع ما تزال تهدئني ما تزال تحيل ما وقع إلي حادث وقع في الماضي وتراكم عليه الغبار ، لقد كان هذا القرار بديلاً عن قرارات كثيرة أقسى وقعاً من هذا كله.

تقول له بعد شهرين من وجودها : يا بشري كنت في البيت دوماً أستمع لسورة آل عمران .

في صبيحة اليوم التالي يرسل نجم ليحضر شريطاً مع آلة تسجيل صغيرة وعلبة بطاريات .

هاهي ذكرى تقع عليه في المنخفض المجاور للخيمة يشرب ويدخن وعندما يسمع صوتها يخفي الزجاجاة ، ها هي تمسك بيده تعيده إلى

الخيمة ، تمد يدها إلى زجاجة ، تفتحها وتملاً له كأساً : اشرب يا بشري  
في خيمتك بعد اليوم ، سأكون مطمئنة عليك .  
وها ذكرى بحضورها تجلب أنواع الزهور .. أنواع ما يمكن أن يؤكل  
من تعاشيب ، تصنع الزهورات .. في يوم تقود غنمة كانت تائهة ،  
تصنع اللبن تقدم لهما الحليب صباحاً وتهتف ذات مساء لا ينسى : لقد  
جعلت يا بشري هذه الخيمة أحب إلي من قصور العالم والنوم فيها آمن  
من كل أسرة الملوك .  
وتحترق روحه بنيران الذكريات خطواتها تناديه من كل ذرة تراب ، من  
سكون النهر ، من زجاجات النبيذ الفارغة التي كانت تلملمها في  
المنخفض ، من الورود التي زرعتها حول الخيمة .  
- ما الذي يدفعك لكل هذا الإرهاق يا ماما كوني مرتاحة كأميرة .  
- ألا أريد أن أعطي شيئاً لمن أعطاني كل شيء .  
لكنك تبذلين إرهاقاً أكثر منا ، من الفجر وحتى نصف الليل .  
و إن لم أقم بهذا ما الذي سأفعله أكره ألا أعمل لساعة واحدة ، ألا ترى  
أن الإنسان جاء ليعمل ويعمل فقط ، ألا ترى أن هناك راحة طويلة أطول  
مما نتصور ألا ترى يا سيدي بأنك رغم موقفك تعمل حتى الإرهاق  
لتكون منتجاً وليس عاطلاً عن العمل ألا ترى كم أسرة ترتزق من  
أسماكك ألا ترى بأنك تقدم لمن هربت منهم طعاماً شهياً ، وما الذي تراه

فيما أقدمه ألا ترغب نفسك أن أكافئها أن أزرع لك زهرة أن أمنحك  
لبنى وحليبي .

ينظر إلى نجم الذي بدا أكثر كآبة منه ويتذكر قولها له : يا نجمي ألا  
تحب ألد راق والتين والليمون ، ألا تريد أن تحمل شيئاً لأمك الصغيرة  
من المدينة في الأسبوع القادم .

وتغدو هواية نجم شراء الدراق و التين والليمون لها كلما نزل المدينة .  
هاهو مخمور في ليلة باردة يخرج مترنحاً إلى ضفة النهر ، يتحسس  
وقع خطاها خلفه ، ستجلس على البعد في العتمة حتى تراه ينهض  
للعودة، لكنه يلکم بمنخفض و يقع قبل وصوله الضفة فتهرع إليه ، ترفعه  
ويميضيان إلى حافة النهر ، ترى أن الشرب أثقله فتقول : لكنك يا بشري  
تصير أكثر وضوحاً ، تصير أكثر شفافية ، أكثر نضجاً ، أكثر امتلاءً  
وأنت تشرب ، لقد غيرت مفهومي عن الشرب ، كانوا يقولون لي أشياء  
أخرى عن هذا العالم .

يتمتم بألم : هاهي لحظات طيبة أمضيها معك لكنني خائف من استيقاظ  
الجرح .

عندما طلبتُ باهرة للزواج جاءني صديق وقال لي كلمات لا أنساها ، قالها  
بغضب وكأنه يشد أذني : يا بشري هذه مغامرة ، أنت تراهن على



مستقبلك ، باهرة امرأة جاهلة أمضت حياتها في بيت منغلق ، وأنت تتزوج كضربة حظ ، عليك أن تتعرف عليها وتكتشف طبيعتها بطريقتك ثم تتخذ قرارا كبيرا كهذا • أعلم بأنها لا تنتمي لأسرة عريقة ، ليست متدينة ، لاجمال بها ، تربيته متواضعة ، لا عمل لها ، ستكون عبئا عليك ، فتضطر لتتحملها ، أو تضطر لتتغابي حتى تنسجم معك وتنسجم معها . يابشري هذه طامة ، حتى أنها في المستقبل لن تمنح أولادك خالا طيبا أو خالة طيبة ، ولا تمنحهم جدا ناضجا ولا جدة عطوفة ، هؤلاء يتشاجرون مع أعضائهم ، لا تنجح في الدخول إلى عالمهم ، ولا هم سيقبلون الدخول إلى عالمك ، هناك تاريخ كامل يفصل بينكما ، تاريخك الذي خلفته ، وتاريخها الذي خلفته • لن تكون لك قررة عين ولا قررة قلب ، ولا تصدق أن عينك سوف تقر بروئيتها ولا حتى قلبك . لا أدينها يا صديقي ، فهذا هو الواقع الذي نمت فيه وهي تصلح لمن نما في واقع مثله ، هذا هو الوفاق • هل تريد للنحلة أن تحط على الزبالة وللذبابة أن تمتص رحيق الوردة لتمنح العسل ، حتى لو منحت الذبابة عسلا فإنه سيكون عسلا فاسدا ولا أحد يقربه • لماذا نهرب من الوقائع ونصر أن نضع الذبابة على الورد ، لا أدين الذبابة لأن هذا هو طبيعتها ، ولكنها الحقائق التي علينا أن ندركها •

- لكنني يا صديقي بحاجة إلى امرأة ، أي امرأة ، عجزت من البحث عن المرأة التي أحلم بها ، يبدو بأنها غير موجودة ، هل سأنتظر إلى آخر العمر . العبارة التي تصدر من أي شخص يلتقيني بعد السلام وأحياناً قبله : هل تزوجت ؟ ضجرت سماع هذه العبارة . أمام هذه النداءات التي لا تنتهي ضجرت الوحدة في بيت مغلق علي . اختلت كل الموازين يا ذكري فقلت بيني وبين نفسي : صديقي على صواب ، لكن لتكن مغامرة العمر ، علها تصيب وتنقلب الموازين . أجل اتخذت قراراً مزلزلاً كهذا وأنا في حالة مضطربة لاتؤهلني لاتخاذ قرار سوي حتى لشراء قميص من البالة .

هل يعرف نجم شيئاً عنها ؟ .

- قلت له كل شيء ، فصار يرى بأنها قضيته أكثر مما هي تعينني و يرى بأنها لم تحترم مشاعره عندما نامت مع غير أبيه ، يرى بأنها خانته و خدعته و صار من يومها يكرهها كرهاً غريباً ولا يتصور أن ينظر إليها حتى النظرة الأخيرة في الموت . أتصور أن صلته بها تحمل له الألم أكثر من صلتي بها ربما لأن الأم هي أقرب من الزوجة وربما لأنها بكلمة واحدة يمكن أن تذهب الزوجة وتحل زوجة أخرى بدلاً عنها ، لكن الأم هي واحدة ولمرة واحدة ولا يمكن لأحد أن يحل محلها ، لا يمكن لأحد أن يولد مرتين ولكن يمكن أن يتزوج مرتين وأظن عندما أنسى

سيكون هو في ذروة معاناته التي ستكون حادة عندما يتزوج وينجب ويرى الأمومة مرة أخرى في بيته . عندما يأتي ذكرها وأرى حجم ألمه يجعلني أكثر قلقاً على مستقبله ، لقد طلب أن أغير اسمه الذي أسمته إياه أمه ، قلت له بأني سأعيش في ليل طويل ما رأيك أن تكون نجمي الوحيد في هذا الضياع .

فقال :أنا نجمك يا أبي . من يومها صار اسمه نجم بدلا عن عقبة ، يؤنسني في ليالي الوحدة والضجر إنه أنيسي الوحيد في هذا العالم ، كنت أقول له : يا نجم تعال واشرب معي ، شرب سنة واحدة هي سنته الثانية عشرة لكنه أصبح يكره الشراب ولا يطيقه . ها هو نجم يبدو أكثر ألماً يشعر بحجم الخسارة الفادحة مرة ثانية ،

المرأة الوحيدة التي كان يمكن لها أن تمنحه قليلاً من عاطفة الأمومة المفقودة ، المرأة الوحيدة التي تقول له بكل ما في الأمومة من رقة وعذوبة : / يا نجمي ./

مضى الليل كدهر ، وعقبه نهار لاضوء فيه . ثلاثة أيام متتالية مضت عليه دون أن يغفو لحظة ، إنه يقظ كنسر ، في فجر اليوم الرابع بينما كان مستلقيا في الفراش جوار نجم

انتفض كجبل وانتفضت معه كل الصور المتركمة في الذاكرة دفعة واحدة ، وانتفض نجم من رقادته خائفاً على أبيه لأول مرة عندما رآه

يترك الخيمة و يتجه في ذات الدرب الطويل الذي أخذ ذكرى : المدينة بعيدة يا أبي والمكان مقطوع ألا تنتظر الضوء؟ . لكنها ذكرى يا نجم ، ذكراي ، وذكراك . قالها وخطا خطوات واثقة في الدرب ، مشى دون أن يتأمل أي سيارة تتوقف لتحمله .  
كان يزداد امتلاء بأنه يمضي نحو من تنتظر منه هذه الخطوات أو أنها تناديه .

عند الظهيرة أشرف على دخول المدينة وعندها فقط أدرك أنه قطع مسافة أربعين كيلو متر أعلى قدميه، اتجه نحو بيت عمها وهو على معرفة بأسماء أولاد عمها وأسماء إخوانها و أخواتها وخالاتها وبنات خالاتها . من مدخل الشارع تناهت له خيمة ضخمة ، دنا إليها بقلق ، لمح بعض أشخاص على شبه بها ، كان هؤلاء يستقبلون المعزّين ويودعونهم ، دخل الخيمة بخطوات باردة وقد نسي إنهاك الطريق ، ولما صافح أحد هؤلاء أقسم بأنه شقيقها ، عندما باوسه معزياً فاحت روائحها بقوة منه ، تمت قائلاً : البقية بحياتك ، دون أن يعرف شيئاً سوى أنها خيمة عزاء بدت منتصبة حديثاً ، وقد أدرك لدى جلوسه بأنه ترك لديهم إنطباعاً عن شخص مخبول جاء يدخن سيجارة ويمضي بعض الوقت تحت خيمة عزاء وينصرف ، وتحسس هذا الشعور لدى نظرات الجميع إليه .. شخص يبدو أطول من جميع الحضور ، ضخم الجسد ،، تبدو آثار

نعاس دائم في عينيه المتورمتين ، لكنه يبدو قوياً ونشطاً كحصان ،  
يدخن بفضافة ويرشف إبريقاً كاملاً من الماء من يدي صبي تقدم يسقيه ،  
عندئذ همس لمجاوره : ما حدث يا صديقي ؟.

يا سيد ثلاثة شباب راحوا في شربة ماء ، اسمع لما علم المرحوم كافور  
مكان ابنة عمه الهاربة منذ سنة أخذ معه عاملين من عماله في القرية  
وأعادوها ، في الطريق اصطدمت سيارتهم بستير محروقات ، البنيت  
وحدها أصيبت ببعض الجروح و نجت من الحادث بقدرة قادر ، يقولون  
بأنها تتلقى العلاج في المشفى .

عندئذ انتفض بشري دون أن ينتظر لحظة واحدة ليكمل الرجل حديثه ،  
انتفض فاقد الصواب متجهاً إلى المشافي يبحث عنها إلى أن وقع عليها  
في إحدى المشافي الخاصة ، انبعث إلى غرفتها كالسحر ، وأحست هي  
أيضاً بسحرية الموقف لحظة وقعت عيناها عليه وبدون وعي أرادت أن  
تتأكد بأنها ليست في حلم ، انتفضت من السرير وسقطت على الأرض  
بينه وبين سريرها ، لم تستطع الأم أن تخفي استيائها ودهشتها وظنت  
هي الأخرى بأنها في غفوة من جهة مظهر هذا الداخل ، ومن جهة  
انتفاضة ابنتها ، ولكنه سارع في حملها على يديه كما يحمل أرنبة  
ووضعها على السرير ، عندها تمتمت بالكاد : / سيدي / وبدت تقاوم الأم  
السقوط على الأرض وتجاهد لفتح عينيها والتحديق في وجهه . كم

شعرتُ برغبة جامحة لاحتضانه أو لمد كفهإلى كفه ، لكنها تملكتم أن  
تقمع هذه الرغبة كما تملكتم أن تقمعها طيلة سنة كاملة على النهر .  
جلس على كرسي قبا لتها والأم ما تزال تنظر إليهما بدهشة فاضحة ،  
قال وهو ينظر إلى ذكراه : هل أستطيع أن أفعل شيئاً يا ماما ؟ .  
اعتراها شعور غريب بأن حياة كاملة أشرقت في أعماقها ، وكم شكرت  
الله بأنها لم تمت ، فقط حتى تعيش هذه اللحظات من إشراق الحياة ، هل  
يمكن أن تتلخص الحياة كلها وبهذه القوة في شخص واحد .  
- هاهو الله ينقذني مرة أخرى ، يبدو بأنني مستعجلة كثيراً وأنه متريث  
في هذه المسألة . والتفتت إلى أمها : هذا هو الشخص الذي حمى ابنتك  
سنة كاملة في خيمته المهجورة ، هذا هو الشخص الذي لا يمكن تقديمه  
بالكلمات ، لا يمكن التعريف عليه إلا عبر معاشرته .  
أعتذر منك يا سيدي لأن كل ما لدي من كلمات ومشاعر لا تكفي  
للترحيب بك ، لكنك تدري أن طاقة الإنسان محدودة ، إنهم اعتبروني  
السبب في موتهم وقاطعوني ، فقط أمني جلبتها أمومتها إلي . عندها  
نهض بشري عائداً إلى خيمته ، تلقاه نجم قائلاً : أين ذكرانا يا والدي ؟  
•  
في المستشفى .

تلقى نجم هو الآخر النبا كالصاعقة وفي صبيحة اليوم التالي راح بمفرده يحمل باقة ورد إليها.

عزم بشري على خوض تجربة نسيان أخرى ، لكنه أدرك بأن التجربة أقسى من الأولى ، فكل ما في الخيمة يصرخ بها : الزهور المزروعة في قناني النبيذ التي تسور الخيمة ، رائحة النعناع البري المحيط بالخيمة ، نمط الحياة الجديد ، صوت الغنمة ، ثيابها ، أغراضها .. كل شيء يتفوح برائحتها ، إنها المكان ذاته ، وأحس بشري لأول مرة بالضعف في المقاومة ، حتى النبيذ الذي يتناوله يملأ حواسه بحضورها فيلنقت عليها تنتظره في العتمة ، كل ما في المكان ينادي بها. شهر مضى عليه شهر وهو فاقد لأي رغبة في العمل أو الحياة ، ويبدو استسلامه واضحاً أمام حضورها ومقاومة هذا الحضور ونجم يراقب ذوبان أبيه الذي يهزل يوماً بعد يوم ، لا يتناول سوى النبيذ ولا ينام إلا في إغفاءات سريعة متقطعة لا يلبث معها أن يمد يده إلى زجاجة النبيذ.

يلغو وجهه الصفار وكل عضو فيه يرتجف كمن سيقضي بعد هنيهات ، لم يترك صخرة إلا ونحت اسمها ، لم يترك جذع شجرة ، لم يترك مكاناً في المركبة والخيمة . تناديه أغراضها في الخيمة ، يتأملها يشتم رائحتها يسمع صوتها يرى صورتها على كل غرض : الآن يا ذكري وقد انتصف الليل أشعر بحاجة لاتطاق إليك ، أشعر بشوق فوق طاقتي

لسماع ولو نبرة واحدة من صدى ذلك الصوت السحري ، إنني ياسيديتي ، أجل أقولها ولو مرة واحدة بيني وبين نفسي ولأجرح عزة نفسي ولو مرة واحدة ، أجل ياسيديتي إنني أبدو أضعف مخلوق في العالم وأنا أترنح تحت ثقل جبل الشوق ، وأكثر مخلوق في هذا العالم حاجة لتكوني بقربي وتطبعي على اشتعالي قبلات انطفاء ، لكنك تبدين أكثر بعدا عني من أي شعور آخر ، هل أنت نائمة أم تتأملين نزيه شوقي بصمت • تقع عيناه على كاسيت ، تسري نشوة في حواسه ، إنه الكاسيت المسجل عليه حديث جلسة ثلاثية حميمة كانوا اتفقوا على تسجيله .

إنها ذكرى التي تنام في هذا الكاسيت، ناوله لباب المسجلة الصغيرة ، إنه الصوت هذه المرة الذي يسحره ، صوت ذكرى، أعذب صوت وقع على مسمعه ، إنها أرق كلمات سمعها من فم مخلوق :

عشت عشرين سنة سأضعها على طرف أمام هذه السنة التي عشتها معك ، أنا مدينة لك بتعلم أشياء كثيرة ، إنها السنة المقدسة التي سأبقى أجلها عمري ، أمضيت سنتين حتى حفظت القرآن ولكن الآن علمتني أن الإنسان يحتاج لأن يتعلم من الإنسان أيضاً .

- ولكن بعض التعلم يحمل قسوة .
- (وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .
- ما أزال حزينا على ما أصابني ، ما أزال أتألم .



- ( ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون ) .  
- يبدو لي بأنني انقطعت حتى عن الله .  
- ( إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر )  
العمل طقس من طقوس العبادة التي هي تواصل مع الله ، أليس هذا جهاداً  
في سبيل ألا تموت جوعاً ، ألا تكون صالحاً وأنت تطعم طفلاً وتربيته ،  
وأنت ترفض الخيانة ، وأنت تصبر على ما أصابك ، وأنت تقوم بإعالتني  
وهل الأعمال الصالحة هي غير الحق والصبر والمعرفة والتربية والعمل  
والصدق والكرم والمروءة : ( ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل  
الخبيث بعضه على بعض فير كمه جميعاً ) . الطيب لا يلبث مع الخبيث  
والخبيث لا يلبث مع الطيب .  
يتمتم في ذروة اليأس : لكنها ذكرى التي ترفض هذه المرة أن تتحول إلى  
ذكرى .

مضى شهر ونصف على محاولاته اليائسة و ذات عصر جاء هتاف نجم  
كأنه الصدى : يا بشري جاءت ذكرانا .. كان آنذاك بشري يقبع على  
النهر فانطلق إلى مصدر الصوت الذي غدا كالصدى في أذنيه : ذكرانا ..  
ذكرانا .. ذكرانا . كأن ملاكاً هبط من السماء وحمل إليه البشرى ، أشار

نجم بيده ، ونظر إليها تتقدم من بعيد ، هرعا إليها ، كان نجم هو الذي قذف بنفسه في حضنها يياوسها بحرارة ويبيكي، وهي تقبله كأنه نزل من بطنها ، عندها لفت منظر بشري نظرها فقالت : هل ألم بك مرض يا سيدي ، سأقضي كل عمري وأنا أخدمك . لا حظ نجم أن الدم بدأ يصعد إلى وجه أبيه وقال : كان بشري مصابا بمرض الشوق .

- : اليوم صار بإمكانني أن أمشي وقررت أن أفي بعهدي لنفسي ، عندما علمتُ بأنك جنّت إلي مشياً ، عاهدت نفسي وأنا في السرير بأن خطوة الخروج الأولى من البيت ستكون باتجاهك ، تركت البيت في التاسعة صباحاً لم أقف للحظة واحدة وأنا أمشي ، كل لحظة وقوف كانت ستؤخرني عنك ، لم أشعر بإرهاق الطريق لأنني كنت ماشية إليك ، أكثر من عشر سيارة وقفت لتحملني لكنني رفضت أن أصلك إلا مشياً .  
وعادوا جميعاً إلى الخيمة ، رأت كل شيء في ركنه ، قرأت اسمها على كل الأماكن ، نظرت إليه وقالت : هل تقبل أن نعيش معاً يا بشري ؟

قال بشري بدون أي لحظة من تردد : هل تقبل يا سيد نجم أن تأتي معنا وتخطبها لأبيك .

وعند ذاك انطلقت ضحكة مشتركة منهم واتجهوا كشخص واحد صوب  
المدينة تاركين الخيمة وراءهم .

## الفصل الثاني

أمضى بشري شهرا يتنقل بين الأقرباء وهو يبحث مع ابن أخته صديق عن بيت يتزوج فيه إلى أن وجد صديق بيتا مناسباً بالأجرة في حي شعبي ، وكان قد بقي لديه مبلغ من قيمة الشقة التي باعها فاشترى به أثاثا للبيت وترك منه ما يشتري به أمتعة وذهبا وهدايا لذكرى . في اليوم التالي على تجهيز البيت اتجه بشري مع أخيه زهدي وأخته كانونة وعمته عائشة إلى بيت السيد شوقي يطلبون ذكرى للزواج ، فوجدوا مرونة منه وقال بأن مطلبه الوحيد أن تكون ذكرى راضية ومقتنعة ويكفي أنه ضغط عليها في الماضي بهذا الأمر وقد أنقذها الله له . اتفق بشري وذكرى أن يكون الزفاف بعد شهر آخر حتى يمضي وقت أطول على حادث ابن عمها ، عندئذ كان الزفاف بدون حفلة ولازغاريد وكأنها كانت على خصام وعادت إلى بيت زوجها .

ها أنت يا بشري عدت إلى طقوس المدينة نسيت عالماً من الصمت والسكينة والهدوء ، مرة أخرى أعادتك المدينة إليها هل أنت مستعد لهذه العودة .. ها أنت يا بشري تسكن بيتاً بالأجرة كشخص يبدأ حياته للتو . التجربة المكررة مرة لكنك تحتملها من أجل هذه المرأة التي تملأ عينيك

وعروقتك وحواسك ، إنها هي المدينة هي مَنْ أعادتكَ لأنك لا تريدها أن تعيش في عزلة ، لأنك لا تريد أن تراها منعزلة في خيمة مهجورة .  
تقول ذكرى :

الإنسان عندما يصر على فكرة فإنه يحققها أظن بأنني انفتحت على الحياة عندما وقعت عيناى عليك لأول نظرة تلك النظرة حملت إلى روجى شعوراً لا أظن بأنني سأعيشه مرة أخرى كانت نظرة سحرية كالمفاجأة، يبدو أنها نظرة واحدة مقسمة على كل إنسان ينظرها لمرة واحدة أوقد لا ينظرها طوال عمره فتموت معه .

لكنني نظرتها إلى وجهك المشرق لكنها فعلت بي ما فعلت، ها قد تزوجنا يا بشري ها نحن نسكن بيتاً بدل الخيمة .

ينظر إليها بشري : وأنت في كل هذا التدين لا تفوتك صلاة لا يمضي يوم بلا قراءة قرآن تكادين تصومين كل اثنين وخميس ألا يضايقتك شرابي ؟

- إنه يضايقتني لأنه يؤذيك لأنني أخاف أن يأخذك مني لكن ما يربطني بك لهو أقوى .

- ألا يضايقتك عملي في مطعم أخي زهدي بدل المحاماة ؟ .  
يضايقتني لأنك تقدر على مساعدة الناس أكثر من هذا المكان يمكن لأي شخص أن يقدم طعاماً لجائع ، لكن لايمكن لأي شخص أن يبرىء

مظلوماً ، ما يسرني هو سعادتك في شراك وعملك إنك سعيد بهما  
وهذا ما يجعل سعادتني تغلب ضيقي .

ما يهم هو أن تبقى نزعة المقاومة حية في ضمير الإنسان ألا يستسلم أن  
يرفض الهزيمة . الطير الحر يرفض أن يقيم حياته في القفص وفي  
النهاية يرى الموت أكثر سمواً من ذاك القفص كذلك الجندي الشجاع  
يفضل أن يجهز على نفسه بعيار ناري على أن يرى نفسه في أسر العدو  
يتعرض لما هو أمر من الموت ، الموت في كثير من المواضع يحفظ  
الكرامة ، لذلك كانت مريم تتمنى الموت عند ما رأت نفسها في موقف  
حرج يقال لها : / يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك  
بغياً / . لقد نادى : / يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً / . ولم  
تكن تهدأ لولا أن ظهر ما يجنبها هذا الإحراج .

هذا ما أصابني يا سيدي عندما رأيت بأنني سأدخل الأسر يبدو لي أن  
مهمتي الأولى في الحياة هي حفاظي على أكبر مساحة من النقاء ،  
وعندها فقط سأذوق نكهة الفرح الحقيقية ، أذوق الحياة لحظة بلحظة  
لأنني أقف شامخة على كنز نقائي الذي يجنبني كل شكل من أشكال  
الجبين والذل واليأس والرضوخ للأمر الواقع ، كنت دوماً أقول لنفسي أن  
أولئك الذين يخسرون نقاءهم الروحي يفشلون في أن يتذوقوا أي لحظة

من النجاح والفرح ، وصفاء الذهن ، وفي ذروة المحاولة الجادة ستتراكم كل مواقف الخيانة والتلوث الروحي لتفسد عليهم كل شيء . لقد قاومت حتى النهاية لكن الطرف الآخر كان أشد ظلماً وعدواناً علي حتى رأيت في الليلة الأخيرة أن ألبأ إلى الله عبر النهر ، ويبدو بأنه قادني إليك ليريني بأنني كنت على خطأ وأن الحياة لا تنتهي عند مرحله واحدة أو عند شخص واحد أو حتى في بلد واحد وأنني كنت متسرعة وكان علي أن أستعين بطرق أخرى للخلاص . ها أنا أنفتح على حياة جديدة . هذا هو التنوع الذي دوما يبهرني يابشري ، لو نظرنا في عشرة أخوة سنكتشف أن لكل واحد خصوصية في كل ميزة رغم أنهم ينتمون لأب واحد وأم واحدة ، وهذا يفتح أمام خيالي أفقا أوسع لأرى كيف أن الدمع يختلف عن الماء ، وعن العرق ، وعن البصاق ، كل مايفرز من الإنسان يتمتع بخصوصية مستقلة، وأرى آلاف اللغات والألوان والطبائع والعروق رغم أنهم جميعا ينتمون إلى الأب الأول والأم الأولى وإلى خالق واحد . ولكنني سعيدة بكل هذا الإنفتاح على العالم ، سعيدة بأن الله منحني فرصة أن أرى وأنفتح على كل هذا الذي يحقق لروحي متعة الإنتماء إلى هذه الأسرة البديعة ، تتحقق مشاعر المسرة في الروح على قدر مشاعر الإنتماء إلى العائلة البشرية ، ولذلك فأولئك الذين يشنون الحروب على الآخرين يخرجون عن إنتمائهم لهذه الأسرة مع الخطوة



الأولى لإطلاق نار على كائن بشري حي • الحياة أوسع من أن نضيقها على أنفسنا .  
علمتُ الآن أكثر من أي وقت مضى بأن الله دوماً على صواب ، وما أزال أحياناً أظن بأنني انتقلت إلى حياة أخرى وأنني أعيش هذه المرحلة الآن بعد مرحلة الموت في النهر .

أجل يا سيدي لا أذكر شيئاً ولا أدري كيف انقذت إلى شباكك وكيف لم أمت هذا إن لم أعش الآن المرحلة الثانية التي أظنها . أذكر بأنني في الليلة الأخيرة استأجرت سيارة خاصة أتت بي إلى النهر كان المطر ينزل بغزارة و كنت أحمل بيدي قرآني وأرتعش تحت المطر والريح والرعد . أذكر بأنني جلست تحت المطر ساعات طويلة أردد في نفسي آيات وأمسك القرآن بيدي ، بعدها شعرت بأن دفء النهر يناديني .. دنوت منه بشجاعة أذكر بأنني ودعت الحياة كلها . عندما قذفت بنفسني في النهر كنت أرى مصير عزيزة في انتظاري إذا رضخت لذلك الشخص القاسي عليه رحمة الله . الكلام وحده لا يؤدي إلى شيء إن لم يقترن بالأفعال ، عندما أقول بأنني مؤمنة ، علي أن أعيش حالة الإيمان ، علي أن أقدم مواقف إيمانية ، كل شيء يمكن له أن يجري على اللسان ، ولكن الذي يثبت هو ذلك الذي يصدقه العمل • قلت بأنني أرفض ذلك

الشخص ، ولكن لو سمحت لأحد أن يغير قراري ، لكان علي أن أسمح لغيره أيضا أن يغير أي قرار آخر، و لرضيت أن أكون كائنا بلا قرار ، وعندذاك كان يمكن لي أن أتنازل عن أي قيمة أخرى لأنني لست مملكة لقراري . كان علي أن أقدم موقف ( لا ) بعد أن لفظتها ، وعندما قلت لك ( نعم ) كان علي أن أقدم الموقف ، أولئك الذين ينتظرون الآخرين ليفكروا عنهم ويرسموا خطا المستقبل في دروبهم ويتخذوا القرارات نيابة عنهم ، أولئك الذين يبقون تحت سن الرشد مدى العمر، ويبقون تحت الوصاية مهما تقدمت بهم السنون ، لا يكونوا موضع ثقة لمهمة تقشير بيضة لأنهم سوف يفشلون بها ، فكيف سينجحون في بناء بيت سعيد وتقديم جيل واثق للمجتمع .

كانت عزيزة في السادسة عشرة من عمرها عندما أجبروها على الزواج من ابن عمها كانت ممثلة ، طويلة القامة ، مليحة الوجه ، رشيقة ، تتفتح للتو كوردة في أول الربيع وكان مروان وهي تسميه / مرضان / نحيفاً كأن لا لحم فيه ولا دم ، أسمر الوجه ، قزم القامة ، في الثلاثين من عمره .

وزواجها لم يبعدها عنا فكنا نراها كل أسبوع ، أما نزورها عندما تكون في بيت أهلها المجاور لبيت أهلي أو تزورنا في البيت ، هذه المرأة علمتني درساً لن أنساه .

بعد سنتين من زواجها جاءت عزيزة إلى صديقتها ذكرى وهي تحمل بيدها طفلاً وفي بطنها جنيناً ولأول مرة تحدثت بجرأة ، رفعت الحياء بينهما حتى أن ذكرى صُغقت بما سمعته من صديقتها و أصيبت بحالة اكتئاب، قالت عزيزة : يا ذكرى جئت خصيصاً من أجلك، عندما علمت أن كافوراً سيتزوجك بالقوة ، جئت خصيصاً يا ذكرى لأعطيك خبرتي التي لم أستفد منها لأنني كنت ضعيفة ، وكذلك لم أكن مترببة بشكل جيد بسبب إهمال أبي لي منذ أن طلق أمي وأنا في السنة الأولى ، وكانت زوجة أبي لا تتعب نفسها من أجل تربيتي وتوجيهي .

رأيت نفسي في حزن شخص لا أطيق حتى رائحته وكلما هربت منه ضربني أبي وربطني ثلاثة أيام ثم أعادني إليه حتى مللت هذه العادة . كنت أقول لمرضان : يا روجي ، وفي نفسي : يا سافل، وأقول له : يا قلبي ، وفي نفسي : يا جبان ، وأقول له : يا عيني ، وفي نفسي يا خبيث . عندما يكون في العمل أدعو الله ألا يعود أن تدهسه شاحنة كبيرة ، وعندما يعود أهرع لاستقباله وأقبله من عينيه أمام أبويه وإخوانه . ولكنني اكتشفت بأنني الوحيدة التي دفعت ضريبة هذا النفاق ، كنت أريد أن أخدم النار بالنار فازدادت النار لهيباً على روجي .

كانت لدي رغبة في الانتقام منه ومن كل عائلته رغم صلة القربى ولذلك انتهزت فرصة زيارة صديق له وبنيت معه علاقة وهذه العلاقة جرتني إلى علاقات أخرى لدرجة أنتهز فرصة دخول أي صديق له لأتعرّف به حتى لو كان هذا الصديق يتحدث عبر الهاتف ، إضافة إلى علاقات مع بعض الجوار ، يبدو لي بأنني أشغل نفسي بهذه الخديعة الكبرى حتى لا أموت قهراً فقد نسيت كل ما أصابني من فشل ، وما يشغلني هو مدى حرصه عليه حتى لا يكشف علاقاتي .

هذا كل ما يقلقني ليل نهار هذا هو الهدف الذي أعيش من أجله حياتي ، ياله من هدف سخيف ، لكن ماذا أفعل عندما يكون التآمر عليّ بهذا الجنون .

أصارك وأنت صديقتي بأن هذا الربع رجل لا يستطيع أن يطفى شهوة دجاجة وأحياناً ينسى نفسه شهراً ولا يأتيني ، وأما إذا تنشّط في الربيع مثلاً فإنه يأتيني كل عشرة أيام وفي اليوم التالي لا يذهب إلى العمل بسبب الإنهاك الذي يصيبه .

كل مافي زوجي يبعث التقزز في نفسي ، يعمل أدناً في دائرة يصنع الشاي والقهوة والزهورات للمدير وضيوفه و كل نهاية شهر يسرق من دائرته السكر والشاي والقهوة وعلب الزهورات ويأتي بها إلى البيت ،

وكل من في البيت يشرب هذا المسروق . لديه طبيعة أخرى هي أنه يستدين النقود من الناس ولا يعيدها إليهم، إنه يتلذذ بطلب الدين من الآخرين حتى لو كانت ليرة واحدة فإنه يستدينها ولا يعيدها . كل يوم يطرق الدائنون علينا الباب فيقسم بأنه لا يملك شيئاً، وهو يملك ما يفي هذه الديون وهي صغيرة ، يوجد حوالي عشرة أشخاص يطرقون بابنا وكل واحد لا يزيد دينه عن خمس مائة ليرة، الأمر الآخر أنه يأتيه مراجع يحتاج إلى توقيع سريع من المدير ولكن المدير يؤجله ، عندها يطلب زوجي من هذا المراجع نقوداً مقابل التوقيع ، فيدخل إلى المدير بمذلة ويتوسل إليه كاذباً عليه بأنها معاملة قريبه أدخلها لوجه الله للتوقيع ، فيمهرها المدير قبل أوانها ، يخرج كأنه انتصر ويخبرني بانتصاره . إنه يفسد أي مكان يحل فيه ، قال لي بأنه عند ما كان طالباً ابتدئاً كان يسرق ما يرى من حقائب زملائه والآن عندما يسمع كلمة محظورة يوصلها ويقول لي : اليوم خربت بيت فلان ، ويضحك ولعلك لا تصدقيني إذا أخبرتك بأن الشتاء هو أسوأ فصل عندي فقط لأننا نغلق الأبواب والنوافذ وننام في الداخل . الروائح الكريهة تملأ الغرفة وتكاد تخنقني ، أحياناً أصرخ به : انهض أفعلمها في الخارج لقد خنقنا فيجب : تعوّدي عليها مثلي . فأتخيل بطنه برمياً من الغازات وقد تسلط ثقبه على حاسة شمي طوال هذا الفصل .

أما إذا أراد الصلاة في الجامع ، فإنه يرتدي حذاءً بالياً ويعود بحذاء جديد ، اكتشفت فيما بعد أنه إتفق مع بائع للأحذية المستعملة بأن يأخذ إليه أول كل شهر حصيلة ما أخذه من أحذية المصلين الجديدة فيعطيه البائع مبلغاً إضافة إلى أحذية بالية ليستبدلها مرة أخرى ورغم كل هذه المأساة لا تفوته جمعة إلا ويصليها في الجامع وأحياناً يتردد إلى الجامع في أوقات أخرى فأنفجر في وجهه : بس أنت ما تصلي يا مروان .

يقول ضاحكاً : الناس بدهم مين يضحك عليهم ، مادام يشوفوني في الجامع يعطونني ثقتهم ، إنه يُري نفسه للمصلين فقط ويقلد حركاتهم . أما في رمضان فيمكن له أن يسب كل مفطر ويمتنع عن صنع الشاي والقهوة في الدائرة ، يطلق لحيته ، يحمل مسبحة بـ ٩٩ حبة ، يرتدي ثوباً أبيض ويضع على رأسه قبعة بيضاء كان قد أخذها من أحد الحجاج فأنفجر في وجهه : بس أنت ما تصوم يا مروان ، يجع في وجهي : يا بنت الحرام هذا شغلي . الفرق بين مروان وبينني يا ذكرى هو أنه يصلي ويصوم ظاناً بأنه يخدع الله ويخدع الناس ، وأنا لا أصوم ولا أصلي حتى لا أخدع الله ولا أخدع الناس ، هذا الرجل الفاسد أفسد كل حياتي يا ذكرى أجل يمكن للإنسان أن يفسد الإنسان ، ويمكن للإنسان أن يصلح الإنسان .

إنه واقع مفروض على عمري بأكمله وأنا أدري بأنني أسير في درب  
الإنهيار . من أجل هذا جئتك يا ذكرى ، وسأذهب إلى كل امرأة أسمع  
أنها ستُرغم على الزواج ممن لا تريد .  
إن من يعيش في قلب واقع لهو أعلم بتفاصيله ممن سيعيش فيه فيما بعد .

## الفصل الثالث

بشري يجلس على الكنية وبجانبه تجلس ذكرى على كرسي وأمامها طر  
بيزة عليها كأس النبيذ مع صحن من الفستق الحلبي ومنفضة السجائر



وكأس شاي تشرب منه ذكرى ، وعلى الكنبه المقابلة يتمدد نجم وأمامه كأس الشاي إلى جانب الإبريق وبعض الفستق الحلبي على طريزة يشاهدون برامج التلفزيون يقول بشري : ذكرى أنا مشتاق لقراءة الدفتر الذي حدثني عنه على النهر ، الدفتر الذي دونت فيه أفكارك عن الله ، أريد أن أقرأه .

كنت على وشك أن أخبرك بأنني عملت في إعادة صياغة تلك الأفكار ونقلها على دفتر جديد بعد استئجارنا هذا البيت بشهر . بعد غد يوم العطلة الأسبوعية سأمضيه في القراءة .

بشري لي صديقة قديمة اسمها خور شيدة عندما علمت بعودتي وزواجي جاءت تهنئني الجمعة الفائتة في بيت أبي . في الفترة التي كنت فيها معك على النهر وقعت معها قصة غريبة لم تستطع أن ترويها بسبب وجود أهلي في البيت وعزمتها على الغداء يوم الجمعة ، ستأتي وحدها لأن زوجها سيذهب إلى قرية أهله لقضاء يوم العطلة أنا عزمتها حتى تسمع معي قصتها .

في صبيحة يوم الجمعة إستفاق بشري من نومه وبعد تناوله الفطور قدمت إليه ذكرى دفترأ جديداً دونت عليه كل أفكارها عن الله والإيمان منذ سنوات ، وفي كل سنة كانت تزيد شيئاً فأعادت صياغة تلك الأفكار

المدونة مستفيدة من التجارب التي مرت بها تركت الدفتر وخرجت إلى  
غرفة أخرى كي لا تلهيه عن القراءة .  
ألقى بشري نظرة سريعة على الصفحات  
ورأى أنها قسمت هذه الأفكار إلى مقاطع وأسمت كل مقطع باسم ثم  
أمسك الدفتر بين يديه كأنه يمسك بكنز ثمين وقد أشعل سيجارة وتناول  
رشفة من فنجان القهوة وأخذ يستمتع بما تعتبره ذكرى عصارة عمر  
من التأمل والتفكير :

## خالق .. مخلوق

وجود الخالق دليل على وجود المخلوق .  
وجود المخلوق دليل على مجود الخالق .  
إن الله لا ينكر وجود الإنسان ولذلك ليس للإنسان أن ينكر وجود الله ،  
عندما يؤمن الإنسان بوجود الله، يؤمن بوجود الإنسان .  
درجة النكران بوجود الله عند الإنسان هي درجة النكران بوجود الإنسان  
عند الإنسان ، درجة الإيمان بوجود الله عند الإنسان هي درجة الإيمان  
بوجود الإنسان عند الإنسان .

يكون المخلوق موجوداً بقدر وجود الخالق ويكون الخالق موجوداً بقدر وجود المخلوق ، مَنْ لا يؤمن بوجود خالق يضيق عليه أن يؤمن بوجود مخلوق .  
إيمان الإنسان بوجوده هو إيمان بوجود الله ، إيمان الإنسان بوجود الله هو إيمان بوجوده .

الذي لا خالق له ، لا صانع له ، لا مبدع له : لا وجود له ، لا دليل يثبته إنه دائم الريب في وجوده ، إنه يعيش حالات متأزمة في الفصام .  
عدم وجود الخالق هو دليل على عدم وجود المخلوق .  
وجود الشيء هو دليل على وجود مبدع له ، وجود بناء هو دليل على وجود بناء ، وجود كتاب هو دليل على وجود كاتب ، وجود مولود هو دليل على وجود أب . البناء الذي لا بناء له لا يسكنه أحد ، الكتاب الذي لا كاتب له لا يقرأه أحد ، المولود الذي لا أب له لن يتحول إلى أب .  
وجود الخالق دليل مشروعية المخلوق ، وجود الخالق دليل حماية المخلوق ، إن أعظم ضمانة لمستقبل الإنسان هو وجود خالق عادل له .  
الخالق دوماً هو مستقبل المخلوق .  
المخلوق دوماً يؤدي إلى خالق .  
لا وجود لمخلوق دون خالق .

إن أظلم مستقبل للإنسان أن يكون مستقبله الإنسان، والأظلم أن يكون الإنسان بلا مستقبل .  
الضياع كل الضياع أن يضيع المبدع عن مبدعه .

الإيمان قوة	..	اللا إيمان وهن
الإيمان جمال	..	اللا إيمان قبح
الإيمان شروق	..	اللا إيمان كسوف .
الإيمان حياة	..	اللا إيمان موت
الإيمان نجاة	..	اللا إيمان هلاك
الإيمان استقرار	..	اللا إيمان اضطراب
الإيمان معرفة	..	اللا إيمان جهل
الإيمان مودة	..	اللا إيمان كراهية .

الخطوط الأولى نحو معرفة المخلوق تبدأ من معرفة الخالق، تكون في عجز عن معرفة نفسك قدر ما أنت في عجز عن معرفة خالقك ، كلما ازددت إيماناً بالخالق ازددت إيماناً بنفسك، ما لا تعلمه من أحد عن نفسك تعلمه من خالقك .

مالا يقوله لك أحد عن نفسك، يقوله لك خالقك .  
وجود الخالق هو وجود للمخلوق

قوة الخالق هي قوة للمخلوق  
جمال الخالق هو جمال للمخلوق  
لا يوجد إنسان بدون إيمان لأنه لا يوجد إنسان غير موجود، ولكن يوجد  
إنسان لا يؤمن بهذا الإيمان، وإنسان يؤمن بهذا الإيمان .

**أنت .. وأنت**

أنت هو أنت  
أنت الحي وأنت الميت  
أنت الجنة وأنت النار  
أنت الضياء وأنت الظلام

. . .

ما لا تراه وما تراه هو لك  
كتب السماء نزلت لك  
أنبياء ورسلك أرسلوا لك  
أنت تحمل تاريخ الإنسان  
أنت تحمل تاريخ آدم  
أنت تاريخ آدم .

. . .

عش يومك في يومك  
أعط يومك في يومك  
خذ يومك من يومك  
لا تعط يومين في يوم  
لا تأخذ يومين من يوم  
لا يطالبك الله بعمل يومين في يوم لكنه - لو شاء - يرزقك رزق يومين  
في يوم  
يرزقك رزق سنتين في يوم  
يرزقك رزق عمر في يوم .

. . .

كن رحيمًا بنفسك من نفسك  
إن الله لا يكلفها إلا وسعها  
لا تكلفها فوق وسعها •

. . .



دوماً تذكر :  
أن ما تطعمه لغيرك ، هو زاد لك في الآخرة  
أن ما تبنيه لغيرك ، هو بناء لك في الآخرة  
أن ما تكسيه لغيرك ، هو كسوة لك في الآخرة  
أن ما تقوله من كلمة طيبة لغيرك ، هي كلمة طيبة لك في الآخرة .  
أعط لغيرك ما تحب أن يُعطى لك في آخرتك  
قل لغيرك ما تحب أن يُقال لك في آخرتك .

. . .

لا تركض خلف الحياة بل امش فيها  
ما يعلمك إياه المشي لا يعلمك إياه الركض  
أنت تكونت بهدوء ، تعلمت اللغة بهدوء  
تعرفت على الأقرباء بهدوء ، تعلمت المشي بهدوء ، رشدت بهدوء .  
الآن رُفعت اليد التي كانت خلف ذاك الهدوء  
الآن أنت تقود نفسك .. قدها بهدوء .

صبر

الصبر رفيق الإنسان القديم رفيق الإنسان الوفي في مراحل حياته المتقلبة ، دوماً يأتي نداء الصبر إلى الإنسان : أيها الإنسان الزم حدودك . ويستعين الإنسان الصبور بصبره على الحياة فهو عندما يبلغ مرحلة متقدمة من مراحل الوعي ، فإنه يبلغ مرحلة متقدمة من مراحل الصبر .  
و هنا تراود الأسئلة عن طبيعة الصبر ،  
عن تعريفه ، عن مصدره وهل كل إنسان يمكن له أن يكون صبوراً أم أن الصبر نعمة تخص فئة دون غيرها من البشر .  
ما هو الصبر في حقيقته ، هل له رائحة أو شكل أو لون ، هل يولد مع الإنسان في أثناء ولادته أم أنه مكتسب من الحياة والخبرات والتجارب ؟

الحديث عن الصبر يكون غالباً بشكل أوتوماتيكي عابر ولكن الصبر في ذاته يحتاج إلى معرفة وإمام به ، فالصبر هو عالم مستقل من عوالم المعرفة البشرية ، والصبر ليس كلمة تقال لشخص : اصبر • فيصبر .  
الصبر حالة متقدمة من حالات الوعي والمعرفة ، فالإنسان الصبور يعيش حالة الصبر ويتمتع بها عكس الإنسان غير الصبور الذي

يعيش حالة اللا صبر ويحترق في جحيم التوتر والعجالة والإضطراب ،  
والخلاف شاسع بين أفعال إنسان صبور وأفعال إنسان غير صبور .  
إذن الصبر ليس كلمة تُعاز إلى إنسان فيمتثل لها ، وعندما تقال للإنسان  
في القرآن فهي كذلك لا تعني توجيه كلمة ولكن تدفع الإنسان إلى  
الإشراق على عالم الصبر ، إلى حالة الصبر الكبرى ، فليس مطلوباً  
منك أن تصوم بالقوة ولا أن تزكي بالتهديد أو تصلي بحركات ميكانيكية  
سريعة وكأنك تقذف ما لله إليه ليكيف عقابه عنك . ولكن أن تعيش معنى  
الصوم، أن تستمتع بحالة الصوم ، أن تدرك فوائد الصوم ، أن تحب  
الصوم ، أن تحقق شروط الصوم المادية والمعنوية وتصل بنفسك إلى  
انسجام كامل مع حالة الصوم التي تعيش في محرابها ، أي أن تصل إلى  
قناعة بأنك لا بد أن تصوم ولذلك ليس مطلوباً من الطفل أن يصوم ولا  
من المريض ولا من المسافر . وهذا يكون للعبادات الأخرى ، عندما  
تشعر بأنك تؤديها من أجل نفسك بالدرجة الأولى أكثر مما تؤديها من  
أجل الله الذي يأمرك بأن تؤديها من أجل تحقيق حالة التوازن لذاتك .  
الصبر هو شكل متقدم من الأشكال الراقية للمعرفة ، عندما ترتقي  
المعرفة بالإنسان فإنها توصله مرحلة الصبر ، والصبر عندها يكون في  
درجات متفاوتة ، وكلما ازداد الإنسان معرفة ، ازداد نضجاً وهذا

الضج يكسبه الصبر الذي يُكسبه الامتلاء بالعالم على نهج مرحلة متطورة من مراحل الكمال الإنساني .

علاقة الصبر مباشرة مع الأعصاب ، والعصبيون يعانون بالدرجة الأولى من نفاذ الصبر لديهم وتأتي مرحلة العقاقير المهدئة لترغم الصبر على الجملة العصبية والحقيقة فإن المهدئات هي شكل من أشكال الصبر القسري على الإنسان لتحمل الألم والأزمات النفسية ، وأفضل علاج لهذه الأزمات هو الصبر الطبيعي الذي يعكس نتائج طبيعة في العلاج .

الإنسان يولد ولديه بذور الصبر ، لديه طاقة لاكتساب الصبر أكبر مساحة من الصبر ، بيد أن الجهل يمكن له أن يقتل هذه البذور ، كما أن المعرفة ترويتها وتحميها ، فهي بذور تحتاج إلى سنوات من الفصول والتقلبات والأمطار والعواصف وأن يشقى صاحبها ويعرق لقطاف زهورها .

وإذا كان الشكل الأدنى من أشكال الجهل ، اللاصبر ، فإن الشكل الأرقى من أشكال المعرفة هو الصبر . وإن عظمة الإنسان تظهر عند تحمله للمصائب الكبرى والتعامل معها بمفاتيح الصبر التي تكون في جيوب حواسه . الإنسان لا يولد صبوراً ، ولكنه يكتسب الصبر ويطور

طاقة الصبر لديه ، فالطفل قد لا يصبر على ألم وجوع وخوف وبرد ولكن هذا الطفل عندما يكبر يمكن له أن يصطبر ويحتمل .  
الصبر يقترن بالمعرفة والمعرفة مكتسبة ، ومن هنا فإن المشاكل تتفاقم في المجتمعات التي تسود فيها الأمية في حين أنها تتضاءل في المجتمعات المتعلمة وكلما تقدم التعليم تلاشت المشاكل وتوجه المتعلمون إلى التربية والإنتاج والعطاء . حيثما يكون الصبر تنفتح أبواب الحياة ، الأم لا تنجب الأطفال لولا صبرها تسعة أشهر .. الطالب لا يكسب العلم لولا صبره في القراءة والدرس سنوات طويلة .. الطبيعة لا تنجب الزهور والربيع لولا صبرها على قر الشتاء وحر الصيف .. المريض لا يشفى لولا صبره على منغصات المرض .. والآباء لا يتحولون إلى أجداد لولا صبرهم على سنوات مشقة نمو أبنائهم . الإنسان لا يستطيع أن يقوم بكل الأعمال دفعة واحدة ، يعلمه الصبر أن يؤجل البعض للغد ، أن يدع شيئاً ليقوم به غيره . ألم يترك غيره شيئاً كي يقوم به هو . ويقول له : الإنسان لا يستطيع أن يعطي كل شيء ، لا يستطيع أن يأخذ كل شيء . إنه يعطي أشياء ويأخذ أشياء . ودوماً هناك عمل ينتظر إنساناً جديداً ، هناك فكرة تنتظر إنساناً جديداً ، هناك خطوة تنتظر إنساناً جديداً لم يأت بعد ، أو يفتح عينيه للتو . تبقى الحياة مشرقة

بالإنسان ويبقى الإنسان مشرقاً بالحياة ، وإذا انطفأ أحدهما انطفأ الآخر

إذا جاءك ألم ، اصبر .. إذا شاتمك شاتم ، اصبر .. إذا ظلمك ظالم ،  
اصبر .. إذا فقدت عزيزاً ، اصبر .. إذا احترق بيتك ، اصبر . واعلم انه  
لولا الصبر لما أنجز الكاتب كتاباً .. لما بنى البناء بناء ..لما صاغ  
الصائغ إسورة... لما حصد الفلاح سنبله .  
وحيثما كنت يمكنك أن تنعم بدفع الصبر ، حيثما كنت يمكن أن يكون  
الصبر لك ميعناً .

لا تعجل في قول كلمتك ، لا تعجل في شرائك ، لا تجعل في طعامك ، لا  
تعجل في شرابك ، في مسيرك ، لا تعجل في زوجك ، لا تعجل في  
ولدك .

الصبر هو السلام ، الصبر هو الأمان ، عندما تكون في الناس لاينفعك  
غير الصبر ، عندما تكون في عزله لاينفعك غير الصبر ، وعند ذروة  
الآلام الكبرى التي تقع بغتة كالصواعق لا يبقى معك إلا الصبر . إنك  
صامد بمقدار ما لديك من صبر ، إنك قوي بقوة الصبر الكامنة لديك ،  
وعندما يعجز الآخرون عن تقديم شيء يخفف عنك ، يأتي الصبر ليقدم  
كل شيء إليك . عليك أن تكون دائم السعي لاكتساب الصبر ، أكبر قدر  
من الصبر ، أن تطور طاقة الصبر لديك ، أن تعزز مكانة الصبر في

نفسك . لارفيق لك كالصبر لاصاحب لك كالصبر لاقريب لك كالصبر ،  
دوماً يأتي الصبر لينير أمام خطوات روحك الدروب الداجية . الصبر  
غرسه مباركة في حديقة روحك تُروى بنور المعرفة . تعلم كيف تدرب  
نفسك على احتمال المصائب الكبرى بالصبر ، تعلم كيف تدرب نفسك  
على استقبال المسرات الكبرى بالصبر .



## قيم

أنت أكثر المخلوقات شاعرية على سطح الأرض لأنك أكثر المخلوقات حزناً ، ما يهم أنك تنجح في محاولة الانسجام مع كونك مخلوق حزين بالتكوين ، لأن تكافح للتجرد من هذا الحزن .  
إذا حذفت الطبيعة الحزن منك ، حذفت الإنسان منك . جئت لتعاني وتعمل وتعرق ، لا لتقطف الزهور وتمضي ، جئت لتضع ابنة على عمارة الحياة .

الإبداع العظيم ينبثق من أعماق ألم عظيم ، الأبنية الشاهقة لا تُصنع بركوب المراجيح والهراء ، إنها تُبنى بعرقك ولهائك ودمك . أنت ثري بقدر فراغ جيوبك من النقود ، وأنت فقير بقدر ملء جيوبك بها . عند ما تكون أفقر رجل في العالم ، تكون أغنى رجل في العالم . سيحسدك

أغنى رجل ظاهر في العالم على ما توصلت إليه من غنى ، على ما توصلت إليه من فقر .

الصحة العامرة تستقر في لحظات تخالها الأخيرة من عمرك ، هناك في آخر رعشات الاحتضار ، لأول مرة تنفتح شهيتك على الحياة الكبرى التي لم تكن رأيتها قط وتعانقها بنبضاتك الراحشة الأخيرة، عند ذاك عند ذروة المرض الجسدي ، عند ذروة المرض الروحي ، يموت الشر على وسادة روحك ، يولد الخير وأنت مطروح في حديقة الموت

ستدرك أن روح الله تسكنك ، أنك تحمل أمانته ، أنك تحمل سره ، ستشتم رائحته منك ، ترى صورته فيك ، تلمح صبغته على أنحاء جسدك ، وتتذكر كيف أنه لمسك بيديه عندما سواك أول مرة ، وتراه لأول مرة كيف يهرول إليك، يمد يديه ليُجلسك معه على العرش . في تلك اللحظات النورانية ، ستدرك معنى الإنسان فيك ، ستدرك سر الله فيك ، وستدرك كل تلك الإساءات التي وجهتها إلى أمانة الله لديك ، ستدرك كم كنت غارقاً في ظلمة الجهل وكم أنك قابل للإرتقاء . أنت ابن الألم ، الألم هو الذي يصنعك ، أنت مخلوق مجبول بالألم .

لحظائك هي اللحظات المذهلة التي لا تموت في الإنسان حتى بعد تركه الكرة الأرضية ، هذه لحظات مباركة تغفو لكنها لا تموت ، تستيقظ وتيقظ نور الحياة في روح الإنسان ..

هاهي الذكرى تهز شجرة الموت وتولد الإحساس بعدم الموت .  
هاهي الولادة الكبرى تظهر ، تهز كل ذرة فيك .. تبشرك .. هنا ستمضي حياتك ، عليك أن تؤمن بهذه الحقيقة وتستقبل كل ذرة من ذرات الحياة بانفتاح .

هنا على هذا الكوكب ستمضي أيامك وستعيش كل التفاصيل التي لم تعيشها . قم أيها الكسول ، هيا إلى العمل ، هناك في القبر متسع من وقت ، لن يبقى منك شيء إلا ما شيدته يداك إن هذه الحروب تعلمك كيف تكون سيئاً ، تدربك على أن تكون سيئاً ، عليك أن تتعلم فن قذف كل ما يتعلق بروحك من سيئات وأنت تمضي في حديقة الأشواك ، أو في حديقة الورود .

الوردة التي تنبت في الأشواك تلفت الأنظار أكثر من وردة تنبت في حديقة مليئة بالورود ، إنني أقول لك بسرية تامة مالا أقوله لغيرك ، إنني أعلمك قيماً :

تعلم كيف تبني صداقات جديدة ، وتعلم أيضاً كيف تحافظ على صداقاتك القديمة . إن الله أكرمك ، فلا تذلل نفسك .

لن تستطيع أن تحب الله ما لم تستطع أن تحب الإنسان .  
عندما تريد أن تعطي شيئاً لله ، فإنك لا تستطيع أن تعطيه إلا عبر  
الإنسان .

## تربية

الإنسان كائن قابل للتربية في شقيها الإيجابي والسلبي وهو كائن يتربى لا يوجد إنسان غير قابل لاكتساب التربية ،  
الحديث عن التربية حديث غير مستقر حيث أن التربية بذاتها تتفرع إلى فروع شتى . التربية ليست مذهباً فكرياً ولا عقيدة وليست تياراً من التيارات .  
الإنسان هو ابن الحياة والحياة هي بنت التربية ، الحياة هي التي تقدم البراهين للإنسان عبر ما في الطبيعة، والإنسان يتربى من تجاربه ومن مشاهدة ما في الطبيعة والحياة .  
يتلقى الإنسان أشكالاً من التربية في مسيرة حياته فهو عندما يكون طفلاً يربيه أبواه غذائياً وعندما يكبر يربيه معلمه معرفياً ومن ثم يفتح على

أشكال أخرى للتربية ، فثمة تربية مهنية يتلقاها من المهني ، وثمة تربية اقتصادية يكتسبها من خلال تعامله بالمال ، وثمة تربية صحية يتلقاها من خلال إرشادات الأطباء ، وثمة تربية ثقافية يكتسبها عن طريق الاطلاع والاحتكاك، وثمة تربية جنسية تعلمه أصول التعامل مع الجنس الآخر إضافة إلى ألوان وأشكال تربوية أخرى متفرعة ولكنها في النهاية تنصب في حروف كلمة / التربية/ . كل تصرفات الإنسان تكون من خلفية تربوية معينة سواء كانت سلبية أو كانت إيجابية ، ذلك أن الإنسان هو تلميذ للتربية ولكن ما هي التربية ؟

التربية تنقسم إلى شكلين، شكلها الأول نظري، وشكلها الثاني عملي فيمكن للإنسان أن يكتسب التربية بفروعها وأقسامها من خلال تجاربه الشخصية كما يمكن له أن يكتسبها من خلال تجارب الآخرين وهنا تطرح التربية الدينية نفسها بقوة على ضمير الإنسان فتقدم إليه الخبرة الكافية عبر تجارب الإنسان نفسه وبالتالي تقدم إليه الخلاصة والاتجاه الصحيح ، وفي الواقع فإن أرقى وأهم أشكال التربية تتبدى في صلب التربية الدينية ، فالتربية الإلهية هي تربية خالصة وخالية من الشوائب وهي تربية صحيحة موجهة إلى الإنسان عبر رسل وأنبياء الله وعبر رسائله .

فالقرآن هو رسالة تربوية جليلة وكان العلم الذي تربي عليه عبد الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم . والواقع أن محمداً هو أول طلاب هذه الرسالة الإلهية التربوية الكبرى واستطاع القرآن أن يجعل منه أسوة حسنة لبني البشر من بعده .

التربية الخالصة هي التي يتلقاها الإنسان من الله لأن الله يعلم سبل التربية التي ترتقي بالناس الذين يعلمهم جيداً أكثر مما هم يعلمون أنفسهم ، وليست هناك أعظم من هذه الرسالة التربوية التي تركها الله للناس ، إن أشكال وألوان التربية الحديثة تقف على أرضية الأخلاق فالإنسان كائناً مَنْ كان يعجز أن يبدع شكلاً تربوياً ولكنه يستطيع أن يقدم هذا الشكل التربوي إذا استند على قواعد الدين . ويمكن معرفة أن التربية هي عملية إنفتاح لانتهائي على العالم ، فكل مرحلة من مراحل الإنسان لها مرحلة تربوية ، الشيخ الطاعن في السن أيضاً يحتاج إلى تربية تنسجم مع عمره ، فيبقى الإنسان يتربي حتى لحظات الاحتضار الأخيرة ، ليس من أحد يستغني عن التربية بالغاً ما بلغ وما دام الإنسان يتعلم في كل يوم جديداً فإنه يتلقى في هذا اليوم درساً جديداً من دروس التربية . ولعل الصواب لايجانب الذين يظنون أن مهمة الآباء تكون عند توفير الطعام واللبس لأولادهم ، فهذا الأب يمكن له أن يكتفي بهذا مع ما يربيه

من حيوان أليف في بيته ولكن الطفل يحتاج إلى أغذية أخرى ، يحتاج أن يفتح على العالم ويده بيد ولي خبير ، يحتاج من يرسم له خطوات المستقبل ، يحتاج إلى مرشد يرشده وإلا تاه في ظلمة من جهل حتى لو كان آكلاً ولابساً .

إن عظمة الأبوين تكمن في مدى قدرتهما على تقديم أولاد صالحين نافعين للمجتمع .إنها الرسالة الأبوية الكبرى تجاه الرعية ، وبعد أن يكبر الإنسان لن يعود بحاجة إلى تربية أبوية لأن التربية الأبوية ستكون قد هيأته لاستقبال تربية إلهية كبرى وعلى مراحل متقدمة مدى حياته .  
الله يخلق الإنسان ثم يربيه ولكن على الإنسان أن يعي هذه التربية ، أن يدركها ويتوسع في أبعادها .  
إن الله يعرف الإنسان جيداً ، يعرف ما يعلم هذا الإنسان عن نفسه وما يجهل وعلى هذه المعرفة تأتي التربية الإلهية خالصة للناس الذين هم عيال الله .  
ليست مشكلة الإنسان أنه لا يعرف طريقاً لمعرفة الله ، ولكن مشكلته أنه لا يعرف طريقاً إلى نفسه .



إن الإنسان الذي يسلك الطريق إلى معرفة نفسه يكون قد سلك طريقاً لمعرفة الله ، ومن خلال هذه المعرفة يستقبل التربية الإلهية ويبقى في إخفاق لاستقبالها ما لم يتمكن من معرفة واهبها .

علاقة الإنسان الكبرى هي مع الله وكل ما حوله يذكره بالله حتى الشجرة تثمر / بإذن ربها / وما من طير يطير إلا بالقوة التي بثها الله فيه .

العلاقة بين الله وبين الإنسان هي علاقة تربية في جوهرها والقرآن يحتوي على الدعوة إلى التقوى ويحتوي على الوصايا والإرشاد والهداية والعفو والمعرفة وليس الله الذي يبعد عن الإنسان ولكن الإنسان هو الذي يبعد عن الله ، فالإنسان هو الذي يعود إلى الله ، وليس الله الذي يعود إلى الإنسان والله يفرح بهذه العودة . الإنسان يبقى دائم الحاجة إلى أن يربيه ربه ولكن عليه أن يطور نفسه لاستقبال هذه التربية ، عليه أن يطور نفسه لاستيعابها حتى يرى ربه مربيا ويرى نفسه تلميذا .

شرك

كلمة واحدة لها مدلولات متعددة وهي الكلمة / الأحرز / الموجهة من الله إلى الإنسان وهي كلمة تشبه المشط المغروز أسنانه بالسكاكين الحادة فيأتي التحذير الإلهي ألا تتمشطوا بهذا المشط .

كثيرون يرون بأن الشرك اختفي من عصرنا وأنه كان مقصوراً في أيام الجاهلية ثم إلى سنوات من ظهور الإسلام فأتى الإسلام وحسم أمره فلا أحد هذه الأيام يأتي بالأصنام ويتعبدها ولا أحد يهمله أن يجعل شركاء لله ، فانقسم العباد في أيامنا إلى فئتين اثنتين واحدة مؤمنة والأخرى ملحدة .  
والواقع هذا مفهوم محدود لقضية هي من أخطر القضايا التي تواجه إنسان كل زمان ومكان لأنه حيثما وُجد الإنسان كان الشرك علي مقربة منه وآية الشرك هي آية باقية بقاء الإنسان ، لكنه يأخذ أشكالاً وألواناً مختلفة على مدى العصور وربما ظهر في كل عصر بوجه ليحقق الديمومة في تاريخ الإنسان .

الشرك أن تقدّم ما هو لله لغير الله وتحس ما تحسه تجاه الله تجاه غير الله وتأمل في غير الله ما تأمل في الله . الشرك لا ينحصر في الصلاة والسجود لغير الله ولكنه يتبدى ويتمظهر بألوان وأشكال مختلفة .  
يمكن أن نرى في حياتنا شخصاً يقوم بزيارة بيت فكأنه ذاهب إلى بيت الله فينظف ويصطحب معه الذبائح وما أن يدخل باب ذاك البيت حتى يبدأ المديح والثناء والتعظيم لصاحب البيت ويضفي على هذا البيت



القرية كلها فلا تجد في طرقاتها سوى صور الشيخ، ولا تجد على جدرانها سوى كلمات الشيخ، ولا تجد في بيوتها سوى صيت الشيخ، ولا ترى الناس يقسمون إلا بالشيخ ولا يستشهدون إلا بما بدر من الشيخ وترى مما ترى أن سكان هذه القرية لا يحتفلون إلا با عياد الشيخ ، فهذا عيد مولد الشيخ ، وهذا عيد جلوس الشيخ وهذا عيد مأثرة الشيخ وهذا عيد زيارة الشيخ .

والواقع أن سكان هذه القرية يقعدون في مذهبين، وأما المذهب الأول فيذهب فيما يذهب اتقاء شر وأذية الشيخ، وأما المذهب الثاني فيذهب فيما يذهب بغية التقرب بسلطان الشيخ والتنعيم بنعمه وروائح نفوذه . وعندما تنزل قدم الشيخ فنجد المذهبيين أول من يتخلى . إن الله لا يخاف أن يُشرك به ولكنه لا يريد للإنسان - هذا المخلوق البديع- أن يكون فاسقاً منافقاً كاذباً لأنه في تاريخ البشرية لا يوجد مَنْ أخلص في الشرك قلباً وقالباً ، فمجرد أن يكون الإنسان مشركاً فهو خائن يكون قد خان أول ما خان عطايا الله اللا محدودة له ولا يوجد مشرك مخلص ، لا يوجد مشرك غير ذي عوج ولذلك فإن كل الذنوب قابلة للغفران إلا الشرك إذا لبث الإنسان فيه ويومئذ لا تنفعه حتى شفاعاة الشافعين ، إنه مطرود من الرحمة والشفاعة والمغفرة . ويمكن أن نرى في زماننا لوناً من الشرك لدى رجل راح يؤله امرأة بغية التقرب منها ومتى ما نال منها مراده تخلى

عنها، فهو إذا وجدها انهال عليها بالثناء والتعظيم والتكبير وأضفى عليها هالة من القداسة حتى أنه لا يمسهها كي لا يسيء إلى قداستها، فهو بشروهي من غير البشر فيقعد بين يديها خاشعاً مستسلماً ذليلاً من خشيتها حتى تشعر معه هذه المرأة المسكينة بأنه عبد وأنها مخلوقة مُنزلة .  
ما يهم أن يتعامل الإنسان مع الإنسان على أنه إنسان، وأن يتعامل الإنسان مع الحيوان على أنه حيوان ،  
وان يتعامل مع الزرع على أنه زرع ، وأن يتعامل مع الجماد على أنه جماد .

إن الشرك لا يؤذي الله ، ولكنه يُخرج الإنسان من دواعي إنسانيته ، ويحيله إلى أسوأ وأبغض المخلوقات بحيث لم يعد يصلح حتى للرحمة والدعاء له .

أمام هذه الألوان نعثر على لون آخر من ألوان الشرك في زماننا وهو شرك الذات بالله فنقع على شخص يميل كل الميل إلى التكبر والعزة والتعظيم والتجليل أمّا ل مال أو لسلطان أو لجاه أو لنفوذ فيتصرف في الناس كأنه إله صغير في الأرض فيأمر بالثواب والعقاب ليس على طريقة البشر ولكن على طريقة الآلهة ويأمر بالعمار والدمار ولا يمشي في الشارع ولا يجالس إلا/الآلهة الصغار / أمثاله في الأرض ، وبناء

على مافي قلبه من مرض فإنه يأمر الناس بالفعل أن يتعاملوا معه بهذه الخصوصية فيجعل من حراسة كملائكة يتسلطون على كل شيء ، لا حاجز أمامهم ، كل الأبواب مشرعة لولوجهم .

لا أريد أن أستعرض أبواب الشرك كلها وهي كثيرة في زماننا ولكنني أضرب مثلاً لأبين بأن الشرك لا يقف عند الركوع أو السجود أو الابتهاال إلى إنسان أو حيوان أو نصب، ولكنه يتحقق في التعامل الإلهي مع غير الله الذي لا شريك له ، ومهما كان لون أو شكل هذا التعامل صغيراً أو كبيراً فإنه يحتمل درجات شرك . إنه يريد أن يمثل الله تارة ويتمثل الله تارة أخرى وما هو بقادر وفي النهاية فإن كل هذه الأدوار تنتهي وتخلف لأصحابها تاريخاً من الخز والعار ويبقى التعالي لله الذي لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

وعلى هذا فيمكن ملاحظة أن الشرك يتحول لدى فئة من الناس من حالة ظاهرية إلى حالة باطنية فتراها مؤمنة في الظاهر لكن على أساس باطني كله شرك، وتراها تصلي لكن صلاتها لا تزيدها إلا بعداً عن الله ، وتراها تصوم وليس لها من صيامها غير الجوع والعطش ، وتراها تتلو القرآن والقرآن يلعنها فينتقم الله منها : / وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً / .

ونرى تدمير القرى بأشكال مختلفة في زماننا حتى وهي مكتظة بالمساجد / وما يؤمن أكثرهم إلا وهم مشركون / . عليك أن تميز بين ما هو حق الله وما هو حق الإنسان فما الله هو الله وما للإنسان هو للإنسان وحتى النظرة التي تنظرها إلى الله فإنها تحمل خصوصية لا يجوز أن تنظرها لغير الله .

إن الملائكة تتعامل مع الملائكة على أنها ملائكة ، والجن يتعامل مع الجن على أنه جن ، والحيوان يتعامل مع الحيوان على أنه حيوان ، والزرع يتعامل مع الزرع على أنه زرع ، والجماد يتعامل مع الجماد على أنه جماد ، فما لك أيها الإنسان تتعامل مع الإنسان على أنه ليس إنساناً. إذا كانت أبواب الإيمان تقربك من إنسانيتك فإن أبواب الشرك تلك تجردك من كل حالة صفاء لهذه الإنسانية .



## مجتمع

الإنسان كائن مشتت ، تائه في ظلمات ذاته وظلمات الحياة من حوله ،  
يجهل كل شيء حوله يراه أو لا يراه ، فيفتح عينيه على الدين الذي ينير  
أمامه الظلمات ويحدد أهدافاً لوجوده وحياته على الأرض ، يجعل منه  
قيمة ويمنحه النواميس والمحرمات ، يمنحه أسباب السعادة والاطمئنان ،  
ويهبه الانضباط النفسي والتقيد بالنظافة واحترام الآخرين واحترام  
الأعراف وهنا يتميز الإنسان عن الحيوان ، يتميز على الأغلب بسلوكه  
وتصرفاته على أنه كائن يدين بدين ويحيا على قواعد دين .  
في الواقع فان إنسان بلا دين هو رأس بلا عقل ، جسد بلا محرمات .  
الإنسان كائن مظلم ولا يجد سبيلا لتبديد ظلمته وما زال يدرك جيداً بأنه  
أحد الألبان المربكة في ظاهرة الحياة ، ففي البدء ظن هذا الإنسان بأنه

كائن كأي كائن حيواني حوله ويحيا الحياة بدافع بيولوجي ، ولذلك فقد عاش في كهوف وغابات كما تعيش الحيوانات من حوله ، وكان يحقق كل غرائزه متأثراً بهذا الحيوان ، وبالتالي فهو يقلد الحيوانات في أسلوب المعيشة سواء في علاقاته مع غيره من بني جنسه أو مع الحيوان الذي يعامله ذات المعاملة ، بل حتى في العلاقات بين الذكور و الإناث فكان أقرب إلى / القطيع / الحيواني منه إلى / المجتمع / الإنساني ، فكانت الهداية دوماً تأتي إلى الإنسان من السماء سواء بطرق مباشرة أو غير مباشرة حتى تم تنويع هذا الاهتمام الإلهي بالإنسان وهذا الحرص الإلهي وهذه العناية والرعاية الإلهية بآخر رسالات الخالق إلى عباده في الأرض وبعث آخر الأنبياء والرسول وهي رسالات على الأغلب تخبر الإنسان بأنه ليس حيواناً ولايجوز له أن ينتهج منهج الحيوان في نمط حياته .

إن مجرد النظر إلى تاريخ الإنسان القديم نجده كان باحثاً ومنتظراً لهذه الرسالة الإلهية الكبرى وهذه المعجزة الدينية التي هي رحمة للناس، لقد اهتم الله بالإنسان وبقي يرحمه ، فحال الإنسان بدون الله كحال الغريق في يم بلا قرار وهو إلى ذلك يعيش فراغاً روحياً لا يُطاق . الإنسان الذي لا يتقيد بحدود الله نراه ضائعاً يمضي أيامه دون هدف ، يبعثر صحته

وما يملك وبالتالي نرى إفلاسه الأخلاقي والصحي والفكري والاجتماعي والاقتصادي إلى أن تنتهي أيامه في الحياة .

يأتي الدين ليحدد للإنسان النظم والثوابت والأخلاقيات ويلزمه بما هو خير له ويوجهه إلى ترك الشبهات ، يعلن النبي هذا الاهتمام الإلهي بالإنسان قائلاً : / الناس كلهم عيال الله / ٠ وهو الرب الكبير يرحم المسيء ويكافئ المحسن ويرحم من يشاء وهو دين لا يدعو إلى العزلة والقطيعة عن العلوم والثقافات

ففيه تتلاحق الثقافات واللغات والأقوام، والنوافذ كلها مفتوحة على كل ما على سطح المعمورة، إنه لا يدعو إلى الانغلاقية وأن لا نرى من نافذة بيتنا سوى حديقتنا ، بل يدعو أن نشاهد ماتقع عليه أعيننا من حدائق وأن نتواصل مع الجميع ، فما بناه كتاب كبير مثل / القرآن / لا يزرزحه أي كتاب آخر كائناً مؤلفه من كان من البشر ، لأن القرآن هو رسالة إلهية وقوة إلهية كاملة وإن شعباً يمتلك القرآن هو شعب لا خوف عليه من عواصف العالم كلها ، فإلى المسلم قوي بقدر قربته من القرآن وهو ضعيف بقدر بعده عن القرآن .

فأنت تتعامل مع رياح الخارج تعامل المسلم لكن الخوف كل الخوف عليك عندما تتعامل معها وتنسى بأنك مسلم أو تتناسى بأنك مسلم ، إنك

تنتزع من الآخر إحترامه لشخصك وانتمائك الديني على قدر ما تحادثه وأنت أنت ، وليس أنت هو أو غيره .

الإنسان يأتي من ظلمة الرحم ويتجه إلى ظلمة القبر وبين هاتين الظلمتين يحتاج إلى نور المعرفة وهذا النور يراه في القرآن ومن حُرِم هذا النور كانت حياته ظلاما . بطبيعة الفطرة البشرية ليس مطلوباً منك أن تكون ملاكاً وأنت مسلم ، ولكن أيضاً عليك ألا تكون مع الشياطين وتمضي حياتك مع الشر والخطيئة فهنا /خير الخطائين التوابون / وهنا يتميز الإسلام بأنه انفتاح عام على البشرية لأنه دين عالمي وليس بالدين المحلي ، الإسلام ليس مسجداً مغلقاً لا يمكنك الخروج منه ولا طقساً سرى ، ان الإسلام هو النور الذي يبدد ظلمات العالمين .

وكما ان لكل شخص خصوصيته واستقلالته في نمط التفكير والعمل والسكن والفعل الاجتماعي ، فان لكل مجتمع تركيبته المختلفة عن تركيبة مجتمع آخر وليست هناك مغالطة أشد هولا من إلغاء هذه الخصوصية بين المجتمعات البشرية ، فحتى الأصوات والأسماء وألوان البشرة والأزياء تختلف وتتناقض في هذه المجتمعات . إذن تلتقي مع الآخر بخصوصيتك وشخصيتك وعاداتك وتراثك، مثلما الحال مع الآخر الذي تشكل بالنسبة إليه / الآخر / وعلى هذه الأرضية يتم التلاحق بمختلف مستوياته بين المجتمعات وتتواصل العلاقات البشرية فيما بينها، وعليك

أن تدرك أنه لا يوجد مجتمع بدون سلبيات وأيضاً لكل مجتمع سلبياته التي تميزه وكذلك لك سلبياتك التي تميزك شأنها شأن أمراض تنفّاقم في بقعة جغرافية وتنعدم في بقعة أخرى .

ما يعني هو قدرتك على الانسجام مع واقعك وتمثيلك لهذا الواقع وتجاوزك مع الأطراف الأخرى . من هذا المنطلق فأنت تحمل تراثك وتاريخك وحاضرک الذي هو امتداد لذاك التاريخ الذي تحمله وستحمّله للأجيال الفتية لتتحول أنت أيضاً إلى جزء من الماضي والتراث والتاريخ .

كثيرون يخفقون في محاولة الانسجام مع واقعهم بأشكال وألوان متعددة ويسعون للانسلاخ من هذا الواقع ويميلون للعيش في واقع مختلف عن تركيبتهم ولذلك تراهم يعيشون أزمات سيكولوجية وحالات حادة من الشيز وفير نيا إذ أن الجسد لا يقبل عضوا تم إقحامه عليه وذاك العضو لا ينسجم مع هذا الجسد فيعيش في غربة عن بقية الأعضاء لأنه عضو دخيل .

## رضوان

يسعى الإنسان إلى نور المعرفة والانفتاح لتبديد ظلمته ولمعرفة شيء عن ماضيه وحاضره ومستقبله ، ومن هنا تولد العلاقة بين الإنسان المخلوق وبين الله الخالق إذ أن الإنسان يبحث عن خالقه وماذا يريد منه هذا الخالق ولماذا أتى به وشيئاً فشيئاً تتطورو تجلو العلاقة فيما بين الله والإنسان ، ولعله من حسن حظ هذا الإنسان أن الله قد خاطبه من خلال الأنبياء الذين هم أيضاً أبناء هذا الإنسان وبذلك يمكن لأي إنسان أن يطلع على رسالات الله الموجهة إليه ، هذه الرسالات التي هي كلمات الله المضيئة تنير الطرق الداجية أمام الإنسان . حيثما تولى وجهك فثمة وجهه ، يناديك من الجهات من أعماق البحار من أعماقك من وجوه

الآخرين من الأشجار والأعشاب والأرض والهواء والمياه ، يأتيك حيثما كنت يلبي النداء ويقدم لك ما هو خير .

إن الله لا يتخلى عن الإنسان ولكن الإنسان يتخلى عن نفسه والله لا يريد منك أكثر من أن تلتزم بشروط إنسانيتك ولا تخرج عنها وهذه الشروط ترسم ملامح استقرارك ووجودك وكيانك ومصالحك بالدرجة الأولى ، فالدعوة إلى الحب هي دعوة إلى التكاتف الإنساني بالدرجة الأولى والتقاء الإنسان بالإنسان وحميمية الإنسان تجاه الإنسان ، ما يهم هو أن تبقى إنساناً فأنت أنزه من أن تركع لعجل أو بقرة أو تمثال تصنعه أنت لأنك أنظف وأهم ولأنك الأسمى .

إن الله يدعوك لأن تكون سامياً ، أن تكون أميناً ، أن تكون صادقاً ، أن تكون تقياً ، أن تكون ملتزماً بشروط إنسانيتك ، ومن الطرف الآخر يأتي الشيطان ليدعوك إلى الهوة السحيقة ، يأتي ليخرجك من طبيعة إنسانيتك . ما يهم هنا أن ليس للشيطان أي سلطان عليك وأن قوة الله هي أعلى من قوة الشيطان وأنت مخير بين درب النور وبين درب الظلمة : لا يغير الله ما بك ، حتى تغير ما بنفسك . دوماً يناديك الله لأن تكون مع نفسك ليكون معك ، إن معيلك لا يتخلى عن يعول ، وهو يريد لعيله أن يكونوا الأرقى والأنزه والأجمل ، ألا يرضيك أن يريد معيلك بك أن تكون الأرقى والأنزه والأجمل ، إنه يناديك حتى تلبي النداء ويشرح لك

صدرك ، يرفع عنك وزرك : / ألم تكن يتيما فأوى ، وضالا فهدي ،  
وعائلا فأغنى / • يأتي نداء الله مخاطبا إياك : إن تقربت مني شبرا ،  
تقربت منك ذراعا ، وإن تقربت مني ذراعا ، تقربت منك باعا ، وإن  
أتيتني تمشي ، أتيتك هرولة .  
يخاطب ربك محمدا الإنسان : / يامحمد ما بيني وبينك إلا صورة الجمال  
• /

علاقة ربك بك هي علاقة المحبة والعفو والتسامح والإحسان أكثر منها  
علاقة الحساب والعقاب ، في روح هذه العلاقة الكبرى تأتي الحسنة  
لأنسجل لك حسنة فحسب ، بل تمحو سيئة وهي تسجل لك • يخاطبك  
الله : / يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا  
تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي  
كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا  
من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا  
أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم / • وهنا تكون قوة الإنسان  
من قوة ربه وأنه لا يكون قويا بدون قوة الله • البعيد عن قوة وسند الله  
لا يخاف الآخرين فحسب ، بل يخاف حتى ظلمات ووسوسة نفسه •  
الإيمان يمد الكائن البشري بحالة الإستقرار والسكينة حتى يبلغ مرحلة  
متطورة من التعرف على عدل الله ، فينظر إلى عدالة ربه تجري في كل



حدث يراه أو يعيشه أو يسمع به • إن الإيمان يعدل الله وأنه حق يطور في عمقك ثقافة فقه الحياة برمتها • تبقى حاجتك العليا إلى ربك الذي لا أحد لك غيره ، ولا معين لك غيره ، فانظر إلى ربك وقل : ربي ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا • يناديك الله دوما أن تكون دفتنا لأخيك الإنسان وتكون عوننا وسندا له في مواجهة أشكال الشر والفاقة والإضطهاد • إن الله بمقدوره أن يرفع البأس عن الناس أجمعين ، لكن عندناك ستفقد حرارة التعاون والتعاقد مع أخيك الإنسان • وهنا يتوحد الإنسان بالإنسان ويتواصل في حميمية إنسانية سامية ، تكون قويا عندما تقدم عوننا للضعيف ، وكذلك يؤكد لك الضعيف بأنك استطعت أن تقدم له شيئا ليقف على قدميه • هنا تدرك أن الضعف كل الضعف يكمن في الفردانية والتعزل • يستأنس الإنسان بالإنسان ، ويرى ربه لدى الإنسان • لسوف يخاطب الله الإنسان المقاطع للإنسان : / يابن آدم مرضت فلم تعدني • يرد المقاطع دهشاً : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين !! • يأتي جواب الله : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما أنك لو عدته لوجتني عنده / • إنك تحتاج إلى الآخرين ، إلى حميمية العلاقة بالآخرين ، وتقلع من نفسك أشواك الإنغلاقية والنرجسية • هنا سيكون بإمكانك أن تسلك نهج ربك مطمئنا ومتغلبا على الإشكالات التي تعيق

دربك في نهج الله ، لأن وجود الله في أعماقك يقدم لك الحماية والأمن لكل حالة فزع مباغته يمكن أن تداهمك • فالأمن كل الأمن بيد الله وهو محيط بكل شيء ولا يخفق قلب إلا بإذن الله الذي يكون في أعماقك والذي هو أقرب إليك منك • لن يكون بوسعك أن ترتقي إلى القرب من ربك إلا بمد خطوات ثابتة إلى سلم الحسنات ، أن تحسن إلى كل شيء تراه ، لا يكفي أنك تصلي ، ولكن عليك أن ترتقي بصلاتك إلى سلوك الإنسان الذي يسكن الله أعماقه ، يزيد الإيمان عن سبعين شعبة ، أعلاها شهادة لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، عليك ألا تتردد في فعل شيء قدّرك الله عليه استجابة لنداء نبيك الذي أوصاك : / وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم / • واسمع وصايا نبيك التي تبين مكانة المؤمن عند ربه وهو يخاطب عليا : / يا علي إن العبد المؤمن إذا أتى عليه أربعون سنة أمنه الله من البلايا الثلاثة : الجنون ، والجذام ، والبرص • وإذا أتت عليه ستون سنة فهو في إقبال ، وبعد الستين في إدبار وورزقه الله الإنابة فيما يحب ، وإذا أتت عليه سبعون سنة أحبه أهل السموات وصالحو أهل الأرض ، وإذا أتت عليه ثمانون سنة كتبت له حسناته ومُحيت عنه سيئاته ، وإذا أتت عليه تسعون سنة غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وإذا أتت عليه مائة سنة كتب الله إسمه في السماء : أسير الله في أرضه • وكان جليس الله تعالى / .

علاقة الله بالإنسان تحمل المعاني السامية وتنزهه عن كل ما خبت ، ما يفيد هنا أن الإنسان يعجز أن يكون معصوماً عن الخطأ ويفشل في محاولاته ، وإن أصر فسوف يتحدى طبيعته البشرية وتركيبته الإنسانية ، فإن الجد الأكبر أقدم على خطيئة كبرى ، يرتكب الإنسان الخطايا والمعاصي سواء راغبا أو مضطرا ، ولكنه يتراجع ويتوب إلى ربه طالبا منه المغفرة : / لو لم تذبوا لجاؤا الله بقوم يذنبون ويتوبون فيغفر الله لهم ويتوب عليهم / • يستغفر المذنب ربه ، وإن لم يذنب لا يطلب الاستغفار ، هنا يقوده الاستغفار إلى ربه • ليس مطلوبا من الإنسان أن يكون ملاكا ، لأن الله شاء له ألا يكون ملاكا ، والحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة ليس دعوة لارتكاب الذنوب والسعي إليها حتى يتوصل الإنسان إلى ربه عن طريق الاستغفار ، بقدر ما هو بيان أن طبيعة الإنسان تقوده إلى ذنوب ، وعليه أن يستوعب هذا الأمر ويتعلم من أخطائه ، وهنا أذكر الحديث الذي يقول عن ثلاثة لا يغفر لهم الله ، أحدهم الشيخ الزاني • يكون هذا الشيخ مصرا على الذنب ومستمرا به في حين أن الحديث يقول بتعلم المذنب التوبة من ذنبه

• والواقع فإن روح الحكمة الإلهية تتبدى في هذه الدعوات ، فالإنسان الذي يولد ويموت دون ذنوب سيكون قد فاتته أن يذنب ، وسيكون قد فاتته

أن ينادي الله باسم الغفور ، وعندها لم يكن يعرف ربه بالوجه الذي يعرفه وهو يناديه بهذا الإسم المبارك •  
فلولا الذنوب لما أدرك الإنسان حلاوة التوبة ، لولا الجهل لما عرف الإنسان حلاوة المعرفة ، لولا الاضطراب الفكري لما عرف نعمة صفاء الذهن • الإنسان الناضج هو ذاك الذي تعلم من أخطاء سابقة ، لقد بنى نضجه على خلفية من الفوضى ، يتعرف الإنسان بالله أكثر عندما يسأله الستر فيستره ، عندما يسأله العفو فيعفو عنه ، يتعرف بربه من خلال تبادلية العلاقة بالسؤال والاستجابة حتى ليبدو له أنه يرى ربه رأي العين ، ولذلك فإن الإنسان المؤمن كلما يتقدم في العمر يتعرف على ربه أكثر وتخف ذنوبه •

يبني الله عبده ويرببه وفق نهجه الذي أراد من خلال هذه المراحل من العلاقة ليصل إلى ربه ناضجا ، فالعلم القليل الذي يتلقاه من ربه هو كثير بالنسبة للإنسان وبهذا القليل يمكن له أن يقدم منجزات عقلية هائلة ، وهذا القليل أيضا يأتيه على مراحل في عمر البشرية • العلاقة بين الإنسان وربّه هي علاقة تكاملية وتبقى حاجة الإنسان دائمة إلى العناية الإلهية به إذ أن الإنسان ليس بوسعه أن يشعر بالأمان وهو بعيد عن سكينه الله الذي أتى به إلى رحاب هذا الكون الفسيح

• ما يهم هو أن الإنسان ومن مختلف مواقعه وميولاته وذنوبه وعصيانه عندما يتجه إلى باب الله يجده مفتوحاً لم ينغلق في لحظة ، ويرى الله قائلاً : / ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما زال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر ويده التي بها يبسط ورجله التي بها يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه / •  
يبقى هذا النداء مفتوحاً لإنسان كل زمان ومكان ، لإنسان كل لغة ولون وأمة ودين ، ذلك أنها صادرة من رب السموات والأرض وما بينهما الذي هو / نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة والزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار / .

## سمت

بزغت شمس نهار جديد فزادتهم ظلاما زادتهم دوراننا زادتهم تبيها ، إنهم يهرولون يلهثون يلكمون ببعضهم وبالأشياء ، ينطرحون على الأرض وعندما ينهضون يكتشفون بإنهم ما برحوا أماكنهم ولا تركوها قط فتلبث أقدانهم منتظرة بزوغ شمس جديدة عليها تكون أقوى شعاعا فتنفذ إلى ظلمتهم . القضية لا تعني فردا واحدا منهم أو اثنين ، لكنها تعنيهم جميعا ، تعني البيت كله بسكانه سبعة الرجال وثلاث بنات والأم العجوز التي تؤكد لهم أن أباهم موجود ، ولكنه يتوارى عن الأنظار وأنه يعد أن يأخذهم إليه ليعيشوا معه ، وتأتيهم بالبراهين على ما تقول ، فعندما تعرض أخوهم الأكبر للسقام الذي كاد يؤدي به ، توارت الأم عن الأنظار وعادت حاملة الدواء الشافي قائلة بأن أباهم الذي علم بسقام ولده الغالي أرسل إليه هذا الدواء ، ويبلغهم حبه الشديد ومتابعته لأحوالهم

لأنهم يحملون صيغته ، ولا يوجد مَنْ هو أقرب وأحب إليه منهم • هذه الكلمات تقنعهم لبضعة أيام ، إلا أنهم يعودون إلى خلاف فيما بينهم عندما يسمعون شكوك الآخرين عن نسبهم فيتساءلون : إذا كانت هذه هي أمنا ، فأين أبونا الذي بذرنا في حرثها؟! •

ثم ينظرون في بعضهم البعض : ولكن لا يعقل أن نكون ولدنا دون أب • إذن لماذا يتوارى عنا ويدعنا في هذا الريب حوله ، ويدعنا عرضة لشكوك الآخرين ، حتى لو لم يكن أبا شرعيا لا اعترفنا به لأن الأمر وقع وانتهى وأتينا منه ، وسنعترف بصلتنا إليه •• وشيئا فشيئا سيمسي الأمر واقعا طبيعيا يعترف به الناس كلهم جميعا وسنتخلص من هذه الأقاويل التي تنال منا ومن أمنا •

وتسعى الأم إلى تخفيف معاناة أبنائها وهي تقول لهم بكل هدوء أنها أنجبتهم وهي متأكدة من هذا الواقع ، فقد خرجوا جميعا أجنة من بطنها الصغير هذا وأرضعتهم ورعتهم وعانت مع كل واحد أشد المعاناة، وليس ذنبها إذا كان أبوهم يصر على تواريه ، وهي عاجزة من فرض رغبتهم عليه رغم اعترافها بأن هذا يثير حولها الشكوك حتى من أقرب الأقرباء الذين يدركون الحقيقة بيد أنهم يستغلون الواقع لإثارة الشبهات في نسب أبنائها ، ولكن هذا كله لا يشكل شيئا أمام الحقيقة الكبرى التي تدركها وتسعى لإقناع الأولاد بها ، وتروي لهم كيف أنه

دوما يرسل لهم العطايا والهدايا وكلمات الحب والوصايا ويقول لها : هذا كله لعيالي •

منذ أيام عندما تردى أحد الأخوة من السطح وسال الدم من رأسه ، قالت لهم الأم : هذا الدم الذي نز من أخيكم ، أتعلمون أنه سار إلى أن بلغ أباكم وأصبح بين يديه وسبب له السخط ، إنه يبلغكم مجددا وصيته أن تكونوا حذرين على أنفسكم ، يوصيكم أن تغتسلوا جيدا وتهتموا بنظافة فمكم وأناملكم وأجسادكم وثيابكم ، إنه معكم أكثر مما أنتم مع أنفسكم ، حريص عليكم أكثر من حرصكم على أنفسكم لأنه هو الذي أتى بكم وأنتم منه ، من شبهه ، أنتم الخلف ، وأنتم السلف ، أنتم السيرة الطيبة بالنسبة إليه ، إنه يقول لكم ألا تحاسدوا ، ألا تباغضوا ، وتحابوا فيه •

رغم كل هذه الشروحات الهادئة ومناقشتهم بحكمة لم تنجح الأم في إقناعهم جميعا فانقسموا إلى شعب شتى ، فمنهم من يلغي وجود أب غائب كهذا يتوارى عن أبنائه ويعيش في بعاد عنهم ، ومنهم من يقول بأننا أبناء غير شرعيين ، ومنهم من يقول بأن ذلك لايشكل أي أهمية ، المهم أنهم يعيشون واقعا وعليهم أن ينسجموا معه دون أسئلة كهذه . هذه المواقف أدت إلى خلاف فيما بينهم ، فكل طرف يريد أن يكون موقفه



هو العام والغالب ، ونتيجة حدة الخلاف وقع شجار فيما بينهم حتى قُتل أخ وأخت ووقع سقام فيهم لبثوا فيه سبع سنوات ممددين على ظهورهم يعانون الألم والجوع والضعف . فقالت الأم أن غضب الأب حل عليهم وأن أخاهم وأختهم لم يذهبا في مجهول ، بل ذهبا إلى أبيهما وشكيا له ، وأنهما الآن يعيشان بالقرب منه . فتوسلوا إلى أمهم أن تشفع لهم عنده ليسامحهم ويزيح عنهم الضنك ، وأنهم لن يعودوا إلى ماكانوا عليه من شجار . بعد سنة جلست الأم إليهم وزفت إليهم بشرى السماح من أبيهم وقد عفا عما مضى وقد أرسل لهم أدوية شافية وأنعام وفاكهة ممايتخيرون ، ولحم طير ممايشتهون حتى يستردوا عافيتهم ولاتذهب ريحهم ويذهب عنهم الوهن . بعد ذلك بستة أيام رأى الأولاد أن العافية عادت إليهم ودب فيهم نشاط وكان شمساً جديدة أشرقت على بردهم . وأضافت الأم أن أباهم ينبئهم أنه سيبث بما هم فيه يختلفون ، ولبثوا منتظرين هذا البث حتى كاد الخلاف يأخذ مجراه كرة أخرى ففزعت الأم خوفاً على أولادها من غضب الأب فهي تدرك شدة غضبه في مثل هذه الخلافات المتصاعدة ، فغدت تهدئهم وتصبرهم وتقول بأن أباهم هو الذي وعدنا بهذا التدخل ، وأنه ليس من عادته أن يخلف وعده ، وكل ماعليهم أن يتحلوا بصبر جميل . فقال أحدهم : إن أمنا تلقي الكلام على عواهنه . وقال آخر : أي تدخل هذا الذي يوعدنا به أبونا . وقال آخر لو

كان لنا أب لأتى وعاش بيننا • وقال آخر : علينا أن ننتظر حتى يتحقق الوعد .

وعاد الخلاف يتصاعد فيهم حتى إذا اختفى أخوهم الذي كانوا يلقبونه / خاتم أخوته / لأنه كان كما يقولون / آخر العنقود / عن البيت ذات ليلة فلبثوا مستيقظين قلقين على مصيره وهو الذي لم يسبق له أن غاب عن البيت ، وإذا جاء الصبح باغتهم بحضوره فنهضوا جميعا يستفسرون عن سبب غيابه ليلة البارحة عن البيت • فقال دون تمهيد وبشجاعة أنه أمضى الليلة كلها عند أبيه ، وأنه عندما كان يحدثه يذكرهم أخوا وأختنا بالأسماء : حتى ظننتُ بأنه لم يغب عنا ساعة ونحن نتحدث كحديثنا هذا ، بكلماتنا هؤلاء ، كان يحدثني ويخبرني بما أعلمه ولا أعلمه عن أحوالنا وعن ماضينا ومستقبلنا ، وهناك شاهدت أخي وأختي وأنهما يبلغانكم شوقهما وسماحهما • ثم أبلغه رسالة وأوصاه أن يقرأها على أسماعهم ، وأنه بعد قليل سوف يقرأها • عندذاك أحضر أحد الأخوة فلما وبدأ يكتب ما يرويه خاتم أخوته ، أو آخر العنقود • فقال بأنها الرسالة التي تبث في خلافهم ، وهي الدليل على وجوده وعلى مشروعية وجودهم ، وأما من يتشكك في نسبهم فيرويه هذه الرسالة فهي برهانهم الأكبر • عندذاك تسربت طمأنينة إلى أفئدتهم فأحاطوا خاتم أخوته بحبهم

وعنايتهم وهم يرون صورة أبيهم في وجهه الذي أصبح ينير بنور الأب  
• فهو قد حادثه وأبث معه ليلة وأتى منه برسالة ، وتولى خاتم أخوته  
إعادة قراءة الرسالة عليهم لأن قراءته الشخصية تحمل أكبر التأثير فيهم  
، فالتقوا حوله وركنوا إليه ، واطمأنت قلوبهم .  
ولكن هذا الصفاء لم يدم عندما سمع بعض الأقرباء والجوار بهذا الأمر  
وقرأوا الرسالة ، فقالوا لبعض الأخوة أن خاتم أخوته هو الذي قام بتأليف  
هذه الرسالة من وحي خياله وهو الذي عُرف عنه ميله إلى التعزل  
والتفكر والشروود الطويل ، وما ذلك إلا لينصب نفسه وصيا وحكيما  
عليهم ، فهو أصغرهم سنا وأن عقدة النقص هي التي أزجته إلى هذا  
التأليف ، فهو كان مهمشا فأصبح بهذا التأليف معززا مكرما ذو رأي  
ومشورة ، فأب هذا الذي يختفي عن أبنائه •

عندذاك تدخل خاتم أخوته بنفسه في الرد على هؤلاء وقال : إن أبانا الذي  
يهبنا كل شيء عن بعد لهو أكثر حضورا من أبيكم الذي يعجز من أن  
يهبكم شيئا عن قرب • فحدث شجار بين خاتم أخوته وبين هؤلاء ، لتعود  
الشروخ والإنشاقات إلى التصاعد من جديد بين الأخوة نتيجة تدخل  
أصحاب هذه الأقاويل .

هذه المرة خرج الأمر من دائرة الأخوة لينتشر بين الجوار والأقرباء ، فذيع سيط الرسالة وتم انتشارها في المملأ ، بهذا الإنتشار انقسم الناس بدورهم إلى ثلاثة أفواج ، فمنهم من وقف مع المؤيدين لهذه الرسالة ، ومنهم من وقف مع المعارضين لها ، ومنهم من وقف مع الحياديين منها وأصبحوا فيما يشبه الأحزاب والتكتلات الكبرى حتى كبرت أحجام الأحزاب وتعاضمت وانتشرت في أرجاء الأرض وشملت كبار أهل الرأي والفكر ، فتم تأليف رسائل وكتب ومذاهب عن هذه الرسالة التي أتى بها خاتم أخوته حتى أصبحت الرسالة مقترنة به وغدا مقترنا بها ، فكان هو البرهان الأكبر على وجود هذه الرسالة التي لم تكن فيهم قبل أن يأتي بها .

فانهال الناس يأتونه من مشارق الأرض ومغاربها ليدونوا مايقوله ، حتى أمسى كل ما يقوله ويقوم به ويفعله من أوقات نومه ، إلى أوقات طعامه ، إلى أوقات ذكره لأبيه ، إلى لون ثيابه وجلوسه وطريقة غسله يُدَوّن في كتب وينتشر في الناس بسرعة البرق ، حتى إذا توفي خاتم أخوته حل الحزن بمريديه وأصحابه وازدادوا تمسكا بالرسالة التي خلفها وجعلوا من قبره مزارا خالدا تقديرا لجهود خاتم أخوته الذي استطاع أن يذهب إلى أبيه الغائب ويأتي منه برسالة .

إنه السطر الأخير ، إنها الكلمات الأخيرة التي نزلت من مخيلة أقرب كائن إلى روحه ، إنها ذكرى المجيدة ، ذكرى التي بوسعها أن تبني عالما في صحراء قاحلة .

المرأة الاستثناء التي جاءت لتترك بصمة نسائية ذهبية على كوكب الأرض : إنها الشمس التي أشرقت على ليلك يا بشري • لم يستطع مقاومة قبلة سبقتة إلى غلاف الدفتر الذي كله رائحة من روح ذكرى وقد هتف صوته باسمها ، عندها دخلت ذكرى وهو ينظر إليها بعينين مليئتين بالشوق وقال : رغبت أن أظفر بقلبتين على عينيك ، وأهمس في سمعك : إن من يبلغ كل هذا الإيمان لن يسقط • قالت وهي في حضنه : لكنه الله يا بشري .. الله الذي ملأني بكل ذرة إيمان به . أشعر بأنه أقرب إلي من نفسي ، إنه أكثر رحمة لي من نفسي ، كل شيء حولي مكتوب عليه اسم الله ، أقرأ اسمه على شربة الماء ولقمة الطعام وجدران البيت ، أقرأ اسمه حتى في لون عينيك ونبرات صوتك • عندما وقع صوتك علي كنت أنظر إلى بصلة خضراء طويلة وأنا أعد الغذاء لضيفتنا ، كنت أردد في نفسي : ها هو الله قد جعل أذيال أوراقها الخضراء مغلقة حتى لا تدخلها حشرات ، عندها كان يصعب علينا إخراج تلك الحشرات وغسلها من الداخل : أليس هو الله الذي جعل هذا يا ذكري .

إن الله هو الذي يملأ كل وقتي وليس من شيء يتردد في خاطري وفمي أكثر من اسم الله •

ليست هناك نظرة أنظرها إلا باسم الله ، ليست هناك خطوة أخطوها إلا باسم الله ، ليست هناك كلمة أقولها إلا باسم الله . كل هذه المساحات الشاسعة من الأرض يابشري هي أصغر من أن تتسع لنعم الله ولذلك ترى النعمة تفيض عندما تضيق بها الأرض ، حتى بيتنا هذا فإنه يفيض بنعمة الله ، وبرادنا الذي ضاق بالنعمة لم يعد يتسع لكسرة خبز . عندئذ تنهى صوت الباب فسارت ذكرى إلى فتحه وهي تقول : إنها ضيفتنا . استعد بشري لاستقبالها وإلى جانبه نجم ، بعد قليل رأها تدخل غرفة الضيافة برفقة ذكرى التي سرعان ما قامت بمهة التعريف بينهم ، وما لبثت أن دعتهم إلى تناول الغذاء . لقد صنعت مائدة عامرة احتفاء بزيارة صديقتها ، ولمحت خورشيدة هذا الاحتفاء فقالت وهي تأكل : إنها وليمة وليست عزيمة يا ذكرى ، ولكن هل لي أن أتناول كل هذه الأصناف . بعد الانتهاء من الطعام قدمت ذكرى عصير البرتقال ، وبعد ذلك الشاي ، ثم قدمت صحناً من الموز والتفاح .

بعد ذلك قالت وهي تجلب القهوة مع صحن من الفستق الحلبي وبزر القرع : صرنا على استعداد لسماع قصتك يا غاليتي . ورغم أن صديقتها ألمحت إلى أن القصة تحمل بعض المواقف المحرجة التي تخرج منها أمام بشري ، إلا أن ذكرى رأت أن يسمعها بشري كذلك ، وفي أثناء ذلك

نظرت إلى نجم الذي نهض من إثر نظرتها وهو يقول بأنه سيزور أحد الجوار .

عندها قالت خورشيدة لبشري بأن ذكرى صديقة طفولتها وكانت منذ أيام الدراسة في المرحلة الابتدائية تشعر بسعادة وهي تروي لها أسرارها : هذه القصة لا يعلم بها أحد غير عزيزة التي كانت جزءا منها ، وهي تخرج من فمي لأول مرة ، أرويها يابشري وأنا أعتبرك زوجا لأختي فأرويها أمامك .

صمتت خورشيدة قليلا ثم بدأت في القصة وقد لمعت دمعتان من طرفي عينيها :

لم أكن أصدق أن هناك علاقة حميمة تجمع بين أي زوجين في العالم كتلك التي تجمع بين أبوي ، وليست لدي أمنية مثل أمنيتي أن يكون الطالب يدي للزواج يكن لي المحبة التي يكنها أبي لأمي ، وكثيرا ما رددت بيني وبين نفسي : كم أن أمي محظوظة بحب أبي الكبير لها . ولذلك في الليلة الأخيرة من ليالي أمي في الحياة ، لم أحس بأنني خسرت أمي فقط ، بل خسرت معها أبي . مسحت خورشيدة دموعها وأردفت بنبرة مثقلة بالبكاء الذي بدأ يغلبها :



خرج الطبيب الجراح من غرفة العمليات وأنبأنا بموتها . فقد أبي السيطرة بنفسه فأطلق صراخا مرعبا في ردهة المشفى وراح يخبط رأسه في جدار الغرفة التي قضت فيها أمي في المشفى الضخم ، وأمام هذا المشهد المرعب ، نسيت موت أمي وانشغلت بما آل إليه حال أبي ، كان ينوح مثل طفل بكبرياء رجل . تغير لونه بشكل مفرع وبعد قليل نقله بعض ممرضين وممرضات إلى غرفة هادئة بعيدة عن الزحام ورائحة الأدوية .

كانت الساعة قد شارفت الحادية عشر ليلا عندما أنهينا تجهيزات نقلها إلى بيتنا بواسطة سيارة إسعاف المشفى ، عندذاك صعد أبي الشاحب الذي لم تكن الدموع قد فارقت عينيه ومضت بنا السيارة ، لأدري لماذا شعرت بأنها تحمل شخصين ميتين هما أمي وأبي ، هذا الإحساس كان يدمرني والسيارة تمضي بنا إلى البيت ، قبيل وصولنا البيت أوقف أبي السيارة بصوت كأنه الأنين بجانب محل لبيع الكحول ، تركنا لدقائق وعاد من المحل حاملا بيده كيسا تصدر منه أصوات ارتطام زجاجات ببعضها .

كانت هي المرة الأولى التي أرى فيها أبي يحمل كحولا إلى بيتنا وقد بلغت الثامنة عشرة من عمري .

أنزلنا الجثة ، وعند انصراف السيارة ، قال أبي بأنه سيغلق باب غرفة نومهما على نفسه ، ولا يريد أن يعلم أحد بوجوده في البيت ، وقبل أن أرد عليه نفذ ما قاله . بقيت ساهرة أنتحب على أمي المفقودة حتى طلوع الضوء ، ولبت هو الآخر سهرانا يغرق في عالم الشرب . تصرفت بنفسي وبمساعدة الجوار في مراسيم الدفن وأنا أخبر كل مَنْ يسألني ، أن أبي غائب عن البيت .

عند العصر كان قد انتهى كل شيء فبدأت أستقبل المعزين حتى التاسعة ليلا ، عندذاك فرغ البيت وقد هدني الإرهاق ، ولم يكن بوسعي النوم قبل الاطمئنان على أبي فطرقت عليه الباب وناديته بصوت خرج للتو من حنجرتي الجافة ، فأجاب بأنه لن يخرج ، ولكنني استطعت إقناعه بتناول شيء من لحم مطهو جلبه لي بعض جوارنا .

عندها فقط فتح الباب بالكاد ليتناول الصحون ، وفي أثناء فتحه اندفعت رائحة الكحول المخنوقة إلى الصالون وملأته ، وبسرعة خاطفة تراجع وأغلق الباب على نفسه .

بعد أسبوع من عزلته خرج لأول مرة من البيت دون أن يتكلم معي بحرف واحد ، ورأيتها فرصة لأقوم بتنظيف غرفته التي بدت لاتطاق من الفوضى ، ولكنها بقيت الغرفة الغالية التي ولدتُ فيها والتي تحمل كل ذكريات أبي وأمي ، إنها الغرفة الأكثر خصوصية بالنسبة إلي لذلك

حرصت أن تبقى أنيقة وكأن أمي ماتزال فيها من خلال صورة الزفاف التي تجمعها بأبي والمعلقة على الحائط .  
قلت بأن أبي خرج وعسى أن يحمل هذا الخروج تغييرا لوضعه النفسي فيعود إلى عمله ، لكنني فوجئت به يعود بعد ساعة بواسطة سيارة ويدخل إلى الغرفة ثلاثة صناديق ضخمة من زجاجات ، ويقفل الباب على نفسه .

لم يكن بوسعي أن أفعل شيئا سوى أن أنتظر ، مضى شهر كامل دون أن يرى أبي وجه الشارع ووجه أحد ممن يزوروننا من أقرباء وجوار يأخذون بخاطري .

وصرت أنفق مما كانت أمي ادخرته للطوارئ ، وجر الشهر خلفه تسعة شهور من عزلة قاتلة يعيشها أبي وأعيشها معه وأبتلع مرارتها لحظة بلحظة ، إنه أبي ، صاحب التضحيات الكبرى معي ومع أمي ،  
لأفكر للحظة واحدة أن أتركه ، حتى فكرة الزواج من موسى الذي يحبني وأحبه بدت بعيدة عني ، فهل أتجاهل كل تلك المواقف الكبرى التي أوقفنتي على قدمي وأقول لأبي أمام أول محنة : وداعا .  
لا لن أكون كذلك ، ولا أفكر أن أكون كذلك . إنه الواقع الذي قال بأنني لم أعد أملك شيئا أنفقه ، فقد نفذ كل ما كانت أمي ادخرته ، ولكن أرى أبي يخرج بين أيام وأخرى فيجلب الكحول وبعض طعام للبيت، وعلى

الأغلب يجلب المعلبات والزيت والسكر والشاي والرز فيناولها لي ويعود إلى غرفته .

كان أبي ينتهي ، وكنت أنتهي ، وكان البيت ينتهي ، وأنا أتخيل منظر أبي قابعا بين الزجاجات المحطمة وأعقاب السجائر وبقايا الطعام ، فهو كلما ينهي زجاجة يحطّمها ويقضي كل حاجاته في الغرفة دون أن يسمح لي بالدخول ولا بالتنظيف ولا حتى بفتح النافذة إلا إذا خرج ليطلب مايريد مرة أخرى .

في هذه الأوضاع المأساوية زارني موسى في البيت وكان على وشك أن يتقدم لخطبتي ، ولكنني أخبرته بأن أوضاعي لاتسمح لي مجرد التفكير بأمر كهذا ، فقال بأنه يشاركني حزني وكذلك لايفكر أن يتخلى عني في محنتي ، وسوف ينتظر إلى أن تنتهي الأزمة .

وهو شاب شفاف يعمل معلماوكيلا في القرى النائية ويسكن في الحي المجاور لنا -وأرجو أن أتمكن من التعارف بينكم فقد بات يعرفك جيدا ياذكرى من حديثي الطويل عنك - أجل قلت له بأنني لأفكر بشيء غير أبي فأنا ابنته الوحيدة التي يمكن لها أن تقدم إليه شيئا من العزاء في محنته ، وهو الذي سبق له أن قدم كل شيء لي ، سبق له أن قدم لي حياة كاملة .

عاهدني الرجل أن يبقى إلى جانبي في هذه المحنة ومستعد أن يمنحني راتبه شهريا ، فكبر بعيني وأدركت حينها أنه الرجل الذي تُعقد عليه آمال عمر بأكمله ، إنه الرجل الوفي الذي يكون أكثر قربا وقت الشدة ، فشكرته على موقفه وقلت أنني لست بحاجة إلى مال رغم أنه قال بأنه سيمنحني على سبيل الاقتراض حتى يشفى والدي ويسدد له . فكررت بأنني لأحتاج ، ولم أصل مرحلة كهذه من الحاجة •

كان يطرق علي الباب في الأسبوع مرتين عندما كان يعود من التعليم من تلك القرى البعيدة لأنه كان ينام هناك ولا يأتي إلا يوم الجمعة ، ولكنه من أجلي كان يأتي يومي الثلاثاء والجمعة حتى يراني ويسأل عن أبي •

كان يجلس في الصالون نصف ساعة يشرب كأس شاي أو فنجان قهوة ويعود •

في إحدى الأيام فوجئت بشخص يطرق بابنا ويسأل عن أبي الذي تراكمت عليه ديون الدكان ، فعرفت للتو أن أبي يستقرض مايجلبه ، وقلت للرجل أن أبي لا يستطيع • لقاءه الآن ، ولكنني سأخبره .

كان رجلا مهذبا فانصرف وهو يعتذر . بعد ذهابه بنحو ساعة طرقتُ الباب على أبي : منذ ساعة جاء رجل سمان سأل عنك . فتح الباب

وتركني أدخل ، وعلى الفور فتحت النافذة وشرعت في التنظيف والتشطيف .

أمضيت نحو ساعتين لا أتكلم معه حتى يدعني أكمل التنظيف وتنقية الغرفة لهذا الرجل الذي هو أغلى وأعز وأقرب كائن لدي . حتى في لحظات يريد اليأس أن يقترب فيها مني أردد بيني وبين نفسي : لكنه ذاك الذي حملني على كفيه في الثالثة صباحا عندما أصابني التسمم وأنا في السادسة من عمري ، أخذني ركضا في تلك الليلة الشتوية المطيرة إلى المشفى الذي يبعد عن بيتنا ثلاث كيلو مترات ، لكنه الرجل الذي كان يقوم بأعمال مضيئة طوال النهار لي جلب لي علبه حليب عندما جف حليب أمي ، الرجل الذي طالما مد يده إلى لقمة طيبة ليضعها في فمي .

هل يمكن لي أن أتخلى عنه لمجرد محنة طرأت عليه ، وعندها هل يمكن لي أن أخلص لأي شخص آخر لدى مروره بمحنة . بعد تفرغي من ترتيب الغرفة وحواري مع نفسي بركت جواره وطلبت منه أن يعود إلى عمله لينسى لأن الحياة لاتجمد أبدا أمام حدث ودوما تحمل مفاجآت جديدة وسارة خاصة لأولئك الذين فقدوا الأمل . عندئذ صوّب إلي نظرة زلزلت كياني وبذات الوقت أدخلتني إلى حالة غريبة رأيت معها صورة أمي ترتسم في داخلي . وتذكرت بأنني دون أن أدري

اتبعت أسلوب أُمي معه عندما كان يمر في أزمات مالية أو جسدية أو نفسية .

واسترجعت ذاكرتي بنشاط تلك النظرة التي كان دوماً ينظرها لأُمي في أحوال متأزمة كهذه ، ولا أدري لماذا رأيتني أنهض وأخرج من الغرفة مهرولة وكأنني أهرب من أنامل أشباح أرادت أن تخنقني ، فوقفت أتأمل الشارع وأنا أستغفر الله . عدت إلى غرفتي وللتو تحسست مأساة الرجل الذي يعيش دون امرأة ، وعلى الأخص كأبي الذي الذي عاش مع المرأة

وراودتني أفكار مخيفة شردت معها بفكرة الزواج لأول مرة بهذه القوة من موسى الذي مايزال ينتظر شفاء أبي وموافقته .

في اليوم التالي بدأ أبي يخرج إلى الصالون وهو مخمور وتلاحقني تلك النظرة التي باتت مصدر إستفزاز لحواسي ولا أعرف كيف أعبر له كي لا ينظرها إلي ، حتى أجنّب ذلك الشعور بالاشمئزاز منه في تلك اللحظات .

لأعرف أي شيطان تدخل ليوسوس لي بوساوس مفزعة ، وكذلك تبعت على كل هذا الاشمئزاز الروحي .

وعندذاك تناهى إلى سمعي صوته وهو يناديني باسم أمي ، أجفاني الإسم الذي ناداني به ، لكنه عاد يناديني به ثانية ، فالتفتت إليه مبتسمة بكل ما في القلب من ألم وقلت : أنا ابنتك خورشيدة .

دنا إلي بذات الطريقة التي كان يدنو بها من أمي ، فسارعتُ الخطا إلى غرفتي وأقفلت الباب على نفسي وقد أصابنتني حالة غريبة من الأنفاس المتقطعة مصطحبة بنوب غثيان كادت تهد معدتي .

من الطرف الآخر كانت طرقاته العنيفة تقع كالبرق على حواسي وهو يردد بانفعال حاد أنني أحرمه من حقوقه ، وأنه لن

يسامحني ، حتى شعرت بأن صوته انطفاً ولم تعد به نبرة واحدة ، فعطفت عليه وأنا أتحسس وقوعه على الأرض مغمياً . فتحت الباب وكل ذرة في ترتعد وتقول : يارب أنجني من هذه المحنة ، يارب لا تتخل عني . والدموع تنسال من عيني كأنها لن تتوقف . حملته بلطف ، وأنا أتذكر مرة أخرى كيف حملني إلى المشفى وهو يركض بي تحت المطر في الثالثة صباحاً . لقد كان يحمل أئمن شيء لديه ، كان يحمل فلذة كبده ، كما أنني أحمل الآن أئمن كائن لدي ، أحمل من أتى بي إلى هذا العالم .

أدخلته إلى غرفته ، وصنعت له المليسة التي كانت تصنعها له أمي لتهدئ أعصابه بها ، تمدد على فراشه وتناول كأس المليسة ، وبعد ذلك



صبيبتُ له كأساً أخرى لتغسل معدته من آثار الكحول ، و عدني بكلمات هادئة بأنه لن يعود إلى الخمر ما دمت أرعاه وأهتم به وأعامله بلطف .  
و عاد يحادثني بعبارات كان يقولها لأمي ، يتصرف معي تصرفات كان يتصرفها مع أمي .

أصررت عليه من جديد بأنني لست أمي ، وأنني لو أوهمته بذلك سأخرجه من حالة إلى أسوأ منها ، وهرعت إلى حجرتي مقللة الباب على نفسي من الداخل .

سمعته يحطم زجاجة بالحائط وعادت رائحة الكحول تفوح من حجرتة بقوة وتملاً غرفتي رغم إحكام الباب .

لبثتُ أرتعد في فراشي حتى عاد فجرا وهو يدفع الباب المقفول بقوة ويناديني باسم أمي .

لقد تحول هذا الرجل الوديع إلى كائن كحولي لا يُحتمل .  
لم يكن من أحد ليقف إلى جانبي غير عزيزة التي كانت تأتي بشكل متقطع لتطمئن علي ، وقد شحبت المسكينة أكثر مني وكأنها هي التي تعاني الأزمة ، وكننتُ بأمس الحاجة لأروي ما أعانيه لشخص عزيز عله يخفف عني ويسندني ، وكانت عزيزة هي ذلك الشخص الأقرب إلي .  
في تلك الأيام عرفت كم هي امرأة نبيلة ، وعرفت أن الإنسان الوفي يبقى وفيًا في كل الظروف .

قالت لي بأن والدي يحتاج إلى امرأة ، ووجود امرأة لسوف يحل له هذه الأزمة . وقد طلبت مني أمرا لكنني رفضته بقوة ، وأنا أترفع به عن أبي الذي هو بنظري كتلة من النقاء ، رفضته وأنا أكاد أرفع يدي لأصفعها ، لكنها رغم عنفي لبثت مصرة على فكرتها ، فذات صباح وقد كنت خارجة إلى الفرن لشراء الخبز وقد تركت الباب مفتوحا لأن عزيزة تأتي في أوقات مختلفة ، عدت إلى البيت ولفت نظري أن الباب مقفول ، تذكرت بأنني تركت المفاتيح في القفل من الداخل عندما خرجت . وقبل أن أمد يدي لأطرق الباب سمعت صوتها يهتف به : افتح ، أنا عزيزة صديقة خورشيدة ، ألت بحاجة إلى امرأة ، سأهبك حاجتك ، لدي قدرة لامتاعك ، افتح ، لاتكن عنيدا .

وجاء صوته مجيبا عليها : لن أخون زوجتي حتى اليوم الأخير من عمري ، لقد تعاهدنا على ذلك منذ ثلاثين سنة في اليوم الأول لزواجنا . قالت وهي ماتزال تطرق بابه بخفوت ورجاء : لكنها الآن ماتت . أجب باستهزاء : أنت تهلوسين .

عندئذ طرقتُ الباب ففتحتُ عزيزة وقبلتني ، استطعتُ في تلك اللحظة أن أتحكم بفوران دمي ، وأظهرت لها بأنني لم أسمع شيئا ، لكنني بذات اللحظة كنت سعيدة لنقاء أبي ولمدى إخلاصه لأمي ورفعتُ رأسي إلى الأعلى قائلة في سري : يارب ارزقني برجل نقي كهذا .

ما يزيدني دهشة أنه جاد في حديثه لدرجة أنني في لحظات من حديثه أردد في سري بكل جدية : هل أنا واهمة أم هو .. هل أنا مريضة أم هو .. هل يمكن أن خورشيدة ماتت وأنني لأأريد أن أصدق موت ابنتي الوحيدة .

ورأيته يخرج في إحدى الصباحتين دون أن يقول لي إلى أين ولا أدري لماذا رأيتني أتصرف في البيت كما كانت تتصرف أُمي ، أخذت صيغتها إلى الصائغ وبعثتها بكل ثقة وكأنني أبيع صيغتي .  
ذهبت إلى السمان ، سددت له الديون المتراكمة على أبي وعدت إلى البيت حاملة ماينقص بيتنا من أغراض ، انتظرت حتى المساء ، لكنه لم يعد ، قلقت عليه ، ولأأعرف متى وكيف أخذتني الغفوة وقد تركت الباب مفتوحاً كي يدخل ..

أفقت في الصباح دون أن أجده ، تضاعف قلقي عليه ، فأين بات ليلته؟! .  
وخرجت أبحث عنه في سوق المدينة ، خرجت وليتني لم أخرج ، ليتني مت قبل أن أرى أبي في ذلك الموقف .  
كان ثملاً يتقياً على رصيف وسط المدينة والناس يلتمون حوله ويستهنئون به ، ويبدو عليه أنه أمضى ليلته على ذلك الرصيف .

نظرت إليه نظرة كما كانت تنظرها إليه أُمي ، لا أدري مالذي فعلته به تلك النظرة التي صوبتها إليه مرغمة وقد خرجت من عيني كما تخرج مني الروح ، لكنها فعلت فعلها فأيقظته من ثمله لينهض وكأن شيئاً لم يكن ، كأنه لم يكن ذلك الذي كان قبل لحظات ، ووسط ذهول الحضور ناداني باسم أُمي فأمسكت بيده وعدنا إلى البيت ، أعلمته بأنني بعث الصيغة وسددت ديونه .

فقال بأن حكمتي دوما تأتي لتنتقذه من أزماته .

في المساء لم يبق أمامي إلا أن أقرر الخروج ، وكان الخروج هو محاولة أخرى مني لأكون أكثر قرباً من أبي ، محاولة جديدة للعناية به والتضحية في سبيله . خرجت من البيت وكأني أخرج منه لآخر مرة ، وصراخ أُمي يلاحقني بالخروج . تركت بيتي الذي ولدت وترعرعت فيه يوماً يوماً ٠٠ ساعة ساعة .

خرجت بعد منتصف الليل وأبي بأمس الحاجة إلى خروجي هذا ، بأمس الحاجة إلى غيابي عنه رغم لهفتي ورغبتني الشديدة بالبقاء .

صمنت خورشيدة ، وبعد قليل رشفت رشفة ماء وأردفت بنبرتها الناعمة ، وحنجرتها المثقلة بالبكاء ، وعينيها اللتين مافارقتهما الدموع :  
المني يا ذكري أن أتزوج بهذه الطريقة ، ولكنني لم أجد غيرها في ضياعي ، شرحت لنفسني ولهذا الرجل الطيب الذي ألمه أيضاً زواجه

بهذه الطريقة مني ، وكان يفكر أن يقيم حفلة عائلية حميمية لي ويقدم أقرباؤه إلي الهدايا ، ونصّور حفلتنا على شريط فيديو ، ونمضي أسبوعا في مدينة جميلة ، وكذلك كنت أحلم بوضع صورة لزفافي في غرفة نومي كما فعلت أمي .

لقد ضحيتُ بكل شيء في سبيل ألاّ أخسر أبي وألاّ يخسرني ، وأنا أسمع بكل قوة صراخ أمي التي نادت بالخروج وهي على كل ذلك الغياب مني .

ومَنْ للمرأة غير الرجل .. هاأنذا أهرب من الرجل إلى الرجل ، ولكن عليّ ألاّ أهتم بهذه القضايا الموجعة للرأس ، عليّ أن أبحث عن مكان أعيش فيه بكرامة وأحافظ على اسم أمي واسم أبي .

إن أبي يمر بظروف مَرَضِيَّة شديدة القسوة عليه وعلي ، وما أستطيع أن أقدمه إليه في مرضه بغيابي لهو أكثر أهمية مما أستطيع أن أقدمه إليه بحضوري في محاولتي اليائسة الأخيرة .

هذا آخر ما لدي لأقدمه لهذا الرجل الذي لانتتهي أفضاله علي ، لكنه في الليلة السادسة من هروبي منه وزواجي من موسى اقتحم بيتي الزوجي بعنف علي واستطاع أن يجرجرني خلفه ويعيدني إليه بالقوة كما يعيد نعجة بعد أن فشلت كل محاولات زوجي وأهله بمنعه .

أدخلني البيت وحطمت رأسي بزجاجة و انهال علي يركلني بيديه وقدميه حتى فقدت الوعي وفقدت القدرة على احتمال الألم .  
كانت كلماته الأخيرة التي سمعتها : أنت لي ، لن يأخذك مخلوق مني ، لقد تعاهدنا على ذلك منذ ثلاثين سنة ، لا يحق لك أن تتركيني في منتصف الطريق وتقولني : وداعا . وكأن شيئاً لم يكن ، وكأن المودة الماضية كلها لم تكن .  
لا أعرف كم كانت الساعة عندما أفقت ، ولكن الليل يخيم ، وحده البرد أيقظني ، وأظن أن الحرارة كانت تحت الصفر ، فقد كنت منطرحة على أرض الصالون كأنني ارتميت من سيارة ، فتحت الباب وخرجت حافية أركض بين الصقيع حتى وصلت بيتي الزوجي ، في ذلك الصقيع والليل خرجنا إلصقريية التي يعلم فيها زوجي .  
لم أكن أعلم أنه يعاني هذه المعاناة حتى لا يبقى عاطلا عن العمل ، حتى يكون زوجا عاملا وليس زوجا عاطلا عن العمل .  
كانت القرية بعيدة عن المدينة وبعيدة عن الطريق العام ، لاماء فيها ولا كهرباء ولا هاتف ولا طريق معبد . وكانت البيوت كلها طينية بما فيها المدرسة والغرفة التي منحوها لنا .  
اعتدت على الحياة هناك رغم فكري الشارد بأبي ، فكنت أحضر طريقة تعليم موسى للأولاد الذين كانوا نحو أربعين طالبا ابتدائيا من مختلف

الصفوف المختلطة ، راق لي العمل وصرت أعينه مع المعلمة التي كانت من سكان القرية ، وكذلك المعلم الذي كان من المدينة حتى غدونا كعائلة واحدة كعائلة واحدة في تلك القرية النائية .

كانت الحياة هناك غاية في البساطة واستطعت أن أعيشها ثلاثة شهور متواصلة دون رؤية المدينة ، حتى جاء أحد أخوة زوجي ليخبرني أن أبي أصيب بحالة تسمم وأنه راقد في المشفى .

خفت أن أفقده قبل أن أراه مرة أخرى ، وركضت تاركة زوجي يهرول خلفي إلى أن وصلنا الطريق العام ، لم أهدأ حتى أوصلتني قدامي غرفة أبي في المشفى عند غروب الشمس .

ويا للصدفة ، لقد كانت ذات الغرفة التي قضت فيها أمي لحظاتها الأخيرة ، رأيت أبي ممددا على ذات السرير ، هرعتُ إليه وصورة أمي الميتة تقفز إلى وجهه ، شممتُ رائحة الموت من ثيابه ، عندما سمع صوتي فتح عينيه و تتم باسمي ، وغمرني بنظرات أبوية أعادتني طفلة، لكنها بعد لحظات جمدت في عينين ميتتين .

## الفصل الرابع



مساء برك بشري في ركنه المعتاد ، وبركتُ ذكرى جواره بينما استلقى  
نجم على ظهره في الكنبة يشاهدون برامج التلفزيون .  
بدت ذكرى تخفي معالم دهشتها وهي ترى غياب كأس النبيذ من  
الطريزة إلى جانب منفضة السجائر وطبق المكسرات لأول ليلة منذ أن  
تعرفت به .  
كان على النهر يحمل زجاجته ويشرب على الضفة ، وأحيانا يبتعد  
ليبرك على صخرة يشرب ويتأمل النهر المظلم من بعيد حتى ظهور  
الشفق ، حتى عندما يرغب في الصيد ليلا فإنه يحمل معه زجاجة إلى  
المركبة .

الليلة يكتفي بفنجان قهوة رغم وجود صندوق جديد من نبيذ معتق أحمر  
جلبه منذ يومين .  
أحست بأن نجم أيضا بدأ يتفقد الكأس وهو يمد نظراته إلى الطرييزة  
دهشا ، ورغم أنها اعتادت على المكسرات مساء مع شاي وقهوة  
لداومتها هذه العادة كل ليلة لتسامره وتظفر بمتعة الجلوس إليه ، فقد  
قمت شهيتها ولو لحبة فستق حلبي واحدة مع رشفة شاي ساخن وهي  
التي اشترت بنفسها كيسا من الفستق الني وحمّصته منذ ستة أيام ليكون  
مونة ليالي الشتاء الطويلة ، حتى نجم الذي اعتاد على وضع كمشة على  
طربيزته مع الشاي رأى أن يقمع شهيته هذه الليلة .  
عندما بلغت الساعة العاشرة والنصف قام نجم متجها إلى الحمام ومن ثم  
دخل غرفته وما لبث أن أطفأ نورها .  
لبثت ذكرى قابضة جوار زوجها وهي تعيش حالة استقرار وسكينة في  
زواجها فتهمس في سرها : إنه هدوء مابعد العاصفة .  
أطفأ بشري التلفاز وقال : لدي رغبة في السهر معك ومع صوتك الذي  
تسحرني نبراته ، لأريد لأي صوت غيره أن يأخذني في هذا الوقت الذي  
أشعر فيه بأنه ملكي . وهذا القلب ياذكرى مابه يمتلئ كل يوم بحبك يا  
بهيتي .

قالت : سأجلب لك كأسا من حليب ساخن حتى تستمتع به وتتذوق نكهته المسائية الطيبة .

غابت دقائق وعادت تضع في يده كأسا ساخنا من الحليب على طبق . قال وهو يرشف رشفة حليب : كأنني أدمنت حديثك الهادئ ، كأنني لن أرتوي ، سمعي هو الذي يلح علي بنبراتك . ثم همس وهو يمد يده لتستقر في ثنايا شعرها : اسمعيني يا صاحبة أجمل صوت نسائي في العالم ، قولي المزيد مما تعرفيه عن الدين وعن الرسول ، علميني مما علمك الله .

الدين ياسيدي هو أصل المعرفة وليس فرعا من فروعها ، كل علوم ومعارف العالم انبنت على قاعدة الدين ، حتى الملحد فإنه في ذروة إلحاده يتمتم في لحظات السكون : ولكن من أين أتى الإنسان !؟ .

القرآن يابشري الذي يضم بين قآبيه / ٦٢٣٦ / آية لهو كنز معرفي لا ينضب لبني الإنسان ، دوما يابشري أحمد الله لأنني تلقيتُ الدين بجهود وقرآاتي دون أن أتلقاه على أيدي الآخرين أو من خطب جمعة ، أو بواسطة شيخ ، تلقيته مباشرة من مصدره ، القرآن والسنة ، ولذلك أفهم الدين كما قرأته بنفسي وليس كما قرأه غيري وأملى علي فهمه .

هؤلاء منهم من يتقصد الإساءة إلى الدين ، ومنهم من من يسيء دون عمد ، ولكنهم في النهاية يعطون صورة سيئة عن هذا الدين ، فيصبحون حجة بأيدي من يهتهم إظهار هذه الصورة ، لأنهم يجعلون من أنفسهم ممثلين وحاملين لواء هذا الدين .

مشكلة الاسلام ليست في القرآن والسنة ، ولكنها في المسلمين أنفسهم . سأضرب لك مثلا يابشري ، فإذا حدث وأن أخطأت فتاة بالزنا فإنها على الأغلب ستدفع حياتها ثمنا لهذه الخطيئة ، سيقوم أقرب الناس إليها بتنفيذ هذه المهمة .

لكن نقاء الإنسان يميزه كعلامة واضحة ، النقاء الذي يبلغ بصاحبه درجة عليا يشم فيها رائحة الكذب من شخص كاذب ، ويشم فيها رائحة الصدق من شخص صادق .

رغم كل هذا فمازلنا نلتقي أنقياء في حياتنا وتنشر صدورنا برؤيتهم . ذات مرة نهض أحد الصحابة ليصلي الفجر إماما في الناس ورأى أنه إذا اغتسل في صقيع ذاك الصباح فإنه سيهلك نفسه ، فتيمم والماء بقربه ، فعلم النبي بأمره وقد صلى في الناس إماما دون اعتسال ، لأن حضور الماء يبطل مفعول التيمم .

فأجابه صاحبه بأن الله ينهى أن يهلك المرء نفسه ، وأنه لو اغتسل بذاك الماء البارد لأذى نفسه ، فلم يجد رسول الله سوى أن يبتسم .  
إنه محمد يابشري ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

لقد وصل نسله بصفاء منذ آدم ، وهو أينما حل وقع معه الخير .  
يمكن أن تقع على حديث له يقول فيه : ما افترق الناس عن فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي .

إنه الرجل الذي شاء الله أن يصطفيه من سلسلة البشرية ليكون خاتما للأنبياء ، وهو يقول في بعض حديث : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم .

يصفه صاحبه أبو هريرة : مارأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه .

ويصفه ابن عمه علي بن أبي طالب : لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .  
كان ياسيدي يشدد على الأخلاق كما لم يشدد على شيء لأن من تمتع بالأخلاق سيكون قد بلغ درجة سامية من النقاء الروحي ، وسيكون بعيدا عن الغدر والخيانة والنفاق ، وكان يحسم قوله في هذا الأمر قائلا ليس لأصحابه فحسب ، بل لكل شخص يولد من بعده على مدى الزمن : إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون • ماشيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء •

من علامات حسن الخلق ياسيدي أن يكون المرء كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوق اللسان ، برا وصولا وقورا ، صبورا شكورا ، راضيا حليما رفيقا عفيفا ، لالعانا ولاسبابا ، ولانماما ولامغتوبا ، ولاعجولا ولاحقودا ، ولابخيلا ولا حسودا ، يحب في الله ويبغض في الله ، ويرضي في الله ويبغض في الله . كان خُلقه القرآن ، وكم تمنيت فيما لو حظيت ولادتي في زمنه ، لما ترددت إنداك لحظة ولا تركت فرصة للسعي إليه لأكون حليلته ، وعندها أتخيل أنني ممن شملهن خطاب الله : / يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن

بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً ، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسول إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا / .

إنه يابشري الرجل الذي لا يُنقص من شأنه ، أولئك الذين يظنون ذلك عندما ينسبون إليه القرآن ، في الواقع فهذا علو من شأنه لأن القرآن هو معجزة بكل المقاييس ، ونسبه إلى شخص ليس انتقاصا له بقدر ما هو تعظيم لشأنه ، وليس من شاهد على أن القرآن من الله غير هذا الرسول الذي هو لوحده يحمل الحقيقة ، ولو نسبه إلى شخصه أو إلى أي كائن غيره لما وجد الناس شاهدا يقول بغير ذلك ، ولو رغب في أن يبقى اسمه خالدا في الدنيا لكفاه القرآن بذلك . فهو يقول بأنه رسول الله ، وهذه ليست مفاجأة ، فهو رسول يكمل سلسلة رسولية عبر الزمن . كنت دوما أقول بأنه لا يوجه لنفسه عتابا مثل : / عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما مَنْ استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى / • ولكنه يسمع كلام الله فيقول للرجل الأعمى عبد الله بن أم مكتوم : مرحبا بمن عاتبني به ربي .

ولم يكن يغامر ليقول بأن أبا لهب وزوجته لن يدخلوا الإسلام ، لأنه لا يدري إن كانا سيدخلاه أم لا حتى من باب التحدي لبطلان قوله ، وكان يمكن لهما أن يعلننا إسلامهما نفاقا لأن باب الإسلام لم ينغلق أمام أحد وقد دخله من كانوا كفارا ومشركين .  
ثقافة القرآن تسمو بك بدرجة أعلى من ثقافة أخرى : / خذ من القرآن ماشئت لما شئت / .

انظر يابشري وحتى أبقى ضمن حديث القرآن - لا أعرف لماذا وقعت كلمة /انظر / على لساني - : إذا خالف شخص شخصا في الرأي قد يأتي الثاني خاصة إذا كان صاحب نفوذ فيؤذيه ، ولكن الله بقوته المطلقة يتسامح مع مَنْ يخالفه ويمنحه الفرص حتى يهتدي ويكف عن أذى الآخرين .

لعل فرعون ياسيدي مثال في هذا فقد قال الله بأنه / طغى / وعندما يصفه الله بهذا الوصف في قرآن يُتلى ويُتعبد به خمس مرات كل يوم في الصلاة ، فإن هذا الرجل يكون قد / طغى / بالمعنى الذي يعنيه الله والذي هو أعلم بسعة هذا الطغيان ، فهو يبلغ مرحلة يقول فيها : / يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري / .



عندما يطغى الإنسان بحق نفسه وضمن دائرة شخصه فهذه مشكلته ، أما إذا مس الأمر عامة الناس وظلمهم وإحاق الويلات بهم فإن الله يتدخل لإنقاذ عباده من أخ طغى على اخوانه .  
فكان التدخل أن أرسل إليه رسولين وقد أو صاهما أن يكونان لينين في حديثهما معه : / اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى / .

مهما بلغ الإنسان من نفوذ في الأرض فإنه في النهاية واهن أمام قوة الله المطلقة ، ولكن الله يريد للإنسان أن يصلح بالكلمة الطيبة والقول اللين، وهو يتسامح ويعفو عما قد سلف إذا آب إلى ربه .

لقد علمت بأن الله ليس بحاجة لأن يصلي إنسان له تحت السيف ، ولذلك كان الخطاب لآخر رسول : / ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين / .

كانت رسالة بيانية حتى لا يحمل محمد سيفاً ليقود الناس به إلى المساجد كأنه يقود الغنم المطيرة في الليلة الشتائية ، عندما بلغ من القوة والنفوذ ما بلغ .

يريد الله أن تذهب إليه راغبا في أن تذهب إليه ، لأن العبادة تعني الخشوع ، وهذا الخشوع لا يتحقق إلا وأنت قنوع ومستقر في إيمانك .

فمثلا عندما يقول المصلي : / السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته / ويتذكر بأن الملائكة سلموا على النبي ليلة الإسراء فأجاب عليهم وهو يتذكر أمته : / السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين / عندما اكتفى الملائكة بسلامه ، أدخل معه الصالحين إلى رحاب السلام .

هنا عندما أتذكر مثل هذه الوقائع سوف أعيش حالة الخشوع في رحاب الصلاة ، سأذهب إلى الصلاة وأنا أعيش كل دلالات قولي : / السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين / . سأعيش حالة الحوار ، وهذا سوف يزيدني خشوعا وتضرعا في صلاتي لأنني أقرأ بتدبر وهدوء وسكينة ، وإلا فما الفارق بيني وبين آلة تسجيل تردد هذا الكلام على مسمعي وأنا أنفذ حركات الصلاة حتى أبلغ مرحلة تتحول فيها صلاتي فقط إلى حركات رياضية ثقيلة على قلبي .

ذات مرة رأى النبي رجلا يصلي وهو يعبث بوجهه فقال : / لو خشع قلب هذا الرجل خشعت جوارحه / .

التوجيه هو للخشوع في العبادة حتى لو كان العابد مغمض العينين يجلس في ظلمة لأن أي فعل عبادة يخلو من الخشوع سيكون مثل أي جسد خلا منه الروح .

فانظر إلى النبي وهو يتأمل رجلا يؤدي الصلاة ، ولما يفرغ يقول له :  
أعد صلاتك فانك لم تصل • فيعيد الرجل صلاته ممتثلا لقول النبي ،  
وعندما يفرغ ، يعيد عليه النبي قول السابق ، فيعود الرجل للامتثال ،  
ولما يفرغ ، يعيد إليه النبي ذات التوجيه ، ولما فرغ وقد لبث فيما هو فيه

شرع النبي يعلمه كيف يكون المصلي مصليا وكيف يكون المصلي غير  
مصلي فالمصلي الذي يقدم الصلاة بخشوع وتدبر وقد ولج إلى تفاصيل  
حالة الصلاة وهو يعيش كل كلمة يقولها ، عندئذ تصعد إلى الله ببركة  
وتقول لمصليها : حفظك الله كما حفظتني .

بينما صلاة الغافل المتكاسل المتناقل الذي يصلي بدون رغبة ، أو لأقل  
بقلب لامحبة فيه ، فإنها تأبى أن ترتفع إلى الله ، وتنفذ في وجه  
مصليها فتقول له : أضاعك الله كما أضعتني .

الصلاة هي حالة تامة من طقوس الطمأنينة بين يدي رب رحمن رحيم  
، ولم تكن في يوم عبارة عن حركات معتادة ، وهذه الحركات ليست  
شرطا للصلاة إن كانت متناقلة أو تعجيزية ، فيمكن في وضع صحي ما  
أن يقدم المرء صلاة خاشعة مكملة لربه وهو في الفراش مستلقيا على  
ظهره .

إن في الله من الطيب والجمال مما لا يستقبل الذاهب إليه بدون طيب وجمال ورغبة كبرى في الذهاب ، ولذلك فنحن نتطهر ونغسل ملابسنا ونتطيب ونتخذ ما ننفقه قربات عند الله ليستقبل صلاتنا وتسكن جواره ، ثم نسكن إلى تلك الجوار المباركة في وقت يشاءه الله .  
قال بشري : والذي لا يصلي ؟ .

أدرت ذكرى بأنه يعني نفسه ، فصمتت طويلا ، وعادت تقول بذات الهدوء : / يروي الإمام أحمد عن نبينا : / خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، من أتى بهن بتمامهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، إن شاء عذبه ، وإن شاء أدخله الجنة .

بالنسبة للصلاة فإن الله فرضها على المسلمين ليلة الإسراء خمسين صلاة في اليوم ، ولكننا ندين لموسى الذي رأى نبينا عائدا يحمل هذه الصلوات لأمته ، فسأله عما أتى به من عند ربه ، فقال بأنه جلب معه خمسين صلاة فرضها ربه على أمته في اليوم .

قال له موسى أن يعود إليه ليخففها لأن الناس سوف يتكاسلون .  
فصدق كلامه وعاد إلى ربه يسأله التخفيف ، فاستجاب له ، وعاد يحمل الصلوات إلى أمته فرآه موسى مرة أخرى عائدا ، فسأله مرة أخرى عما حدث معه ، فقال بأن الله استجاب وأخفص الصلوات ،

لكن موسى قال أن يعود مرة أخرى إلى ربه ليخفف أكثر ، فعاد إلى ربه يسأله أن يخفف كذلك خوفاً منه على أمته بأن تتكاسل في آدائها ، فاستجاب له ربه ، وعاد فرحاً يحمل الصلوات المخففة مرتين ليبشربها أمته ، ولكنه رأى موسى للمرة الثالثة وهو بطريق عودته فسأله أيضاً عما حدث معه ، فقال بأن ربه استجاب له وأخفف الصلوات رحمة بأمته ، ثم قال له موسى بأن يعود مرة أخرى فيسأله التخفيض ، ولبت بين ربه وبين موسى إلى أن بلغ التخفيض إلى خمس صلوات . عندها اقترح إليه موسى أن يعود كذلك إلى ربه ويسأله أن يخفف لأن الناس قد يتكاسلون عن الصلاة خمس مرات في اليوم ، فقال بأنه يستحي أن يعود إلى سؤال التخفيض مرة أخرى . وعاد إلى أمته حاملاً هذه الصلوات . وما هو مهم هنا أن الله الذي كان قد فرض خمسين صلاة على المسلمين أبقى على أجرها كاملة ، فالصلوات الخمس تجزى بخمسين صلاة . هذا يقربنا من محبة الله أكثر ويجعلنا نتعلم منه الاستجابة للأسئلة حتى لو كنا قررنا أمراً رأيناه ، فدوماً يبقى باب التخفيف والتسامح مفتوحاً ، فالله لم يرد نبيه بعد أن قرر أمراً رآه بحكمته ، فاستجاب لسؤال الإنسان وأخفف ما كان قرره استجابة لسؤال الإنسان الذي يحب .

ثم بدأ جبريل يعلمه كيف تؤدي الصلاة ، وكانت صلاة الظهر هي أول صلاة صلاحها النبي .

بالنسبة لموسى فهو كان على معرفة مسبقة بقوة عفو الله وتسامحه واستجابته لأسئلة الناس سواء كانوا أنبياء أو غير أنبياء ، وكان قد مر بتجارب عملية عديدة مع ربه ، فعندما أمره ربه أن يذهب إلى فرعون كما ذكرت لك قبل الآن وكان خطاب الله واضحا وموجها إلى شخصه بقوله : / اذهب إلى فرعون إنه طغى / . قال موسى : / رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري / . فاستجاب له ربه قائلا : / قد أوتيت سؤلك يا موسى / . - والله المثل الأعلى - لأدري لماذا أتذكر أمام هذا قول أبي لي بأنه كان قد قال لابن أخيه أنني سوف أكون زوجته ، ولأنه قال كلمة فلا بد أن تحدث ولو بالقوة ، وحتى لو أنه ما عاد مقتنعا بفكرة زواجي منه فعلى هذا الزواج أن يتم فقط لتنفيذ كلمته .

علينا دوما أن نتعلم من الله قبل أن نتعلم من آبائنا وأمهاتنا وأساتذتنا . بعد أن نكون فقها شينا من علم الله سوف يكون كل شيء على مايرام لأننا سوف نتحرك بقوة الله ، ونواجه المصائب بقوة الله ، ونحتمل الآلام

بقوة الله ، سيكون كل شيء مرتبطا بالله الذي هو / العدل / والذي يتدخل ليتحقق العدل .

مرة تقدم أحد أقرباء صديقتي خورشيدة ليطلب فتاة كان قد أحبها منذ سنة ، ولكنه فوجئ بأبيها يرفض طلبه ، فذهب إليه ليعرف منه السبب . قال الأب بأنه سمع عنه أخبارا سيئة من بعض المقربين له ، وكذلك فهو ليس مرتاحا لأمر هذا الزواج .

عرف الرجل هؤلاء الذين تسببوا في هذه المشكلة وكانوا أهل سوء وسوابق عديدة بسلبياتهم في المجتمع .

في ذلك الحين كنت ألتقي قريب خورشيدة في بيتها أحيانا ، كان شخصا نقيًا ، مؤمنا بالله ، يصر ألا تخرج من فيه كلمة غير صادقة ، وكان أمينا نقيًا ، كانت لديه رغبة قوية لينتقم من أولئك الذين نقلوا عنه صورة سلبية لأبيها ، حتى أصابه اليأس ففكر بالهجرة ، ولم يتمكن من ذلك بسبب أوضاعه المالية التي كانت بالغة السوء .

كانت خورشيدة تقول لي بأنه يعيش بدون أمل ، وأن حبيبته كانت هي الحياة كلها ، فلمن سيعمل ويكافح ويبتسم ، كل شيء غدا مظلمًا أمامه . وعنداك تدخلت خورشيدة بنفسها وذهبت إلى الفتاة تعرض عليها فكرة أن تواجه والدها . قالت خورشيدة لها : إن كنت تريدين الزواج بنافع ، اضربي عن الطعام ، وإن لم ينفع ذلك تناولي بعض الأدوية ليسعفوك إلى

المشفى ، وإن لم ينفذ ذلك سألني عليه أخوته وأقرباءه ، وإن لم ينفذ ذلك قولي بأنك ستهريين معه وأنت مستعدة لأي عواقب ، وإن لم يلن ، لا يكون أبا .

عندها قولي له بأن الذي لا يكون أبا معي ، لن أكون ابنة له ، وخذي شاهدين من المتعاطفين معك إلى القاضي الشرعي وقولي بأنك بالغة راشدة ترغيبين الزواج من هذا الرجل البالغ الراشد ، وعودي معه إلى بيته ، وليفعل ما يريد هذا اللا أب .

كان جوابها لخورشيدة أنها لن تفعل شيئا مما ذكرت ، ولكنها تحب نافعا ومتعلقة به ولا تتصور زواجا غيره .

انفعلت خورشيدة عليها وقالت : أنت منافقة ولا أستطيع أن أمضي لحظة أخرى معك. بعد شهرين من ذلك ، سمعنا بأنها تزوجت من رجل في الخامسة والستين على ضرة ، فقالت خورشيدة : هذا هو مكانها .

لكن لم يدم ذلك فقد فوجئنا بأنها هربت مع ابن خال زوجها وهي على ذمتها إلى مكان مجهول ، وبعد شهرين تركها الرجل الثاني لتعود إلى أبيها مطلقة .

للتوا ابتسم نافع وذهب إلى أولئك الذين كانوا قد تسببوا لمنع زواجه منها وهو يشكرهم ويقدم لهم الهدايا ، وصار يندم على كل كلمة بذينة كان قد



وجهها إليهم ولأبيها ويقول : كانوا يسعون لإنقاذي وأنا أشتمهم ، عليّ الآن أن أقدم اعتذاري وما أستطيع من هدايا •  
وعندما سألوه عن سبب تودده إليهم قال نافع لهم الحقيقة وكيف أنهم أنفقوه من كارثة نفسية واجتماعية كانت ستقع عليه .  
كان في السابق كلما يتذكروهم يتصاعد الدم إلى وجهه ، أما الآن كلما يتذكروهم ينشرح صدره •

هذه الحادثة وقعت في بالي وأنا كنت أتحدث عن التخفيف والتسامح والعفو عند المقدرة ، أريد ألا أخرج عن حديث الدين فأقول لك بأن الله ينزل أمرا ، وبعد ذلك ينسخ هذا الأمر بأمر آخر ، و النبي أيضا تعلم من ربه هذا التخفيف والاستجابة لسؤال الناس ، وعدم التشدد بقول قاله ، فقد سبق له أن منع الناس من زيارة المقابر ، لكن فيما بعد أباح لهم ذلك قائلا : / كنت قد نهيتكم عن زيارة المقابر ألا فزوروها / •

إن الله دوما يعلمه كيف يبسر للناس ويتشاور معهم فيوجهه : / ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر / • ويخاطبه : / إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا / • ومنه يتوجه إلى عباده داعيا إياهم أن يستقبلوا الرسول فيهم : / لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم / • هناك أمر آخر غاية في

الأهمية وهو أن الإنسان مهما كان موقعه فهو يجهل موقعه عند الله ، حتى عندما استشهد أحد الصحابة وقالت زوجته بأنه سيدخل الجنة قال لها النبي : وما أدراك !؟ •

ثم أوضح لها بأنه الذي ختم النبوة ورسالات الله لا يقول بأنه سيدخل الجنة وأن أعماله لوحدها لا تمكنه من دخول الجنة لولا رحمة الله • وهذا سؤال هام يمكن نسأله لأولئك الذين يظنون بأنهم يوزعون جوازات دخول إلى الجنة لبعض شبان يجعلون من أنفسهم قنابل بشرية يهلكون بها الممتلكات والأرواح في أماكن أهلة بعباد الله الأبرياء : / وما أدراك !؟ !

• ذلك أن الله تبارك وتعالى يُدخل من عباده الجنة دون حساب • فهو لاء لا يُسألون ولا يُحاسَبون ولا يَنتَمون إلى عصر بذاته ولا إلى مكان دون غيره ، إنهم من كل العصور ومن كل الأماكن يحملون براءة من الله •

لا ينتزع الرحمن العبادة من عباده انتزاعاً ، ولكن على مخلوق الله أن يقدم الطاعات خاشعاً متوسلاً عسى خالقه أن يكرمه بتقبل هذه الطاعات ، وهذا فضل آخر للخالق على المخلوق ، فضل تقبل الطاعة والعبادة منه •

إننا ياسيدي بحاجة إلى الله ليَتَقَبَل منا عباداتنا برحمته ، فهل أستحق أن يتقبل ربي هذه العبادة مني فأرتقي إلى نعمة التواصل الكبرى هذه • ليس لنا إلا الله ، فإذا كان هو معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك • عادت ذكرى إلى الصمت برهة والدمع فائض في عينيها ، ثم أردفت كأنها تصلي : إننا بحاجة إلى أن يرحمنا ربنا ، ألا نرحم أنفسنا ، ألا نتراحم فيما بيننا • ثمة حديث للنبي يشرح فيه : / إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج ، ويكفرها الهم في طلب العين / • كما يمكن لساعة واحدة في العمر أن تمر عليك في موقف فتكون خيرا من سبعين سنة عبادة ، يتواصل النبي في المزيد من إضاءة هذه الجوانب وهو يبين للناس أبواب العبادات التي تفوق الصلاة والصيام والحج فيقول : / عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلاً وصيام ونهارها /

منذ ثلاث سنوات مات أحد أقربائي وترك وصية لأبنائه يوصيهم فيها أن ينفقوا مائة كيس حنطة على الفقراء والمساكين قبل أن يتقاسموا التركة فيما بينهم ، وأذكر بأنها كانت ألف دونم من الأراضي الزراعية المروية ، وكانوا ثلاثة أولاد وأربع بنات .

بعد أسبوعين أرغموا أخواتهم للتنازل عن حقوقهن الشرعي والقانوني لأن البنت عار عليها وعلى أهلها أن ترث وتقتسم أملاك أبيها لتوزعها على الغرباء ، أو تجعل الغرباء شركاء في إرث والدها .  
وكانوا يعنون بالغرباء أولادهم . ومن بين هؤلاء عُرف عن أخيهم الأصغر علي ميله إلى الجامع وقد أطلق ذقنه ، وهو دائم الحديث عن الحلال والحرام ودائم تكرر : استغفر الله ، الحمد لله .

حتى أنه مرة لم يتردد من تحطيم جهاز التلفاز في البيت لأنه توصل إلى اجتهاد شخصي بأن وجوده في البيت كوجود شيطان وأن هذا البيت بوجود الجهاز لا يُقبل فيه صلاة ولا أي عبادة أخرى .

ثم لم يتردد في اجتهاد آخر من تحطيم جهاز الهاتف لأن أخته / خنسا / - أظنها خنسا ، أو بسنا - ردت وكان المتحدث رجلا ، فقال علي بأن الشيطان يسكن الهاتف فيوصل صوت المرأة / العورة / إلى رجل أجنبي وهذه من كبرى علامات قيام الساعة وقد تسلطت الشياطين على كل شيء .

خنسا هذه ، أو لعلها بسنا لجأت لعلي قائلة له : يا علي ، هذا الحق أعطاني إياه الرب ، أنت متدين ، تفهم في الدين لذلك لجأت إليك ، هذا مالي وحقي الذي تركه لي أبي ، وهو لم يتركه برضاه ، بل بأمر من ربه

الذي أمره كما أمره أن يصلي ويخرج الزكاة ، فلماذا تقفون في طريق تنفيذ أمر ربكم هذا •

فقال لها علي : يا أختي تسببين لنا مشاكل لاتحمد عقباها بتفكيرك الخاطئ هذا ، الأرض مثل العرض ما يصير التقريط فيها ، لقد رأى الله أمرا وواقعا الاجتماعي يرى أمرا مخالفا •

وعندما عجزت عن اقناعه ، رأت أن تتمرد عليه وتقول ما في نفسها : بس هذه يا علي أملاك الله وهو حر في قسمتها بين الولد والبنت ، يعني أنت مانك عارف أكثر منه •

فاستفز علي وقال : اعطني السجادة حتى أصلي وأستغفر لك خطأك بحقي ، باين الحكي مع النسوان مثل الحكي مع الحيطان •

ووقع الأخوة الثلاثة في حيرة وأصابتهم حمى من هذه الوصية الغريبة ، فمئة جوال حنطة تساوي مبلغا كبيرا .

بعد يومين آخرين أخبر علي إمام ومؤذن الجامع / ملا خليل / بأمر الوصية فمشى معه والحديث يسخن في كيفية إيجاد مخرج ديني من هذه الوصية إلى أن وصلا بيت علي ، عندها دعاه إلى الغداء فلم يتردد الملا من تلبية الدعوة • بعد الغداء وشرب الشاي قال له علي : ياملا أنت أبو المخارج الفتوية • ورمى بذلك إلى اللقب الذي عُرف به الملا ، فهو منذ مدة اجتهد بفتيا للبقال / أبو يحيى / عندما جاءه زبون يطلب ألف ليرة

قرضة حسنة ، وكان الملا متواجدا في البقالية يشرب الشاي مصادفة مع  
أبي يحيى •  
يومها قال البقال للزبون : يا عمّي أنا ماني فاتح مصرف تسليف شعبي ،  
أنا زلّمة سمان ، إذا بدك سمانة أبيّك حتى أربح ، بس مصاري ، حد  
الله بيني وبين الربا .  
فتدخل ملا خليل قائلا للزبون : امتى بدك ترجع المصاري يا أخ ؟  
قال الزبون : بعد شهرين •  
صوّب الملا حديثه إلى أبي يحيى قائلا : يعني إيش تقدّر مربحك من  
ألف ليرة في بيع السمانة لشهرين ؟  
مد أبو يحيى يده إلى دفتر الحسابات وبدأ يحسب ثم قال : حوالي خمسمئة  
ليرة •  
قال الملا : الدين يُسر يا أخوة ، الدين مو عسر ، لاتعسروا باسم الدين ،  
يسّروا باسمه فهذا أقرب للتقوى ، إي هلا بتتحل مشكلة الرجل المتأزم  
باسم الدين •  
فقال أبو يحيى دهشا : شلون تنحل يا ملا ؟! .  
قال : الزبون يشتري منك بضاعة بألف وخمسمئة ليرة ، وأنت تسجل  
المبلغ عليه في دفترك ، بعدين يطلع مع بضاعته من الدكان ، ويرجع

يعرضها للبيع أمامنا ، وتعطيه سعرك ، ويعطيك سعره وأنا أتدخل لأحسم الأمر بألف ليرة ، ويبيع الرجل بضاعته لك بألف ليرة • منذ ذلك اليوم انتشرت هذه الفتوة في الناس فتحول السمان إلى مرابي وصار يستغل ذوي الحاجات في حاجاتهم ، وبين فترة وأخرى لا ينسى نصيب الملا الذي يسانده في عمل التيسير هذا ويضفي عليه مباركة إلهية •

فهل نقول بأن الملا يمثل كل ذلك الإرث الفقهي والديني ويمثل كلمة الله ، ثم نقول بأن الدين هو الذي يبيح للناس أن يستغلوا بعضهم بعضا • ولكن الله سد الطريق أمام تصديقتنا وهو يقول عندما نقرأ كلمة رسوله : /لاتبع ما لا تملك / •

شرد الملا بمخرج من هذه الوصية وأصبح يقلب كفيه ، بعدها نهض واقفا وغدا يحدث نفسه ويجوب الغرفة جيئة وذهابا ، والأخوة الثلاثة وقفوا على أقدامهم ينتظرون إصدار الفرج على قلق وكأن الريح تحتهم دون أن ينبتوا ببنت شفة كي لا يشوشوا على الملا أفكاره وبذات الوقت أنظارهم مثبتة عليه بذهول وكأنه يعمل في إبطال مفعول قنبلة موقوتة على وشيك الانفجار .

وبغثة دون أي تمهيد وقد انتفض من ذروة شروده صدح صوته : أبشركم يا أولادي ، فقد وجد الله لضيقكم مخرجا •

فرح الأخوة بهذه البشارة ، وهبّ علي يقبل يدي الملا ، فقال : الوقت ضيق يا أولادي ، أطلب إليكم جوال حنطة وزنجير ا .  
تعلّقوا جوال الحنطة بواسطة الزنجير في سقف الغرفة ، وأنا بدي أطلع وأرجع يعد أقل من ساعة .

لم يتردد زبير الأخ البكر بخلع المروحة من موضعها في السقف ، وفي فترة لم تستغرق ساعة كان الجوال معلقا من رقبتة وسط الغرفة .  
لا أعرف لماذا جاءتني كلمة / رقبتة / هل للجوال رقبة يابشري ؟  
فخرج بشري من استغراقه وابتسم : كل شيء في عرف هؤلاء يمكن أن يكون له رقبة .

اكملني ياذكرى أنا مستغرق في الاستماع ، لاتقطعي الحديث . فابتسمت ذكرى وقد عادت إلى أحداثها التي ترويتها بخفوت على مسمعه : دخل ملا خليل ..

ثم قطعت حديثها مرة أخرى قائلة : ألا تشتهي فنجان قهوة يا بشري .  
وقبل أن يجيب نهضت وغابت نحو عشر دقائق ، وعادت حاملة فنجان قهوة وهي تطلب من بشري لأول مرة منذ تعارفهما سيجارة .  
اندهش بشري لهذا الأمر وغدا يتأمل منظر السيجارة بين أناملها ، ومنظر نفثها للدخان ، ولم يمسك دهشته فتمتم : لو علمت أن السيجارة تليق بك بهذه الدرجة لطلبت منك كثيرا أن تدخني سيجارة ، فقط لأتأمل



هذا المنظر الجمالي ، دوما أنجذب إلى لمسات التمرد في المرأة ، هل قلت / تمرد / - هذه تعلمتها منك - أعني لمسات الإنفتاح والغنى والتنوع ، دوما كنت أرتعب من المرأة المنطوية على نفسها في بيت مغلق ، المرأة المظلمة ، وبهيرة أثبتت لدي هذا الرعب وقد أخذت معها كل تلك الظلامية والإنغلاقية .

فقلت ذكرى وهي تعب السجارة : هي مرات نادرة التي دخنت فيها ، خطرت لي السجارة وأظنني اتمتع بها وأنا في حضنك وأتحدث معك عن هذا الواقع الذي نعيش فيه بكل مرارة سلبياته .

أحضر معه رجلين وهو يدخل دون أن يطرق الباب وقال بعجالة : وقتنا ضيق يا جماعة ، أرجوكم العجلة .. العجلة .

وشرح يشرح ويوزع الأدوار كمخرج سينمائي على ممثليه . ثم وقف الملا إلى جانب الرجلين ، ووقف الأخوة الثلاثة ينتظرون تعليماته ، وجوال الحنطة معلق من رقبتة في الوسط منهم .

عندئذ أعاز ملا خليل إلى الأخ البكر بأن يتقدم فيدفع الجوال إليه قائلا : هذا الجوال أخرجه على روح والدي تنفيذاً لوصيته . ففعل الرجل ذلك ليستقبل ملا خليل الجوال المدفوع إليه قائلا : قبلته من على روح المرحوم ، ثم بعد لحظات أعاده مدفوعاً إليه : أعطيك حقي هذا على سبيل الهبة محبة في الله .

فاستلمه زبير من الملا ليدفعه صوب الرجل الثاني قائلاً ذات العبارة ، ليتلقاه الرجل قائلاً : قبلته على روح المرحوم • يبقيه للحظات بين كفيه ويدفعه إلى زبير مردداً قول الملا ، ليستقبله زبير ويدفع به صوب الرجل الثالث ، فيستقبله الثالث وهو يقوم بما قام به زميلاه ، وقد لزم الأخان الآخرين الصمت في ذهول المشهد • بذلك أشار الملا إليهم بالوقوف وهو يُعلم الأخوة بأنهم الآن قد أخرجوا ثلاثة جوانات حنطة من الأكياس المئة •

ثم أعاز إلى زبير ليعيد الكرة وفق ذات الترتيب وذات الكلام حتى يبلغ العدد المئة ، وأعاز لعلّي أن يحضر قلما ودفترا ليكتب العدد خشية أن ينقص جوال ، فهذا مال الله وعليه أن يخرج كاملاً بدون نقص ، وحرصاً على هذا المال فقد قال بأنه سيخرج جوالين زيادة ليكمل أي نقص حدث سهواً .

وكانت النسوة من الخارج يتلصصن من خلف النافذة على المشهد الذي راق لهن ويبتسمن بخفوت وكأنهن يتفرجن على مسرحية • انفجر بشري ضحكا وبدا أنه لم يعد قادراً على التمسك بضحكه ، فشاركته ذكرى ذات الضحك ما يقارب ربع ساعة متواصلة حتى خرج نجم على قهقهاتهما ، ولما سألهما عما حدث ، لم يدعهما الضحك المجلجل من الجواب عليه ، فضحك هو الآخر قليلاً وعاد إلى غرفة

نومه : عندما بلغ العد خمسين جوالا ، استراحوا بايعاز من ملا خليل شربوا الشاي ودخنوا ، ثم أكملوا عملهم في إعطاء ما لله الله إلى أن تم العدد وزيادة •

وقبل أن ينصرفوا صلى فيهم ملا خليل إماما صلاة العصر من ذلك اليوم المشهود ، واتجهوا إلى البيكاب الذي كان ينتظرهم أمام الباب وهو يحمل عشرة أكياس حنطة ، ركب ملا خليل إلى جانب زيير وجلس الرجلان على الأكياس إلى أن أوصل كل رجل إلى بيته وعلى ظهره جوال حنطة ، ثم عرج ليوصل ملا خليل إلى بيته مع ثمانية أكياس •

الطامة يابشري ليست في هذه الخديعة ، ولكنهم يريدون منا أن نصدق هذه الخديعة على أنها صواب ونباركها لهم في الوقت الذي هم أنفسهم لا يصدقون هذا ولا يقبلوه فيما لو كانوا أصحاب الإستحقاق • وكذلك فحتى لو باركناها لهم سوف نكون حمقى بأنظارهم وأنهم استطاعوا أن يمرروا علينا هذه الخديعة •

المشكلة أن أي تعامل مع هؤلاء يبعثنا عنهم •

كان يوجد شاب بجوارنا - الآن هو في الخارج - ذات مرة وجه انتقادات لتصرفات ملا خليل في خيمة عزاء • فسأله خليل إن كان يصلي ؟ فأجاب الشاب بأنه توقف منذ مدة عن الصلاة •

عندئذ لم يتردد ملا خليل من إصدار فتوى بقتله لأنه لا يقيم عماد الدين ، وهو شخص مرتد و مَنْ يقتله سيكون قد تقرب من الله بعبادة كبرى ، وقال بأن الأمر لو كان بيده لباشر في هذه العبادة للحال ، ثم أنه يُرمى في العراء ويُحرم عليه حتى الدفن في مقبرة فيه أموات المسلمين .

هذا الكلام كان يمكن أن يدفع أي أحق مستغن عن حياته ليقوم بهذه / العبادة الكبرى / فسمعنا بأن هذا الشاب المسكين قد هاجر إلى الخارج هرباً من تصرف طائش بعد أن علم بأن ملا خليل يحظر الناس منه وحتى من عدم مباشرته بالسلام ، وعدم الرد على سلامه ، وعندما قال أحد جواره بأنه كل يوم يمر بجانبه مرات عديدة وينحرج من عدم رد السلام عليه ، فرخص له الملا بأن يجيب فقط ب : / عليكم / . ولا يجيب : السلام ورحمة الله وبركاته • لأنه لا يستحق سلام الله ولا رحمته ولا بركاته : قل له : / عليكم / ولا تكمل • ولا شيء عليك •

هذه الأخبار دفعتني لأهتم بتفاصيل حياة هذا الرجل ، وجدنتني مدفوعة لأعرف كل شيء عنه ، فعلمت بأن زوجته كانت تصلي ، ولكنها بعد أن تزوجته بستة شهور تركت الصلاة ، وهو شخص موظف لدى دائرة الأوقاف يقبض راتباً لقاء أذانه ، وهو لا يؤدي هذه المهمة التي يقبض عليها ، بل قام بتسجيل صوت يؤذن على شريط مسجلة و وفي أوقات الأذان يرسل ابنه ليضع الشريط ، ويمكن أن يلتبس الأمر بعض الأحيان

على ابنه فتأتي نشرة أخبار أو تأتي أغنية من راديو المسجل ، أو يعرض المسجل شريط التسجيل فتسمع ما يمكن لك أن تتخيله من صوت •  
لكن الدين ساطع في سماء الإنسان وضميره ، أسطع من أن تحجبه غيوم •

إنهم لا يقرأون القرآن ، لا يعلمون الناسخ منه من المنسوخ ، لا يعلمون شيئاً عن أسباب النزول ، عن الآيات المكية من المدنية ، يفتون بآيات منسوخة ، لا يميزون بين المحكم والمتشابه ، لا يعلمون الحديث القدسي من النص القرآني ، لا يدركون الأحاديث الموضوعة من الضعيفة من المسندة من الحسنة من الصحيحة من المتواترة •

يتجرون على الفتيا وهم يجهلون فقه المذاهب ، منهم من يتمسك بقول مذهب وكأنه نص مقدس لإله آخر • هذه المذاهب التي أتى بها أبو حنيفة والشافعي وابن حنبل ومالك هي وجهات نظر بشرية يمكن لها أن تتحول في ذروتها إلى الفقه ويمكن أن نتجاهلها جملة وتفصيلاً بصوابها وأخطائها ، وأن ننسى هؤلاء ومذاهبهم ونقتلعهم من ديننا ، إلهنا هو إله واحد وكتابنا هو كتاب واحد وقبلتنا هي قبلة واحدة ، وما عدا ذلك فلسنا ملزَمين به •

مثل خليلنا لا يملك إلا أن يقول : هذا حلال ، وهذا حرام •

فيقول الله : / ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون / • هؤلاء أنفسهم كلما خلوا بمحارم الله انتهكوها • الفقه ليس موهبة ، إنه إبحار في القراءة ، كلما بحر الفقيه إزداد تفقها وسعة وتوحيدا • الفقه ليس موهبة ولا فطرة ، إنه سهر وتأمل وتفسير واجتهاد • القضية هي أعلى مما نظر خليلنا ، فيمكن لحديث متواتر أن يشغل الفقيه شهورا دون نوم فتتحول القراءة بالنسبة إليه إلى طعام وشراب وهواء ودفء وبرد • إنه تعامل غاية في الحساسية والاضطراب ، والفقيه الحق هو رجل استنارة يرث الأنبياء ، وإذا ركزت بعض حديث على خليلنا فذلك لأنه رأس الحربة وأنا أشهده كيف يدس السم في عسل الدين .

بعد صمت رغبت في أن تعلم شيئا لاتعلمه من زوجها وهو المحامي المطلع على أحوال الناس وأسرارهم فقالت : علمني يا بشري ما لا أعلمه عن واقع الناس ، ماذا علمتكم مهنتك أيها المحامي ، علم زوجتك ما لاتعلم ، زوجتك الشغوفة بمعرفة ما لاتعرف •

فقال بشري : مشكلة مهنتنا التي تؤلمني أن الذي يأتينا ، يأتي وهو يبكي ، ولا يأتينا من يضحك ، لا يضحك لأنه ضحك عليه كثيرا ، يأتينا عندما يفقد القدرة على تحمل من يضحك عليه •

أذكر مرة جاءني شخص يحمل حقيبة ، ولما فتحها برزت منه رزم نقود ، فمد يده إلى رزمة فإذا بورقتين من الأعلى وورقتين من الأسفل نقود حقيقية ، أما البقية ما هي غير أوراق بيضاء : انخرب بيتي يا أستاذ ، رحلت لأقبض قيمة محصول القطن وأنا فرحان ، الموظف سلمني النقود فوضعتها في الحقيبة بثقة ، في البيت اكتشفت ما هو أمامك .  
راجعت الموظف فابتسم بخبت وقال : غيرك كان أشطر يا حبيبي .  
وعندما أصررت بأنه احتال علي طلب الأمن الجنائي متهما إياي بالتهجم عليه ، توقفت يومين وخرجت بتعهد ألا أقرب المصرف .  
في اليوم التالي لجأت إلى زوج أخته الذي لي به سبق معرفة وذهبنا إليه في بيته ، هناك عرضت عليه مبلغا ليرد لي نقودي ، وعاهدته بأنني سوف أوارى الأمر وكأنه لم يكن . عندها نط إلى القرائن ووضع كفه عليه بأنه سلمني ما استلمه من إدارة المصرف . وقد أعلمها بالأمر فقالت له بأنها سلمته ما استلمت من المديرية العامة ، وكذلك قالت المديرية العامة بأنه لا يوجد خطأ عندها ، وأنها سلمت المصرف ما استلمته من المصدر .  
كان الرجل في حالة يرثى لها وطلب أن يوكلني لأحصل له حقه .  
أذكر بأن المبلغ كان يتجاوز مليوني أيرة ، لكن صارحته بأنني لا أستطيع أن أفعل لع شيئا في هذه القضية الضائعة لأنه لا يملك دليلا بأنه

لم يبدل النقود ، والمصرف ذاته قال لي بأن أي شخص يمكن له أن يأتي فيطلب مثل هذا الزبون ، فهل علينا أن نلبي طلبه ، وعندها سنفتح علينا بابا لاينغلق .

وحتى لو رغبتنا فلا أحد يسمح لنا بفتح هذا الباب للتمويل مرة أخرى .  
بعد شهرين من التردد وبقايا الأمل الذي كان يلاحقه جاءني إلى المكتب حاملا بيده الحقيبة فأكدت له صعوبة بأنني سأفشل في قضيته لو عملت بها ، لأنني يائس من استرداد الأموال إلا إذا صحا ضمير الفاعل وأتى جلسة يعيد إليه أمواله وهذه الصحوه لاتحتاج إلي . علا وجهه احتقان وسقط على أرض المكتب . مات ياذكرى أمامي على أرض مكتبي عندما فقد الأمل بالحصول على حقه الضائع . رأيت هذا الرجل بعيني ولا أنساه .

كل إنسان ياذكرى يقبع في داخله قاضيه ، تكمن محكمته في ذاته ، وفي ضميره يكون ميزان العدل ، لكن الإنسان ذاته يأتي فيغتيال قاضيه ، يحرق محكمته ، يحطم ميزان العدل ، ويطفىء نور الحق من ضميره .



## الفصل الخامس

اعتاد بشري على حديثها في الأماسي فينتظر حلول الليل لينعم بدفء صوتها ، ولا يخفي عليها بأنه بات يفضل وقت المساء على كل الأوقات ، ويفضل ألا يستقبل وألا يزور أحدا في وقت متعته هذا ، الوقت الذي بات يخصه ، وفي الصباح عندما ينهض ينتابه شوق إلى مساء جديد فيدرك أن ثمة مساء رائعكذلك هذا اليوم • وما أدهش ذكرى أنها تراه

لايطلب النبيذ في مثل هذا الوقت الذي يمتلئ فيه البيت برائحة النبيذ ويهب حتى للجوار .

قال بشري : ياذكرى ألا ترين أن الأبطال اختفوا من حياتنا .  
ابتسمت ذكرى بسمة ألم وقالت : قبل أي حديث يمكن لي أن أقول بأن البطولة ليست حلما من أحلام البشر ولا أسطورة راسخة في الخيال الجمعي للمجتمعات ، ولا هي مغامرة كبرى في أرض مجهولة .  
البطولة هي محاولة الإنسان في سعيه المتواصل لتحقيق الانسجام مع ذاته كإنسان ، والمسؤولية تجاه الآخرين بكونه أحدهم . البطولة ليست معجزة بشرية استثنائية ، ولكنها حالة طبيعية في مذهب إنسان طبيعي .  
كل إنسان هو بطل في أعماقه لأن كل إنسان يحمل لمسات إنسانية في جميع الأحوال ، ولكن النماذج هي التي تميل ميولات مختلفة ومتناقضة ، وأحيانا خارجة عن الأطر الإنسانية ، وفي هذا فإن البطولة هي حالة من الصفاء والسلم يعيشها البعض في مواجهة حالة الانهزام والاستسلام التي يعيشها جنود الصف المقابل . البطولة أن ترتقي في درجات سلم الإنسانية ، والانهزام أن تنحدر في تلك الدرجات .  
بشري ، الواقع يتزلزل بحالة الانهزامية التي تكاد تغدو شبه عامة في مختلف أعضاء المكان وفي معظم الشرائح والمستويات والأوساط والاتجاهات ، وليس هناك أسوأ من أن يموت العدل في ضمير الإنسان ،

عندذاك سيقوم الإنسان ببناء قصور للعدل غير عادلة ، وعندذاك سنرى الممارسات اللاعادلة تحدث داخل هذه القصور أكثر مما تحدث خارجها ويمكن لك أن ترى قاضيا غير عادل يزين بموازين العدل ، يزين دون عدل .

لكن المجتمع نفسه أيضا يعزز حالة اللاعدل السائدة ويشجع على أشكال الاستسلام والانهازامية وبالتالي يوجه الضربات الصاعقة إلى كل محاولة بطولية تصدر من أفراد .

سمعت بحالة حب عفيفة بين شاب وفتاة وهذا الشاب لعفته تقدم طالبا فتاته للزواج ، لكن شقيقها اعترض على هذا الزواج وطلب أموالا من الشاب ، وكان المبلغ تعجيزيا بمبرر أنه أخفى أخته ليتزوج بمهرها ، أو يبادلها بزوجة . بذل الشاب كل محاولاته بدون أن يجد جديد في موقف الأخ الذي ازداد حدة إلى أن هدد بقتلها معا لو تزوجا رغما عنه ، لبث الأمر سنة ونصف وافق خلالها الأب والأخوة والأقرباء ، ولكن الأخ بقي متمسكا بموقفه ، وفي ليلة هربت الفتاة مع حبيبها تاركة على فراشها نسخة من عقد زواجها الذي أثبتته في المحكمة الشرعية ورسالة تطلب من أهلها السماح لأنها الطريقة الوحيدة التي تجنبها العنوسة وكانت فيما أظن في الثانية والثلاثين من عمرها بينما كان الأخ في العشرين .

أحس هذا الأخ بتحدي الشاب له وإهانتته فأقسم ألا يعود إلى البيت حتى ينتقم منه لكبريائه ، بعد شهر من محاولات البحث اليائسة علم بأنهما هاجرا ، فراح يطلق الرصاص على ابن عم الشاب حتى أوداه قتيلا •  
لقد قام هذا البطل بفعل بطولي ولذلك تجند الجميع للتبرع له بالأموال لإخراجه من السجن ، وراح البعض يطلق اسمه على مولوده الجديد ويعلق صورته في بيته ، وبعض آخر أضفى هالة من القدسية على هذه الواقعة التاريخية فراح يقسم بيوم الانتقام ، ويقسم برأس البطل الغالي الذي رفع رأس العائلة وغسل العار الذي خلفته امرأة فيهم • علمت أن أحد اللصوص كان قد سجن ثلاث سنوات بسبب سطوه على بيت جاره ، تم استقباله لدى خروجه من السجن بذبح ثلاثة خواريف أمام قدميه على التهليل والزرغاريد لدى وصوله باب بيته • قيل لي أيضا من قبل أحد المقربين الذين شهدوا الواقعة أن أحد المساجين خرج من سجنه بعد عشرين سنة بسبب اغتصاب طفلة وقتلها ليرى مبلغا كبيرا بيديه من متبرعين كتعويض على ما لحقه من ضرر • أما النموذج الطازج الذي روته لي عزيزة منذ أسبوع هو أن أحد الأشخاص كان يلقي الإهمال من أقربائه الذين يعتبرونه معنوها، وكلما زار أحدا من هؤلاء يلقي الطرد • في الشهر الفائت لجأ إلى بعض أقربائه في إحدى القرى قائلا بأنه قتل رجلا • على الفور قام هؤلاء باستقباله وصار كل واحد يجره من يد

الآخر ليحتفي ببطولته ويسجل موقفا تاريخيا في حياة العائلة • رأى بطلنا نفسه في بيت مجهز بكل وسائل الراحة يتناول وجبات طعام لذيذة ويدخن سجائر مستوردة مع شاي وقهوة ومشاريب متنوعة ، وقد تبرع أربعة رجال بحراسته في نوب حراسة ليلا نهارا • بعد مرور عشرة أيام على نعيم صاحبنا تبرع أحد الذين أرادوا أن يسجلوا موقفا تاريخيا خالدا بتزويج هذا البطل ابنته على سبيل الهبة والتكريم • أحس بطلنا بأنه في جنة رضوان ولكن الذي أفسد عليه هذه الجنة هو والده الذي كان قد أبلغ عن فقدان ابنه ، وجاء يطلب المؤازرة من الأقرباء ليعينوه في البحث • عندذاك انكشف أمر صاحبنا فطرد من القرية كما يُطرد كلب بعد أن طُقت زوجته منه بالقوة ، طُرد لأنه لم يكن ذاك البطل الذي استقبلوه • قال بشري وقد انسجم في حديثها : لن أرتوي من حديثك الطيب ، سأطمع لأطلب منك أن تحثيني قليلا عن المحبة •

أحضرت ذكرى ابريقا من عصير الجزر وقالت وهي تناوله كأسا :  
أسئلة المحبة تولد كل يوم ، بالمحبة وحدها يمكن أن يعيش الإنسان لأنها الدافع الأقوى إلى الحياة ، ومتى ماماتت المحبة في أعماق الإنسان انطفأت شعلة الحيوية في حواسه • الذي لا يحب يفقد كل علاقة له بالحياة • يمكن أن يحقق الرجل في علاقته بالمرأة الديمومة والمتعة في أن معا فينتعش بمتعة الجماع معها في الوقت الذي يحقق الحفاظ على

استمرارية وخلود النوع البشري وهو يغرس نطاف الخلود البشري في قاع ذلك الحرث السرمدي الخصيب • وعلى هذا فأیما امرأة تنقذ في حزن بعلها فإن حواء تنقذ تلك اللحظات معها في حزن آدم • لذلك تتعالى النداءات الدينية : أفضل النساء ، أيسرهن مهورا • ومن استطاع منكم الباءة فليتزوج • إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه • يرتبط الجماع بالحب ارتباطا وثيقا ، وإذا خلا الجماع من الحب سيكون مثله مثل طعام طيب فقد نكهته • لذلك يقال للرجل أول مايقال في قرانه : هل تحبها ؟ في الوقت الذي تُسأل فيه المرأة ذات السؤال • لأن الحب هو عمود الزواج الفقري • يحتاج الإنسان إلى طاقة الحب للقيام بأي عمل ، فالعامل الذي يعمل بلا حب سيقدم نتاجا مخلخلا لاتفوح منه رائحة الحب • كذلك الإيمان مرتتهن بالحب ، فبدون محبة يكون إيمان المؤمن ناقصا • شخص يصوم بكراهية ، يصلي مكرها ، لايعبد الله ليتقرب منه ، بل ليتجنب عقابه ، إنه في النهاية لا يحب الله ولايريد لقاءه • عليك أن تقدم الطاعة إلى الله بجمالية وحب ، لأن الله لاينظر إليك على أنك كائن تؤدي فروضا مرغمة عليك إليه ، بل يحبك ، ويفرح بحبك • حبك له ليضفي جمالية على كل علاقة لك بالحياة لأن كل علاقة لك بالحياة هي بذات الوقت علاقة به ، فتتذوق جمالية العبادة ، جمالية التضرع في آخر الليل بين يديه المفتوحتين لضمك • كان بعض

الصحابة يتطيب شكلا ومضمونا لدى الصلاة ، ولدى دخوله المسجد فيفوح من مظهره الطيب ، ويفوح من حديثه ومن صوته الطيب ، يفوح الطيب حتى من نبضات قلبه فترى وجهه نورا بطيب حب الله ، وبحالة الصفاء التي بينه وبين الله ، وبينه وبين ذاته .

الله طيب ويحب أن يكون الإنسان طيبا ، وهو جميل ويحب أن يكون الإنسان جميلا ، وحالة العبادة تحقق ذروة الجمالية في الإنسان لدى الله ، العبادة التي تكون مبنية على الحب واليقين ، فخلوف فم الصائم هي عند الله أطيب من رائحة المسك لأنه يكون قد جاع عبادة لله .

ليس الجوع لعدم وجود طعام ، بل هو الجوع والطعام بين يديه ، رغم أنهما يتساويان في حالة الجوع القصوى ، والجوع ذاته هو الذي يترك ذاك الخلوف ، لكنه تمييز إلهي بين الجوعين ، الجوع الطوعي ، والجوع المفروض .

يتمتع الجائع الصائم بجوعه وينشرح صدره لهذا الجوع لأنه في حالة اختبار طاقة الصبر لديه ، وفي حالة امتحان الله له ، ولذلك يتوق دوما إلى شهر الصوم ويصر ألا يفطر يوما فيه .

وفي ذروة جوعه تراه يمد يديه إلى القرآن فيقرأ ويخشع حبا وطاعة لله حتى أن حجم الحب الكبير يدفع الدموع لتهطل من عينيه ، وهي الدموع الرقيقة التي تفجرها حالة الحب الإلهي الكبرى ، إنه يبكي بين يدي ربه



ويسترجع كل ذلك التاريخ من حميمية العلاقة ، وكل فرص المغفرة التي وهبها له ربه ، يتذكر صبر الله عليه وستر الله له وعناية الله به .  
إنه لا يبكي هنا ضيقا أو كربا ، بل يبكي طربا وكل دمعة تنقي أعماقه وتطهر كل ذرة فيه ، إنها تغسل مساحة الروح مرة واحد كل سنة في ذلك الشهر الأكثر نورانية فيشعر هذا الكائن بأنه يخلق على جناحي فراشة من فراشات الجنة في حديقة الله ، إنه ينشرح بذرف دموع العبادة تلك ، فهي ذاتها تكون عبادة فكل دمعة تحمل صلاة وصياما وحجا وزكاة ترتفع إلى الله .

ليس من شك يابشري أننا نعاني من موت الحب في هذا المكان الشديد الضيق الذي نعيش فيه ، فالعامل يذهب إلى معمله وما يهمله بالدرجة الأولى هو الكسب ، والمعلم لا يؤدي واجبه في تلاميذه حتى يشجعهم على تلقي الدروس الخصوصية ويروج لسمعته وتاريخه وكفاءته في هذا الميدان ، حتى الأب بات لا ينظر لابنته من يرتضي دينه وخلقه ، بات ينظر إلى من يرتضي جيبه .

دوما كنت أرى أن السكينة لا تقترن بوجود المال ، تتحقق في تجارب عديدة عشتها ورأيتها وسمعتها بحالة النقاء الروحي التي يتمتع بها المرء .  
مصالح الإنسان لا تتحقق لو لم تنطلق من أرضية خاصة بمطر المحبة ومن فضاء مشرق بشمس المحبة . أما بالنسبة لعلاقتي بك فهي

أعلى درجة من المحبة ، بلغت في أعماقي ذروة المودة ، والمودة أعلى درجات الحب فيمكن لي أن أحب كائننا ولكنني لأوده ولا أطيق الجلوس معه يومين ، ولكن لايمكن لي أن أود كائننا لأحبه .  
مودتي لك تجعلك السيد الوحيد في عالمي ولا أتخيل أنه يوجد من يمكن له أن يملأ فراغك في هذا العالم كله ذاتها المحبة ياسيدي دفعتني للمشي على قدمي لأصلك ، ولكن بعد الزواج انفجر هذا الشعور الكبير الذي خلف المحبة وراءه ، فغدوت أضحك بمودتي ، وغدوت تضمني بمودتك .

البيوت الزوجية عامرة بالمودة ، ومتى ما انعدمت المودة انهدمت على ساكنيها وذرتها الرياح . شجرة المودة تثمر ثمرة التفاهم الذي يصمد في وجه الفقر والمرض والغياب وفارق السن والتفاوت الاجتماعي ، فتولد حالة الانسجام الكبرى بين كائنين لايلتفتان معها لكل طوارئ العالم حتى يغدوان كجبل عظيم لاتهزه العواصف . ولا أخفي أمنيته بأن تجعلني أما، أريد أن أقوم بأعمال أكثر نفعا لأقترب بها إلى الله ، أريد أن تكون الأمومة قربا أكثر من الله فإن كل روضة ترضعها الأم لرضيعها تقربها إلى ربها لأنها عبادة جديدة ودرجة خاصة للأم تقربها إلى الله ، فكم من رضعات ستقربني من الله . وكل كلمة طيبة أغرسها في سلوك ابني ستكون كلمة طيبة لي عند الله .

الأمومة ستقدم لي خبرة حياتية جديدة لم أكن أعرفها من قبل ، كل ماسمعت وما قرأت وما شاهدت لن تقدم لي حقيقة يوم واحد أعيش فيه حميمية الأمومة .

سيكون بإمكاننا أن نقدم لله وللحياة كائنا منك ومني في روح واحدة وجسد واحد ، عندها سأفتح على الحياة أكثر وأفتح عليك أكثر .  
أنت يابشري العمر الذي أعيشه بكل لحظاته • غدا عندما نذهب إلى الله سنترك هنا شخصا تقيا •

تنفجر لفته الله إلى الإنسان بقوة في تفجيرها ينبوع المحبة في تربة روح الإنسان ، وكان سيموت فظاً غليظ القلب في أرض جرداء لاتألف ولا توادد ولا توانس • هاهو الإنسان يحن للإنسان ، هاهو الشوق يزجيه لرؤية الإنسان ، هاهي المحبة تجره جراً • أذقت يابشري لذة أن تجرك المحبة جراً إلى شخص تحب •• أظن أن كل ملوك العالم لو علموها، لحسدوك على لحظات اللذة الروحية التي تكون في محرابها، ولما ترددوا من محاولة انتزاعها منك لأنفسهم •

الأمر الآخر الذي أظنه هنا هو اقتران الجماع بالعاطفة التي تكون كالمسك للجماع ، تضفي عليه رائحة زكية ، بينما الجماع الذي يخلو من العاطفة حتى لو كان بين زوجين فإنه لا يتفوح برائحة المسك • ثم بعد ذلك يأخذ الجماع كماله بالتوجه الديني الذي يأتي دوماً فينقذه من

غوغائيته وبهائمته ويوظفه توظيفا أخلاقيا في سبيل الحفاظ على النوع

• هنا يابشري يميز الدين الإنسان عن الحيوان فيأتي الإنسان سريره لهدف الحفاظ على النوع ، في حين أن الحيوان يأتي ذلك بدافع غريزي بحت وليس بدافع الحفاظ على نوعه • من هذا التمييز يأخذ الجنس الغوغائي بالنسبة للحيوان شرعيته ومبرره ، بينما يأخذ بالنسبة للإنسان صفة القباحة والبهائية ، إذ أنه لاشيء يبرر الجنس الغوغائي خارج مؤسسة الزواج بالنسبة للإنسان مادام يلتزم بسلوكه الإنساني ، فهو لايجامع في سبيل ترسيخ مزايا العاطفة و الألفة والمودة الزوجية ، ولافي سبيل الحفاظ على نسله ، بل تدفعه غريزته ، غريزته البهائية فحسب ، وعندذاك لم يعد يهمه إن جامع إنسانا أو جامع حيوانا ، أو مارس الشذوذ ، أو الاغتصاب ، أو حتى استمنى مادام قد رضي لنفسه هذا السلوك الجنسي البهائي •

كل إنسان يمكنه أن يلفظ بسهولة كلمة الحب ، لكن هل يرفع الحب على جناحيه أي كائن ليخلق به في فضاء مملكته العذب •  
الإنسان ذاته هو الذي يختلف في تلقي الحب ، عندما تكون طبيعيا يمكن لك أن تمنح عاطفة طبيعية ، وكذلك تتلقى عاطفة طبيعية ، عندما تفقد طبيعيتك تعجز أن تمارس فعلا طبيعيا ، قبل كل شيء أنت تحتاج إلى

استرداد طبيعيتك ، فأنت تضحك ضحكا غير طبيعي ، وتذرف دموعا غير طبيعية ، وإذا تناولت طعاما ما استمتعت به ،حتى عندما تود شراء حاجة فإنك تقدم عليها بتوجيه غير طبيعي ، فأنت تريد أن تشتري فحسب وكأنك ترفع عن كاهلك عبئا ثقيلًا ، ويكون هذا حتى في اختيار الزوجة ، وأوقات الجماع . كل هذه الممارسات لاتخرج عن كونها ردات فعل تبين حدة الأزمة النفسية التي يمر به هذا الشخص نتيجة فقده لطبيعته وقد يكون لادخل له بها وتكون قد تجردت منه في منبت سيء . عند هذه النقاط تبدأ النزعات السلبية في الظهور وتأخذ مساحاتها في سلوكيات هذا الكائن البشري الذي لم يعد يملك إلا أن ينقاد انقيادا بالعصا الشريرة التي تسكنه .

يبلغ مرحلة لا يستمتع فيها بشيء ، ولا يتخذ قرارا واحدا ، إنه فقط ينصاع لأوامر مرضه الروحي ، الآن ستحدد طبيعة تعاملك مع ردات الفعل هذه من الشخص الذي يقف قبالتك ، ستكون عالما بأنها ليست أفعالا طبيعية صادرة عن شخص سوي مسؤول مسؤولة كامله عن أفعاله ، ستتنظر إليها نظرات سطحية كما أنها صدرت سطحية ، ولسوف تدرك بأنك لن تقف موقفا سلبيا أو إيجابيا من ذاك الفعل ، لن يكون بوسع الفعل أن يحرك ساكنا فيك ، فقط ستصغي وتنظر وتدرك حجم اضطرابه

الروحي ، وسيكون بإمكانك في لحظات الإنصات تلك أن تتعلم شيئاً جديداً في يوم جديد من عمرك .  
في ذات اللحظة لن يغيب عن بالك بأن هذا الشخص حالة استثنائية ، وقد تصدر من الشخص الذي يقف بجواره أفعال مماثلة ، ولكنها تصدر عن شخص طبيعي يكون في دراية بأبعاد ما يفعل . أمام هذين النموذجين ستكون مهمتك غاية في الدقة والانتباه حتى تبلغ درجة التمييز بين الفعلين وبين الشخصين ، وليس هناك أسوأ من كائن يمضي نحو استغلال مواقف شخص مريض فيبتزّه ، هذا يذكرني بصديقتي الأكثر من عزيزة / عزيزة / ، رغم كل مشاعر التعاطف ، لا أدع فرصة إلا وأدينها ، أدينها في الهزيمة وتسليم النفس للامبالاة ، فهل هناك وجه آخر للسوء أكثر عمقا كذاك الذي يبتز عزيزة في علاقة غير سوية معها ، لأجد نفسي غير أن أمقت ذاك الرجل بكل ما لدي من مشاعر الاشمئزاز .

دوما كنت أنادي بالتمرد في سبيل ألا يفقد الإنسان طبيعته وطبيعته الأشياء فيه ، ذاك التمرد الإيجابي الذي ينزل لمباركته حتى المطر ويصفق له الملائكة . فقط يابشري الإنسان الطبيعي يمكن له أن ينعم بدفء وهدوء الأشياء ، ودفء وهدوء طبيعة الحياة ، ودفء وهدوء علاقته مع نفسه ومع الله ومع الآخرين . تكمن روح المخاطرة يابشري

عندما نعتقد آمالنا الكبرى على أناس غير أسوياء ونضع مفاتيح حياتنا بأيديهم ، الآمال الكبرى تعقد على ذوي نفوس نبيلة ، أولئك الذين يرتقون بأنفسهم وبكل من له صلة قريبة أو بعيدة بهم ، الذين يلبثون بسيرة حسنة في حياتهم وفي موتهم • يعطي الله لكل شيء حقه ، فأنت تربي ابنك وتخلص في تربيته ، لكنه الصغير الذي يعجز أن يقدم لك شيئاً ، يفجر في أعماقك خزائن المشاعر الأبوية فيحسسك بظفر هائل أثنى من كل كنوز العالم • لقد أعطاه الله شيئاً يرد به على إخلاصك له •

ساد سكون ليس بالطويل فقطعه بشري بقوله : لأخفي عنك شعوري الأعماق بالغبرة ، إنني حزين على كل مشهد من مشاهد الانحطاط التي تحيط بنا • أصارك أنني منذ عودتي أبحث عن صديق يحمل في داخله كنز النقاء والشهامة ، لكنني أفضل ، كأن الأصدقاء ماتوا •

المنبت الملوث يخلع زهور الجمال من جذورها ، ألمي يتضاعف يا ذكري وأنا أرى اقتلاع زهور الجمال والنقاء من جذورها ولا أستطيع إلا أن أنظر إلى النزيف وأكتفي بالألم • الواقع برمته ينهار على رؤوسنا يا ذكري والناس هم أبطال هذا الانهيار ، ليس بوسعي بأي حال من الأحوال أن أكون سعيداً في هذه المأساة البشرية الكبرى التي أعيشها لحظة بلحظة •

كل شيء بات يفوح برائحة العفونة ، الأجساد التي تتحرك أمامي حتى في قصور العدل تحولت إلى مقابر لجثة العدل الذي ينادون به • كل جسد يقبر في تربته جثة قيمه وأخلاقه وضميره • وما أقسى تلك العبارة المؤلمة على سمعي عندما قلت لشخص لأعرفه في موقف : هذا حرام يارجل • فأجاب : وهل شيء فيه حلال حتى تقول هذا حرام • هذه ألفاظه الحرفية التي لأنساها • لقد قال الصواب ، ولكني أبادلك ذات الموقف ، فهل كان بوسعي أن أبارك له موقفه اللا أخلاقي الذي رأيت فيه • كل واحد ينظر إلى امكانية افتراس الآخر ، وما هو الموضوع الذي يمكن أن يُفترس منه • خائف ياذكرى على نجم ، غرست فيه صوت الإرتقاء والسمو حتى بلغت عظامه .

كنت أتفرغ الليالي الطويلة وأنا أشرب وأنصحه ، كان الشرب يحضني على الكلام ، وكان يتأثر حتى تغرق عيناه بالدموع • كانت الكلمات تخرج من عمق الألم والمعاناة ومسافات الهروب من واقع أليم ، وكان ينصت كما لو أنه ينصت لآخر مرة لأبيه الذي لن يراه ثانية • أعطيته كل خبرتي ، لكنني خائف من رصاص طائش يصيب عابر سبيل وسط فوضى لامتناهية •

عاش محروما من عاطفة الأمومة ، ويبدو أن كل مشاعر الأبوة لاتغني عن ذرة أمومة • عندها عرفت أن رجولية العاطفة الأبوية لاتلتقي أبدا



ولا تغني أبدا عن أنثوية العاطفة الأمومية • لذلك هو ملتهب العواطف ،  
إنه ملكتظ برحابة الشفافية ، دوما كان يبحث عن شيء يحبه ويوليه  
عنايته الخاصة ، ويبدو لي أنه يفجر فيه دفق عواطفه المخزونة التي لم  
تخرج إلى أمه • كان أحيانا يغمرنى بالقبلات وكلمات غاية في العذوبة  
والرقة ، وأراه يهتم بطائر ويربيه ، أو يتعلق بنوع من السمك ، أو يعقد  
علاقة حميمة مع أبناء أحد التجار • أريده أن يفرغ تلك الشحنة المخزونة  
من العواطف بصورة طبيعية ، بعد أن أصغيت لحديثك هذا ، أريد أن  
أبحث له عن فتاة صغيرة يفجر عواطفه في حبها ، أريده أن يحب حبا  
طبيعيًا ،

أن يعشق عشقا طبيعيا ، أن يغازل غزلا طبيعيا ، نجم ياذكري فتى  
شفاف شفيق • قالت : إن الشمس مشرقة ، والزهور يانعة ، والأمطار  
تهطل ، والإنسان يحصل على ما هو أكثر من حقه ، يتمتع بكل خيرات  
الأرض والسماء والحرية الشخصية في بقاع أكثر من كثيرة •  
تربتنا بخير لأنها تعبق برائحة الأصالة لكن الناس أفسدوا كل شيء حتى  
بات المطر يأبى النزول على تربة أفسدها ساكنوها ، وهؤلاء أنفسهم  
لا يمتلكون أي شكل من ثقافة الاقتصاد ، إنها مجرد هواية الإفساد ورغبة  
لجمع أموال يفشلون في جمعها لأن درهم الحرام اعتاد أن يسم بطن  
وبيت صاحبه ، لیتساوی مع درهم الحلال الذي يقر نفس وبيت صاحبه

• تعرف يابشري أن كل شخص ميال بفطرته لمن يكون على شاكلته  
ولو بنسبة ما •

كنا ثلاث صديقات : عزيزتي ، وخورشيدتي ، وأنا • كانت عزيزة  
نزیهة وخجولة تحمل القيم ، لكن ليس كل إنسان يمكن له أن يصمد أمام  
نزاهته في كل مراحل الحياة ، هذه النزاهة دفعتها لتتوسل إلي كي لأوقع  
نفسي فيما وقعت فيه • ماتزال بذرة النزاهة تؤلمها ولأظن بأنها ستنتج  
في اقتلاع تلك البذرة من جذورها • قالت عندما أنجبت ابنها : ياذكرى  
هذا الطفل جعلني أقف موقفين من أمي ، الأول لأنها حرمتني من الحب  
الذي أحبه لإبني ، والثاني لأنها عاشت محرومة من عاطفة الأمومة  
السامية • تلك المرأة الشديدة القسوة التي لم تعش لحظة أمومة واحدة ،  
تركتني وتزوجت ، ولم ترني وجهها منذ أن طلقها أبي •

الآن أشفق عليها لأنها لم تعش عاطفة الأمومة السامية ، وأدينها لأنها  
حرمتني من حقي ، وكان يمكن لها أن تستخدم الدين والقانون لتمنحني  
أمومتها ولو ساعة واحدة في الأسبوع ، تمنحني ما أحتاج إليه وتأخذ مني  
ما كان بحاجة إلى الخروج • كم كنت أحلم أن تدخل أمي فجأة في ليلة  
انقطعت فيها الكهرباء فأتقافز إليها وأتعلق بكتفيها كعصفورة •

وكانت خورشيدة دوما تفكر بحكمة ونضج فنلقبها / حكيمة / • كانت  
تبدو في الثمانين وهي تتحدث بحكمة وعمق وانفتاح • مرة اتفقنا أن

نراقب فئة من المترددين إلى الجامع لمدة ستة شهور استخدمنا خلالها ما استعنا من وسائل ، فقمنا بتسجيل كل اسم مع العمل والحالة الاجتماعية في دفتر خاص ، نضيف إليه ما نحصل من معلومات حتى بلغنا تسعمائة وخمسين صفحة تنبض بواقع هذه الفئة التي تتردد إلى الجامع بشكل متواصل • حتى وقع مرة والد عزيزة على هذه الصفحات وأخفاها ، فتوقفنا عن مهمتنا •

أستطيع أن أذكر بعض أبطال تلك الصفحات المخفية • / عبد القادر / ، كان متقاعدا من رتبة مساعد في الشرطة ، له أربع بنات متزوجات • أذكر أننا تتبعنا موضوعا بذلنا فيه كثيرا من الإرهاق ، فقد أعطى مبلغا لأحد الأشخاص ليتاجر به فيتنقاسمان الأرباح • بعد سنتين من العمل واقتسام نتائج التجارة المتواصلة خسر هذا التاجر ما كان يتاجر به . فأتي شريكه يخبره بالحقيقة ، لكنه تبرأ منه وطلب إعادة أمواله ، فأقام عليه ادعاء بالاحتيال لأنه كان قد أعطاه المبلغ بموجب سند أمانة ، وبالفعل فقد توقف الرجل ، فتدخل حينها ملا خليلنا هذا بينهما • قال له الرجل السجين : ياملا ليسقط حقه عني .. سأعمل وأعطيه ماله ، لن يجد من يعطيه نيابة عني فيما لو بقيت في السجن •

قال له الملا بأن عبد القادر على حق وسند الأمانة يثبت حقه ، أما الاتفاق الشفوي فلا أحد يعترف به • انتهى الملا إلى فتوى بينهما ، تقول

بأن هذا الرجل يملك بيتا يسكنه مع أولاده ، يمكن له أن يبيع هذا البيت لعبد القادر . أضاف الملا موجهها صوته لعبد القادر : لكن سنشترط في عقد البيع أنه لا يحق لك أخذ البيت قبل أن يشتري الرجل بيتا لأولاده . قال عبد القادر مستاء : وما الفائدة يا ملا ؟ !

قال : في هذه الفترة سيكون الرجل مستأجرا في بيتك هذا وسترتب عليه أجرة شهرية تنتفان عليها ، يسدها لك كل شهر إلى أن يشتري بيتا أو يعيد لك أموالك التي أصبحت قيمة مقبوضة للبيت . فض الخلاف بينهما على هذا الاتفاق الذي اجتهد به الملا خليل ، وأظن أن ذاك المسكين مازال حتى الآن يدفع أجرة شهرية لعبد القادر الذي كان قد أخذ من الأرباح ضعف رأسماله ، ثم أخذ مرة أخرى من الأجرة ضعف رأسماله . فيقول له الملا مبتسما : لتعرف أن في الدين سعة . لكن الرجل قالها للملا : لا يلزمي أن تصلي بي إماما بعد اليوم يا خليل بيك .

وقعنا على شخص آخر اسمه عبد الخالق عيسو ، لم يكن يصلي يوما واحد حتى بلغ الخامسة والأربعين ، وكان مدمنا للخمر ودوما تراه ثملا في طرقات .

ولانعرف كيف غدا هذا الرجل من أكثر المترددين إلى الجامع ، حتى سمعنا بأنه يصرّح في بعض المجالس بأن اختيار الله وقع عليه ليكون

نائباً عن النبي ، وأن لديه احساس بذلك ، فقد جاءه الإلهام في الخامسة والأربعين و بناء على هذا الحدس فإن نساءه يغدون أمهات للمؤمنين • علمنا بأنه كان يعمل أجيراً في إحدى المتاجر في قلب المدينة لكنه في سن الثلاثين اضطر لترك البلاد كلها بسبب عدم تمكنه من الزواج لأنه لم يكن يملك مايتزوج به .

أمضى في الخليج خمسة عشر عاماً وعاد إلى موطنه ثرياً . اجتمع حوله الناس يمدحون فيه ، ثم رأوه يعود إلى كاره السابق ، فاشترى متجراً ضخماً وغدا يبيع السمانة بالجملة .

عندما هلّ على الناس كان متزوجاً مرتين في غربته من بنات بعض أهل هذه المدينة الذين يعملون هناك ، ومن باب التجديد تزوج امرأة ثالثة ، وبعد سنة تزوج رابعة .

في السنة الثانية شاع خبر بأنه يريد الزواج خامسة ، لكنه ينظر إلى أن يمنحه الله استثناء .

عندها اندهش الناس ، ثم لاحظوا ولادة علاقة حميمة بينه وبين ملاخيل الذي كان يمضي الليالي الطويلة في بيته ولا يخرج إلا في وقت متأخر .

بعد حديث طويل قال له الملا : يا حاج ، ألهمني الله بمخرج .  
قال : أي مخرج ياخليل ؟

قال : يا حاج يمكنك أن تطلق الكبرى ، فتضع هذه بدلا عنها .  
قال : كيف أطلق زوجتي لتكون زوجة لغيري يا خليل ؟  
قال : ومن أجبرك لتطلقها ، إنها أم عيالك ، ستعاهدها على الأخوة  
فتُحرم عليك ، وبذات الوقت يحل على الأخت أن تقيم في منزل أخيها .  
ولكن عليك ياسيدي أن تصلي وتتردد إلى الجامع ، وتترك هذه الخمرة ،  
أو تستر نفسك فيها ، بصراحة يا حاج يُقال بأنك عندما تخرج صباحا من  
البيت فإن رائحتها تفوح منك ، ألا تريد أن تقدم شيئا لهذا الدين الذي  
منحك هذه الرخصة .

ضحك عيسو بعمق كما لم يضحك من قبل قائلا وهو يربت على كتفي  
الملا : والله أنت ملعون يا ملا خليل .

في الأسبوع القادم شاع الأمر بين الناس فكان عيسو متزوجا من  
الخامسة ويحتفظ بهن جميعا في بيته ، فصار يتردد في كل صلاة إلى  
الجامع ، ولما رأى تواضع البناء والآثاث ، أقدم على ترميم هذا الجامع  
وتأثيثه من ماله الخاص ، ثم اشترى بيتين مجاورين جعلهما توسعة  
لحوش هذا الجامع .

ويبدو أن الفكرة راقت له فصار في مطلع كل سنة هجرية يعاهد الكبرى  
على الأخوة ويتزوج بواحدة جديدة وهو يقول لها : ستصبحين أما  
للمؤمنين . وأحيانا في حالات كبيسة يكون في السنة قد تزوج مرتين .

يومها ياسيدي حصلنا على أسماء ستة عشر امرأة مطلقة يعيشن في بيت يأتين طعامهن وكسوتهن ، ولايسمح لهن بالخروج أو الاختلاط بالنساء ، لكن استطعنا رغم كل ذلك الحظر أن نقنح عليهن عزلتهن الأبدية ، وكان ذلك عندما ذهبت خورشيدة إلى عيسو في متجره وألمحت بأنها تريد أن تتعرف به وترى بيته وهي تريد أن يجعلها بنعمته أما للمؤمنين

فذهبنا ثلاثتنا على أننا قريبات ونشاركها الرغبة بالتعرف على هذا الرجل الاستثنائي .

كان البيت شبيها بالعصفورية ، وكنّ يعيشن فيه بحالة فوضى عجيبة ، وقعنا هناك على امرأة مهووسة ، سألنا عنها فقيل بأنها الضحية الأخيرة منذ ستة شهور ، قالت له : يا حاج ، مادمت حرمتني من النكاح منك ، دع غيرك يأتيني .

قال لها مغتاظا : كيف يأتي الأخ أخته؟؟

قالت : الأخ الذي لا يأتي أخته ، يزوجها لرجل آخر حتى يأتيتها .  
قال : أنا رجل ملتزم ، وزوجتي هي أم للناس لايجوز لها أن تنحرف عن هذه الحقيقة .

قالت : لو حق أنك تدعي نيابة النبوة فان الله يأمرك أن تمنحني حقي في طلب الدنيا وزينتها ، متعني وسرحني سراحا جميلا .

في الأسبوع القادم اختفت هذه المرأة من بيننا كدنا نجن عليها ، وظننا أنها سلسلة اختفاءات ستشملنا واحدة تلو الأخرى ، لكنها عادت بعد سبعة أيام كما هي الآن في رسالة بأن مصير أي واحدة يشذ بها التفكير سيكون مثل مصير أختها .

وعندما قلنا لهن بأننا ننتظر دورنا لنصبح زوجات لعبد الخالق عيسو ، قلن لنا بحذر أن عمر زواج كل واحدة لن يكون أكثر من سبعة أشهر لتتقاعد وتنضم إلى أخواتها.

أذكر بأنني رأيت امرأة كانت ماتزال حاملا في الشهر الثامن قبل خروجنا من تلك الحظيرة التي عددنا فيها ست عشر رأسا نسائيا .  
حتى الآن يابشري لايجد هذا الرجل من يردعه عن انتهاكاته ، حتى أهل النسوة لايتدخلوا في أمرهن ، وقد حظر عليهن الزيارات إلا أيام الأعياد فيقمن بزيارة أهلهم برفقة بعض أولاد عيسو ، ويرجعن في ذات اليوم حتى لايجدن من يفسدن عقولهن من نساء واردات كما يقول لهن عيسو يوم الزيارة .

قالت لي خورشيدة ونحن خارجات من حظيرة النساء هذه : يوجد عزّاب يعيشون في كبت لأنهم لايجدون فرصة زواج واحدة ، لو نتمكن من اطلاق سراجهن لكنا قدمنا الحلول لستة عشر شابا .



عندما زرته في المتجر كان يرتدي بدلة جديدة مع ربطة عنق ، يحمل القرآن بيديه ويقرأ • وكان بين لحظة وأخرى يضع القرآن ليبرد على شخص داخل ، أو يرد على الهاتف ، لم يقرأ عشر دقائق متواصلة • ولكن هل كان يقرأ أم كان يُري الناس بأنه يقرأ ، وتسنى لي أن أرى صبيات فتيات يقفن في باب المتجر ويشرن إليه بأناملهن •

فذكرت لخورشيدة حادثة كانت قد وقعت مع عمر بن الخطاب ، فقد جاءه رجل يثني على رجل فقال له عمر : أهو جارك ؟  
قال له : لا •

ثم سأله إن كان قد سافر معه ؟

فقال : لا •

وسأله إن كان قد تعامل معه في أمور مالية ؟

فقال : لا •

ولكنه كثير قراءة القرآن في الجامع • فقال عمر للرجل بأنه لايعرفه المعرفة التي تؤهله لتقييمه •

النساء في واقع كهذا يكن في وضع يُرثى له يابشري ، إنهن يعشن في قلب المعاناة وينكوين بنيرانه الملتهبة • وأظن أن خورشيدة كانت ألمحت على مسمعي يومذاك بشيء من سحاق .

ليس بوسع المرأة أن تفعل شيئاً لو حُجبت عنها حرّيتها ، ماذا بوسع / أخوات / عيسو المتقاعدات أن يقدمن للمجتمع ، ولكنني أمقت استسلامهن المميت هذا ، ست عشر امرأة مطلقة يعيشن في حظيرة دون أن ينبتن ببنت شفة ، كنت أقول لخورشيدة بأنهن يستطعن أن يقمن بمظاهرة لو شئن .

عندما يمنحني إسلامي حقاً ، فإنه بذات الوقت يمنحني حرية أن أدافع في سبيل بلوغ ذلك الحق ، إنه يمنحني ذلك الحق لقاء كوني أسلمت وأنا داخلة كتاب الإسلام .

هذا الإسلام الذي يطلب مني التزامات ، يمنحني ميزات لقاء أدائي لتلك الالتزامات . عندما أقبل أن يكون التعامل معي كبقرة تُسمن لتباع ، وأقبل أن يجردني الآخرون من حقوقي التي أمرها الله لي ، وأقبل أن أتجرد من استقلاليتي الإنسانية التي جعلها الله آية في نفسي ، لقاء مسؤوليتي الكاملة عن هذه الاستقلالية أمام الله لوحدني وبعيدا عن أي كائن مهما كانت درجة قرابته مني ، سيكون من البساطة علي أن أتجرد عن التزاماتي التي تحققت بموجبها تلك الحقوق تجاه الله وتجاه المجتمع الذي أنتمي إليه . هذه فطرة بشرية راسخة في أعماق الناس كافة ليس بوسعنا أن نبحث عن الأعذار والمبررات لنفيها .

هنا يابشري حتى صلة النسل يقطعها الله فلا يكون الأب أبا ، ولا يكون الابن ابنا • كنا نقرأ القرآن معا منذ أيام ووقفنا أمام / نوح / الذي قال له الله عن ابنه بأنه ليس منه • لقد قطع الله صلة النسل بينهما لأن الابن انحرف عن طريق الله • فكم من ابنة تعيش مع أب قطع الله صلة النسل بينهما بسبب انحراف الأب عن أمر الله • يمنحني الله حقي في امتلاك القناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ولا أعرف لماذا كنت أضحك أمام امرأة كان زوجها يذهب إلى المحاسب ليقبض راتبها في نهاية كل شهر وهي صامنة ، تطلب منه قيمة حذاء فيتردد • هذه المرأة كنت أراها في مديرية التربية تجلس مع إحدى جاراتي اللواتي كنت أزورهن ، لم أتحدث معها ، فقط كنت أصغي إليها وهي تشكو زوجها الذي يحرمها من شراء لبس ترغب فيه من راتبها ، ولم تكن قدر ورثت ذاك المال ، بل تمضي ساعات طويلة من الارهاق وهي واقفة تعلم الأطفال لتحصل على راتب آخر الشهر ، فيستولي الزوج على جسدها ليلا وعلى راتبها نهارا • ثم عادت ذكرى تغرق في ضحك طويل وبشري ينظر إليها مبتسما •

عندها نهض بشري قائلا : سأعزمك على كأس من الشاي وقطعة كاتو ليس من مالي فقط ، بل من جهدي أيضا • دخل المطبخ وعاد حاملا سفرة عليها ابريق شاي وقطع كاتو وهو يصر أن يقدم لها وهي مستمتعة

في اتكائها • فشكرته وهي تمد يدها إلى الشاي والكاتو •• قال بشري :  
تحدثي يا ذكري ، كم هو رائع هذا الحديث الذي يزيدني معرفة بك  
• فقالت ذكري وهي تستوي في جلوسها : إنني شاهدة يا بشري على كل  
هذا الفجور والفسق ، ومحرجة أشد الاحراج لأنني أعيش في قلب هذا  
الفجور والفسق ، وكل ما أخشاه أن يأتي قول ربي علي : / والذين  
تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في  
الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم  
جهنم وساء مصيرا / • ليس بوسعنا أن نفعل شيئا يا بشري ، إنها محاولات  
فردية مجهدة تفشل عشر مرات لتنجح مرة واحدة •

سأتحدث لك عن سيف الدين الذي رأيتَه يقتل انسانا رأي العين • لن  
يغيب عن مخيلتي ذاك المشهد المرعب ما حبيت يا بشري • كنت إنذاك  
في زيارة أخته خاتون التي كانت في السادسة عشرة من عمرها • خاتون  
تلك الفتاة الفتية الذي لا يغيب شكلها عن خيالي ، كانت سمراء البشرة ،  
نحيفة ، طويلة القامة ، لها شبه بالأميرة ديانا • كانت قد ذهبت مع  
طلاب وطالبات شعبتها في دورة نظمتها ادارة المدرسة ، وهناك يبدو أن  
الخلوة والعلاقة مع طالب أدنا إلى جماع بينهما ، بعد عودتها إلى البيت  
علمت ذات يوم أن حبيبها مات بماس كهربائي في البيت ، لبث الأمر

على ما هو عليه في خفاء حتى رأت البنت أنها لم تعد قادرة على إخفاء نتيجة ذلك الفعل • خاتون يابشري قبل أن أنسى هي ابنة خالة خورشيدة ، عندما علمتُ بالواقعة التي تسربت إلي عن طريق صديقتي طلبت أن تعرفني بها علنا نستطيع أن نفعل شيئا ، أو أن نخفف عنها ببعض كلمات • كانت تقول بأن شقيقها سيف يخطط لذبحها بالسكين ، وهي منذ أن علمت لاتستطيع أن تغمض عينيها • أمضت هذه الطفلة شهرين متواصلين من رعب • في تلك الظهيرة الحزينة التي دونتها في مذكراتي ، وأقف ساعة من الصمت والدموع فيها كل سنة عندما تحل ذكراها ، وأكون مرتدية ذلك اليوم ثيابا سوداء وقد حرصت ألا أبتسم فيه وأنا أعيد ذلك المشهد المؤلم الذي شهدته بعيني • كنت لوحدي في زيارتها في حجرة مغلقة ، وقد تحولتُ إلى كائن شبحي ، كان الموت يصرخ في وجهها وصوتها ودموعها • كانت تقول بأنها لاتريد أن تموت ، وهاهي كلماتها التي انحفرت في روعي : هل سيمنحني سيف فرصة لألا أموت ، وأي موت ، أي خزي ، أليس بوسعها أن يسامحني ، لأريد أن أذهب إلى الله بهذه الطريقة وأترك سيرة عار لن تنسى هنا • كانت كلماتها الراجفة تخرج بالكاد من ريقها الجاف حتى اندفع الباب بقدم سيف ، وقع في الحجرة وبیده خنجر وأقفل الباب ، انتفضت خاتون بقوة تحتمي بي ،

وانقض سيف كالذئب نحوي • عدت بها نحو الخلف حتى وصلنا زاوية وهو يصرخ : سأقتلك معها • قلت : اقتلني أولاً .  
وقف قبالتنا والخنجر بيده اليمنى وأنا أشعر بأنني اتحدت بصاحبتي ولن يصيبها شيء قبلي • قلت : ربك يقول عن خطيئتها بمئة جلدة بعد أن تضع حملها ، انتظر قليلا حتى تضع حملها الذي لم يرتكب ذنبا لتقتله هو الآخر •

قال : اذهبي أنت وربك من هنا ، أنا أعرف كيف أحكم عليها حتى تكون عبرة •• كلي واشربي بجلدات ربك تلك • مد الخنجر إلى خاصرتي حتى ألمني ، فلم أتحرك ، ثم أعاده ليخدشني به من رقبتني وما أزال أمسك بها بيدي من الخلف وقد تكومت خلفي • لا أعرف ما الذي حدث حتى رأيت صفة منه تنهال على وجهي كصاعقة ، وبذات السرعة جرنني من كتفي ليرمي بي أرضا ويصب ضربة إلى عنق أخته التي خرج منها صراخ أجمع سكان الحي ، رأيت خاتون التي كانت منذ لحظات خلفي تنتفض وسط الغرفة مذبوحة كشاة والدم ينز منها وقد خرج سيف بعد أن نفذ بطولته • عدت إلى البيت لأمضي شهرا في عزلة وقد اسود العالم كله أمام ناظري • هذا الكائن جعل من نفسه مفتيا ليفتي بقتلها ، ثم رأى أن يجعل من نفسه قاضيا ليأمر بذبحها ، ثم رأى أن يجعل من نفسه منفذا لينفذ ما تلقاه من أمر • ثم توجه مسلما نفسه

للمخفر كبطل بعد ستة شهور كان هذا البطل خارجا من السجن لأن أحدا لم يدع عليه ،فقد قتل شاة لاصاحب لها • أذكر أنه بعد حادثة خاتون بستة أشهر أن شابا ربما من ذات المدرسة قد أحب زميلته فكتب لها رسالة يبثها حبه العميق ، فتناولت الرسالة ووضعنها في حقيبتها المدرسية ، لكن الصدفة السيئة وقعت عندما وقع أخوها في البيت على الرسالة ، وتحرى عن الشاب إلى أن تعرف عليه جيدا • وذات يوم ترصده أمام باب المدرسة صباحا وانهال عليه بالضرب المبرح حتى حطم يده التي كتب بها كلمات الحب تلك • هذه هي المرأة المسكينة التي لاتملك إلا أن تكون ضحية • يأتون بنظريات تجعلهم أوصياء على النساء حتى لو بلغن الثمانين ، لا رأي لها ، لامال ، لا شخصية ، لامنزلة اجتماعية • ثمة حبل أبدي معلق في رقبتها مربوط بيد الرجل ، أينما قادها انقادت ، وأينما أناخها استناخت • في ليلة الزواج يحل الأب هذا الحبل من يده ليربطه بيد الزوج الذي ينظر إلى أن الله قد أهده هذه الكائنة ليقضي وطره منها فقط وتبقى مستنيخة إلى أن تموت ، وإن رأت قولا ومنزلة ، فهاهو حجر الطلاق بيده الأخرى يرحمها به ويقذف حبلها في وجهها ، فتعود إلى أبيها مرجومة مفكوكة الحبل • أرى النبي يستشير زوجاته في قضايا الدين ويأخذ برأيهن ، في صلح الحديبية يعما باستشارة أم سلمة فيحلق ويخرج إلى الأصحاب ليقتدوا به ، تروي له

عائشة حكايا منتصف الليل فيغفو على حكاياها كأنه طفل صغير ، تواصل حكاياها ويواصل الاصغاء ، في حكاية أم زرع التي أحبها أبو زرع كثيرا ، ولكنه انتهى إلى طلاقها ، يعلق النبي على الحكاية لزوجته : كنت لك كأي زرع لأم زرع غير أني لأطلقك . ويقول : ويقول في الناس : لا يكرم المرأة إلا كريم ، ولا يهينه إلا لئيم . فيلعب مع زوجته ويمزحهن ، ويسليهن ، ولا يجد حرجا أن يستبق مع عائشة فتغلبه ، ويعاود السباق فيغلبها ، ثم يعلق قائلا : هذه بتلك . ولا يتردد وعائشة تطلب أن تجلس على كتفيه لتتنظر في احتفال مجاور للبيت ، فيحملها لتجلس على كتفيه وتتنظر في الحفل . يقول فيها : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . ثم يوصي عامة المسلمين أن يأخذوا من بعده عن عائشة فيقول فيهم : / خذوا نصف دينكم عن تلك الحميراء / .

يعلم أن امرأة قد زوجها برجل وهي مكرهة ، فلا يتردد أن يأمر في فصلهما لأن ربها الذي خلقها للعبادة لا يرغم عليها هذه العبادة ، فكيف به يبارك فرض شراكة حياة مع رجل مكرهة . ويقول في امرأة أخرى أن لها حرية أن تقبل الزواج من ابن عم لها أو ترفضه عندما قيل له أن أباه يرغم عليها الزواج من ابن أخيه . وتأتي زوجة ثابت بن قيس لتقول بأنها لا ترغب في زوجها رغم مدحها لأخلاقه وإيمانه .



فيسألها عن المهر ، تقول : حديقة • يقول : أتردين إليه حديقته ؟  
فتجيب الزوجة بالموافقة ، فيأمر ثابتاً أن يطلقها ويسترجع حديقته .  
يأتيه نبأ مسلمين يتقصدون العودة من أسفارهم ليلاً ليقعوا بغتة على  
زوجاتهم في أوقات متأخرة وفي أنفسهم ظنون • فيوجه إلى أن الرجل  
إذا رأى وصوله في وقت متأخر أن يقعد في مكان حتى تطلع الشمس  
فيعود إلى بيته في وضح النهار ، ويوجه إلى إعلام الزوجة بموعد  
رجوعه من السفر • إنه ينهى إلى أن يتسرب إلى المرأة ريب فتتجرح  
في شعورها ، إنه شعور مؤلم يابشري أن ترى المرأة أن رجلها قد فقد  
الثقة بها . إنه يوجه الرجل ليحسن الظن بحليلته التي أو دعها الله لديه  
لتكون له أنيسة ، ويكون لها أنيسا ، تكون له لبسا يلبسها ، ويكون لها  
لبسا تلبسه .حتى إذا أتاها عليه أن يحترم دخوله عليها تقول عنه عائشة :  
لقد كان رسول قرآنا يمشي على الأرض . ذات مرة قال نافع لابن عباس  
وقد تجمل لزوجته : ما هذا يابن عم رسول الله ؟ ! قال ابن عباس وقد  
تعلم في مدرسة النبوة : وما في هذا يانافع ، إني أتزين لامرأتي كما  
تتزين لي . تنظر زوجة عبد الله بن عمر بن العاص أن زوجها قد تفرغ  
للعبادة حتى أنه نسي أن يلاطف زوجته ، فإن كان ذلك له وهو حر  
بحياته ، ولكن لها حقوق زوجية لديه ، فلم تجد حرجا من أن تطالب

بحقوقها فذهبت تشكوه لأبيه قائلة : إنه نعم الرجل ، لكنه لم يظأ لنا فراشا

فراح أبوه ينقل شكواها إلى النبي وما كان من النبي إلا أن دعاه ليأمره :  
صم ، وافطر ، وقم ، ونم ، وإن لأهلك عليك حقا .  
وتوجه إلى المسلمين قائلاً : خيركم ، خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي

كان يقول للناس : النساء مصابيح البيوت .  
وما الذي أقوله لك عن خديجة ، امرأة في الأربعين من عمرها تملك  
ثروة تنافس بها كبار أثرياء قومها ، تنتمي إلى بيت أصيل ، تتمتع بجمال  
الشكل والنفس . يُحكى لها عن شاب يبلغ من العمر نصف عمرها لقبه  
أهله بـ / الأمين / لما يتمتع به من أمانة في القول والفعل ، فتبدأ بميل  
إلى سيرة هذا الشاب المميز ، تسعى إلى فرص لتسمع عنه المزيد الذي  
يزيدها إعجاباً ورغبة في أن تتاح ظروف لتكون قريبة منه .  
محمد بن عبد الله ياخديجة ، ذاك الشاب المختلف ، لايميل مع أقرانه إلى  
أشكال الترف واللهو كشبان ومراهقي قريش .  
شاب رزين كوردة انتشرت منها روائح فواحة وهي على وشك التفتح ،  
وكم ستكونين محظوظة ياخديجة لو ملأت بيتك ونفسك بأريجها وهي  
تأخذ مساحة تفتحها في هذا البيت وأمام ناظريك . : ياخديجة ذاك الفتى

القرشي يتم من أبويه وهو رضيع ، يميل للشرود والعزلة خارج مكة وهو يرعى الغنم فيأتي بما يسد جوعه ويعين به أولاد عمه . ينظر إليه أبناء عمومته ويدركو بأنه يفكر بأمر عظيم ، لذلك يدعوهم في شأنه . يقول عمه ياخديجة أنه إذا جلس يشارك في طعامهم ، أكلوا منه جميعا حتى شبعوا وفضل من الطعام ، أما إذا غاب عن الطعام أكل الأبناء حتى ينتهي الطعام لينهضوا وما شبعوا ، لذلك ياخديجة يطلق عليه عمه لقب / فتى مبارك / .

منذ أيام اجتمع كبار رجال قريش من أصحاب الثروة والرأي والنفوذ ، فأقروا حلفا أسموه / حلف الفضول / . قالوا سيكون حلفنا هذا لنصرة المظلومين فينا ومساعدة أهل الحاجة ، أجل ياخديجة كان / محمدك / هذا أحد أركان حلفهم ذائع الصيت . تشتعلين شوقا لهذا الذي يزيدك لهفة للقاء قريب به ، لكن أي سبب هذا الذي سيجعله واقفا أمامك ويجعلك واقفة أمامه تتحدثان وجها لوجه . أتذكرين ياخديجة ، كان ذلك كحلم بعيد ، انه ابن أمنة ، تلك المرأة التي شاءت الظروف أن تشهدي ولادتها لهذا الفتى ، أتذكرين ذاك الرجل القرشي / عبد الله / الذي مات قبل أن يرى ابنه . هاهي الأيام تدور ويحدث ما لم يكن بالحسبان ، ولكن ياخديجة هل يمكن أن يصبح هذا الفتى زوجا لك ، هل تسمح مكانتك الاقتران بفتى يرعى غنم أهل مكة لقاء قراريط .

كوني حذرة من الاندفاع نحو عدم التمييز بين عاطفة وأخرى ، هل أنت معجبة لأمانته ونزاهته وسيرته الطيبة ، هل تعطفين عليه كفتى يتيم وترغبين أن توليه رعايتك كأمر رحيم .

يمضي الوقت بهذه السيدة بالغة الثراء والمجد والشهرة متقلبة في حديث نفسها وحديث أناس يأتونها بأخباره حتى ترى أن تعرض الأمر على صديقات مقربات لها وتقول لهن مصارحة بأنها لم تعد ترى مهربا من حب محمد .

إن ما تشعر بها نحوه لهُو الحب بعينه . فيقع القول عليهن كوقع الصاعقة ويرفضن هذا بشدة ، فكيف بسليمة الثروة والنعمة والجاه تقترن بشاب يرعى الأغنام له من العمر نصف عمرها ولا تجارب له في الحياة ، كيف بها تفضله على كبار الوجهاء والناضجين وأهل الثراء والحكمة والمكانة الاجتماعية الذين يتبارزون لكسب ودها .

وما جعلها تصغي لقول صديقاتها وألا تطلق العنان لعواطفها أنها مرت بتجربتي زواج لم تسعد فيهما ، فرأت أن تتمهل في أمرها .

قالت لهن بأنه مجرد شعور ولم تقرر شيئا . ولبثت في صمتها حتى جاء موعد رحلة التجارة التي تنطلق فيها قافلة تجارية إلى بلاد الشام . عادت إلى ذكر ذلك الفتى القرشي ، ولكنها أقنعت نفسها بأن ذلك لا يتجاوز العمل ، فهو شاب أمين وقد يحقق لها مكسبا أعلى من هؤلاء

الذين يأخذون تجارتها كل سنة إلى بلاد الشام ، فلتستفد من أمانة محمد وتفديه وهو أيضا قد يبحث عن فرصة عمل تغنيه عن رعاية الأغنام . لكن كيف يحدث ذلك ياخديجة ؟ إن أمر الفتى بيد عمه .

فتنتهي إلى أن ترسل لأبي طالب تخبره اختيارها ليحمل فتاه المبارك بضاعتها هذه السنة إلى الشام ، وتشجيعا له لأنها المرة الأولى ، وكونه عُرف بالأمين فإنها قررت أن تعطيه ضعف الأجر الذي يعطيه تجار الرحلة لعمالهم .

يرى أبو طالب فرصة ليحسن ابن أخيه من وضعه المالي وكذلك هي فرصة ليخبر الحياة من خلال السفر والغربة ورؤية بلاد أخرى ، فيرسل الموافقة إلى خديجة على عمل ابن أخيه لديها . : هل حقا سيأتيك محمد ياخديجة ، ولكن كيف سترسله لوحده وهو صغير في رحلة كهذه ، هل وقع اختيارك عليه لأنه سيكسبك المزيد بأمانته أم أن شعلة الحب نحوه لم تنطفئ بعد في قلبك ، لا ياخديجة ، سيكون الأمر فوق طاقته ولم يوافق الفتى ولا عمه إلا للحاجة .

ليكن ياخديجة ، إنه ضعيف ، ارسلي معه خادمك / ميسرة / سيكون عوننا له ويخفف عنه تعب الرحلة ، إنه محمدك ياخديجة ، محمدك الذي رق قلبك له كما لم يرق لمخلوق قبله ، أنيسك الوحيد في ليالي اشتعال حبه في نفسك ياخديجة ، ألا تذكره ، إنه محمد الذي قررتي نسيانه ، محمد

الذي تحتفظين له في نفسك بأرق وأعذب مشاعر الحب ، الذي طالما  
طالت بك ليالي الشوق وأنت ساهرة بذكره العبق .  
تنطلق الرحلة ، وتبتعد عن الديار ، تشعر خديجة بأن محمدا ابتعد عنها ،  
فتشتعل شوقا إليه ، يتحول الشوق إلى اضطراب وقلق وأفكار من كل  
حذب وصوب ، يغدو محمد حديث الليل والنهار في نفسها ، كانت بالكاد  
أقنعت نفسها لنسيانه ، فها هو يعود وقد أعادته من تلقاء نفسها . :  
كيف ياخديجة تغامري بمحمد لترسله في هذه الرحلة الشاقة ، محمد  
الحب الوحيد الذي هز أعماقك بكل مافي الفؤاد من قوة وخفقان ، هل  
تجد المرأة كل يوم رجلا تحبه كل هذا الحب ، أليس هو حب العمر  
الوحيد الذي هز أعماقك ، أي امرأة أنت لتغامري برجل بلغ في فؤادك  
هذه المكانة .

كان يمكن لأي رجل أن يقوم بهذه الرحلة كالسنوات الماضية ، ولتذهب  
الأموال إلى حيث تذهب ، ولكن الحب إذا ذهب سيأخذ معه كل أمل وكل  
بسمة وكل خفقة قلب .

إنك تعيشين لأنك تحبين محمدا ياخديجة وليس لأنك تملكين كل هذه  
الأموال ، هذه هي الحقيقة وعليك الإصغاء إليها جيدا ، الآن وأنت  
تفرطين بحبك في تلك الرحلة الخطرة تستيقظ الحقيقة في أعماقك كشمس  
لاتغيب .

لو كان الأمر بيدها لأرسلت مَنْ تعيده مع البضاعة ، فلم يبق لها سوى أن تنتظر على أجنحة القلق .

وتبقى فريسة لصور الماضي التي تتقاذف إلى مخيلتها ، تتذكر كيف أن أباه قد ذهب في رحلة تجارة مماثلة ولم يعد ، يأخذها القلق لتقارن بين نفسها وبين أم محمد عندما وافقت أن يذهب زوجها في مثل هذه الرحلة التي لم يرجع منها لتقع الفجيرة الكبرى على بني هاشم في وفاته . : هل دفعتي الشاب ليمضي على خطأ أبيه يا خديجة ، ألن يعود مرة أخرى كما لم يعد أباه .

هاهي المأساة تتكرر مرة أخرى في مخيلة خديجة وقد تخيلت نفسها زوجة لابن عبد الله ، ولكنها لم تمنحه فرصة ليتزوج ، عله ترك لها أنيسا من رائحته كما فعل عبد الله ، ذهب وأخذ كل رائحة معه . في غمرة هذا الشرود تولتها فكرة لم تكن أقل ألما ، فهل تعمدت أن ترسله في هذه الرحلة حتى تتخلص منه إلى الأبد ، فهي لاتعلم إلى أي موضع يمكن أن يؤدي بها هذا الحب نحوه ، وعلى هذا فقد أغرت عمه سواء قاصدة في شعورها أو في لاشعورها ، وضاعفت له الأجر وهي موقنة أنه سيوافق ، وما عزز هذا الشعور لديها أن أمانة عندما وافقت أن ترسل زوجها في رحلة خطيرة كهذه كانت بأمس الحاجة إلى عمله لينفق

عليها ، أما هي فليديها ما يكفيها مدى الدهر ، بيد أنها دفعته قاصدة لتتخلص منه ومن شعورها نحوه .

تقع خديجة في نار ملتهبة نتيجة هذه الفكرة التي استبدت بها ، ولكن شخصيتها القوية جعلتها ترد على هذا الخاطر فتقول بأنها لم تفعل ذلك إلا حبا به ، وهذه هي الحقيقة التي لامبرر للتفكير بغيرها .

أرسلته لتختبر رجولته وجلده على العمل والتضحية في سبيل إطعامها إذا احتاجت إلى من يعيها ، ثم أن حبها الكبير له دفعها لتخرجه من رعي الأغنام فيكون مع التجار ويجول في البلاد ، فهو سيكون أبا لأولادها وعليه أن يفتح ويتعلم ويعاني حتى ينجح ليكون أبا ومربيا ومعلما لها ولأولادها ، لأن يكون رجلا مهزوزا ينتظر لتشتري له حذاء ، وتطعمه لقمة .

الآن عندما يعود ياخديجة سيكون الرجل الذي أثبت أن بإمكانه أن يكون زوجا ورجلا ومعيلا وأبا مكافحا في سبيل أسرته • عندها سيصمت ذاك الذي يشيع في الناس مستهزئا : / إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ذلك الذي كان يرعى لنا الغنم بالقراريط قد تزوج من خديجة بنت خويلد بن أسد / •

تغدو الليالي أكثر وحشة ، يغدو النهار أكثر طولا في وحشة انتظار من قد يأتي وقد لا يأتي ، وبغثة يتعالى صوت فرح بعودة العير من بلاد الشام



، تشعر خديجة بأنه حمل شمسا إلى ظلامها ، وأي نيرات ذهبية تلك التي أزاحت عن كاهلها جبلا من القلق ، عاد العير ، أجل عاد العير وها هو يلوح بعودته من بعيد كغائب منذ مائة عام .

هاهي شمس تشرق في أعماق خديجة مع اللحظات الذهبية الراحشة ، يتحدث الناس عن الأرباح ، عن الأموال التي ستحل عليهم ، عن هديا لم ترها عيونهم من قبل ، عن رائحة بلاد الشام التي يحملها الرجال ، ولكن نظرات خديجة وقلبي وتفكيرها في أنفاس رجل واحد يثبت لها بأنه قادر على تحمل مسؤولية زوج وأب وشريك حياة ، وأنه لن يخيب أملها فيه ، ولكن مال هذه القافلة لاتصل ، ما لهذه المسافة وكأنها تأخذ بالابتعاد ، وما زال صوت المبشر يتلأأ بالنداء حاملا بشرى انشراح الصدر والروح ، ما زال الصوت يغرد بأرق أغنية سمعتها أذنا خديجة . إنه محمدك ياخديجة ، أجل محمدك هذا الذي يشرق وهو واقف يسلمك أرباحا ماكانت تخطر لك على بال ، يسلمك الأرباح وينصرف إلى أهله . هل انتهى كل شيء ، هل ذهب محمدك مرة أخرى من يدك ، لو كان يدرك حجم الشوق والقلق والانتظار الذي كان مشتتلا في أعماقك لأطال البقاء ولو للحظات أخرى ، ياله من فتى مؤدب ، ياله من فتى بالغ الرقة والعذوبة . ولاتملك إلا أن تطلب من / ميسرة / أن يروي لها كل شيء عن تفاصيل الرحلة، أن يحدثها عن رففته في السفر عن كل نظرة

وحركة وكلمة بدرت منه • ولكن ميسرة يصمت ، وأي شيء سيقول ، من أين سيبدأ ، وإذا روى لها ما رأى هل ستصدق وهو نفسه مندهش لما رأى وعاشر • ولكن خديجة أصرت أن يروي لها ما رأى وسوف تصدقه لأنها تخبر صدق خادمها ، ولذلك عندما أخبرها عن كائنين غريبين كانا يظهران في حرارة الظهيرة ليظلالاه ، وكان هو الوحيد من بين القوم يرهما . قالت له : صدقت ياميسرة . في تلك اللحظة ولد القرار الذي لاتراجع عنه ، فأرسلت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، ولما جاء ورقة أخبرته بأنها سوف تتزوج محمدا بن عبد الله الذي استأجرته في تجارتها لهذا العام ، ولأن ورقة يثق بحكمة خديجة وتأييها في اتخاذ مثل هذا القرار المصيري ، أبدى موافقته • ولست أنا هذه المرة يا بشري ولكنها / نفيسة / التي ترغب أن تروي لك وقائع هذا الزواج وقد شهدته وكانت أحد دعائمه : كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قریش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا • وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، وقد طلبوها وبذلوا لها الأموال •• فأرسلتني دسيسا إلى محمد بعد أن رجع في غيرها من الشام • فقلت : يامحمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدي ما أتزوج به • فقلت :

فإن كفت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟  
قال : فأنا أفعل .

فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن أتت لساعة كذا وكذا • وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوّجها ، فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته ، فزوّجه أحدهم انفتح محمد على حب امرأة تكبره بعشرين سنة ، رآها المرأة التي تمنحه كل شيء ، تعوضه بكل ما لقي من حرمان ، من دفع المرأة ، دفع البيت ، ولبت يقدر كل تضحياتها وحبها الشديد إليه ، لقد كان حبها له حبا طبيعيا ولذلك انفجر في قلب محمد حب طبيعي نحوها فلبث الرجل المحب حتى شاخت وهو ما زال في شبابه وذروة رجولته ، إنها المرأة الأولى والأخيرة التي سيمضي عمره معها ، وكيف به يكون أنانيا ليتزوج من صبية ويسبب ألما لهذه المرأة النبيلة التي وهبته كل شيء ، لسوف لن يجعلها تشعر مجرد شعور بأن ثمة امرأة غيرها تدخل في حياته ، لن يمنح فرصة لأحد ليقول :  
ذاك الرجل الذي ضحت من أجله خديجة بنت خويلد بن أسد بكل شيء ،  
راح فجلب لها ضرة • هذا الكلام وإن كان سيؤذي محمدا ، ولكنه سيقع في سمع ونفس خديجة كلهب من نار •

تنزل عليه الكلمة الأولى من الرسالة ، فلا يجد غير خديجة ، تقف إلى جانبه ، وتؤمن بكلمته فيعملان سويا في نشر دين جديد لسوف ينتشر في

الآفاق . تسانده خديجة كما ساندته من قبل . ولكن الرحلة قصيرة فتتركه خديجة وهو مازال في بداية كفاحه في نشر رسالة دين جديد أراد الله أن يختاره لهذه المهمة .

عاد محمد يتيما مرة أخرى ، وهذه المرة هو يتم الزوجة وأي زوجة .. تاركة له أولادا ، فماذا يفعل ، هل يتفرغ لتربية أولاده ، هل يتفرغ لنشر الرسالة . إنه يحتاج إلى امرأة وقد بقي وحيدا ، لا بد أن تأتي امرأة إلى هذا البيت ولن يكون بوسع أحد أن يلومه . ولكن هل سينساها ، وهل سيكون بوسع امرأة أن تحتل مكانها في قلبه ، سيبقى يذكرها ، يبقى يردد اسمها وكأنها حية لم تمت . حتى أن عائشة ذاتها التي لها موقع خاص في قلبه لن تتردد من أن تقول : ماغرت على امرأة للنبي ماغرت على خديجة لما كنت أسمعته يذكرها ، وأمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب . وإن كان ليذبح الشاة فيقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول : إنها كانت .. وكانت ، وكان لي منها ولد . نكر يوما خديجة فأطنب في الثناء عليها، فأدركني ما يدرك ما يدرك النساء من الغيرة ، فقلت : لقد أعقبك الله يارسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين .

فتغير وجه رسول الله تغيرا لم أره عند شيء قط ، إلا عند نزول الوحي . تضيف عائشة : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله

صلى الله وعليه وسلم ، فعرف فارتاع فقال : / اللهم هالة / فغرت فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر أبدلك الله خيرا منها • فقال : ما أبدلني الله خيرا منها ، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقنتني إذ كذبتني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء • هاهي عبارات خد يجة التي واسته وهدأت من روعه ، ومازالت تواسيه وتهدي من روعه ، هاهي كلماتها ومواقفها الباقية في ذاكرة محمد جاريا من غار حراء إلى حضنها : زملوني .. زملوني .

فتزمله بقلبها وحبها وهي تتمم له كأنها تنشد له نشيا: ابشر يا ابن عمي ، فوالله الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على النوائب ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة • وتأخذه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل المعرف بالعلم في مكة فتقول له : يا ابن العم اسمع من ابن أخيك .

يسأله ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ يخبره النبي عما رأى فيقول ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى ياليتني فيها جزعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك • يضيف له ورقة بعد أن أنبأ بالهجرة : لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا

مؤزرا • يقول في كمال هذه المرأة : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد .

في كل الاتجاهات أراني مندفعة إلى امرأة قالت : لا . لأطبع قبليتي على عينيها الكريمتين حتى لو كانت في آخر بقاع الأرض ، عندذاك أشعر بنشوة لأن ثمة امرأة جديدة انتصرت ب /لا / التأنيث • لأن ثمة امرأة جديدة أدركت أن لا سبيلها الأوحى لتبقى كائنة بشرية . هذه المرأة يابشري في الوقت الذي تقول فيه بكل قوة أنوثتها : لالسقوط . فإنها بذات اللحظة وذات القوة تقول : نعم للإرتقاء . لاشيء يضاهي لذة الانتصار ، لذة أن تشعر المرأة بأنها قامت بعمل بطولي في سبيل ألا تسقط عنها شخصيتها . إن ذاك اليوم لهو يوم مشرف في تاريخ تلك المرأة . عندما تفقد المرأة شخصيتها ، فإنها تفقد خصوصيتها وعندما تفقد خصوصيتها فإنها تفقد أنوثتها ، وعندما تفقد أنوثتها لن تكون امرأة ، ولن تكون رجلا . وهنا يتلاشى فارق السن بين امرأة وأخرى ، فيمكن أن ترى امرأة في الخامسة والستين تتمتع بألق واتقاد نور إشراقة الأنوثة ، وترى امرأة في الخامسة والعشرين مطفاة لكل ذرة من ذرات أنوثتها •

لأعرف إن كنا سننام أم سنواصل حديثنا ، ولكن ثمة حالة كنت شهدت لها لدى نماذج من نساء يهمني أن تسمعها قبل أن أنتهي • وهي أنك يمكن

أن تشهد لونا من العلاقة بين الرجل والمرأة وقد تطورت لتتحول إلى امتلاك للمرأة ، فيعيش الرجل حالة أنه بات يمتلك المرأة كما يمتلك أي قطعة جامدة في بيته في الوقت الذي يقول فيه بحبها، ثم ترى هذه العلاقة تأخذ أبعادها لدى بعض أزواج ، يفرض عليها نمطا معيناً من الحياة في النوم ، واليقظة ، وتناول طعام ، والامتناع عن طعام آخر ، والاستقبال ، والمقاطعة ، والهوايات ، والألفاظ ، وتأثيث البيت ، وتربية الأطفال . وعندما يتمكن من هذه النزعة ويرتوي من ممارستها فإنه عندذاك سيشعر بقرف نحو تلك المرأة ، ويبدأ في البحث عن امرأة أخرى لأن التي لديه جماد وليست كائنا بشريا .

## الفصل السادس



في العاشرة صباحا كانت ذكرى تجلس وحدها في البيت تقرأ سورة النساء ، قاطعتها دقائق على الباب ، فنهضت لتدخل عزيزة التي جاءت دون موعد . تباوست الصديقتان بشوق وحرارة رغم الغياب القصير ، ولما رأتها ذكرى محتقنة ومنهكة استأذنتها لتجلب لها كأسا من عصير الليمون الطازج .

تناولت عزيزة رشفة صغيرة من الكأس بيد راجفة ، وانحدرت دموع غزيرة من عينيها قائلة بألم وحرقة وكأنها تستجر النبرات من حنجرتها جرا : أشعر يا ذكرى أن حبلا من الآثام يلتف حول عنقي ويرفعني إلى الأعلى .. هذه الحالة لا تتركني ليلا نهارا .

هربت إليك يا ذكرى ، وأنا لأجد غيرك أهرب إليه . هربت إلى حديقة ذكرى لأشم بعضا من روائح زهورها . يا إلهي ، يبدو لي أن ذنوبي

غدت أثقل من جبل على نفسي ، هذا الجبل الذي استسلمت لحجم ألمه ،  
لم أعد قادرة حتى على التنفس ياذكرى ، غدت البسمة الحقيقية التي  
تصدر من القلب حلما بعيدا • اكتشفت ياذكرى من أعماق هوتي أنه ليس  
هناك أغبى ممن يذهب ليعالج خطيئة بخطيئة • إنني ألتمس منك  
ياصديقتي طريقا للخلاص ، ألتمس شيئا من رحابة روحك ، وقوة نقاءك  
• هل ستقولين لي شيئا أم تدعينني أموت دون أن تقولي لي كلمة أخيرة  
تودعينني بها • لقد سقطت ياذكرى ، سقطت .

وإن كنت أدين نفسي بهذا السقوط ، فإنني لن أنسى أن أدين كل يد  
أسهمت في دفعي إلى هذه الهوة • هلا تمدين كفك إلى ذاك القاع عليها  
ترفع قليلا تلك الصديقة التي أحبتك وأخلصت لصدقتك من الأعماق • لا  
أريد أن أختتم حياتي وأنا أحمل كل هذه الآثام • لا أريد أن أموت وأنا  
بكل هذه العفونة النفسية أيام البؤس والشقاء تحرض على الخلاص فتتلد  
نزعة تشاؤمية في النفس • وأي جحيم عندما يشعر المرء بتفاهته ، يشعر  
بأنه كائن منبوذ ينظر إلى نفسه كما ينظر إلى حشرة قذرة ، عندما يسقط  
المرء أمام نفسه فإنه يكون ساقطا في أنظار الآخرين بعينه حتى لو لم  
يعلموا شيئا عن سقوطه ، أنظار الأنقياء من الناس تدينني وتوبخني  
بسقوطي حتى وهم يجهلون عني هذا السقوط ، نظراتي عندذاك تقفز إلى  
وجوههم لتتنظر إلي نظرات احتقار وهكذا أراني مندفعة إلى الموت

اختصارا لمزيد من الاحراجات ووخزات الألم الروحية ، سيحملني الموت على أجنحة الخلاص إلى أي مكان آخر ، لايهم أنا واثقة بأن أي بقعة أخرى ستكون أرحم من هذه بالنسبة لي ، أجل هناك مستقبلي ولا مستقبل لي غيره • صمتت والدموع ماتزال تجري من عينيها ، وما زال الشحوب يستبد بها ، والتوتر يحتل حتى لحظات الصمت التي غرقت فيها • تبدو وكأنها هربت للتو من الدرك الأسفل من الجحيم ومالك يلاحقها ليعيدها إلى مطرحها بالقوة • رأت ذكرى أن صديققتها لن تستوعب أي كلمة سوف تقولها ، وأنها لا تحتاج غير إلى أن تأخذ قسطا من الراحة سواء في الحديث أو في الاستلقاء • إنها آتية لتتحدث لالتسمع رغم أنها تلح على السماع ، وعلى رغم انتظار عزيزة الطويل لتتحدث بما تراه يخفف عنها إلا أن السكوت لبث يخيم عليهما • فما تقوله عزيزة وهي في أعماق احتراقها لهو أكثر أهمية وجدوى للتخفيف من وطأة عالم النيران التي تحترق فيه • وأمام هذا الصمت المتبادل وانتظار كل واحدة ليصدر حديث من أختها ، نهضت عزيزة وقد بدت على ملامحها نسمة هدوء •

ودعتها ذكرى إلى أن سارت معها خطوات في الشارع ، وعادت تبرك مكانها حاملة القرآن مرة أخرى طابعة عليه قبلة ، ثم مكلمة ما كانت تتلو من سورة النساء • رأت أن تلاوتها شوبها بهض التشوش ، وقبل أن

تنتهي السورة عادت تطبع قبلة على الكتاب المقدس وتعيده إلى مضعه .  
إنها عزيزة التي لا تترك ذهنها في صفائه ليستقبل كلمات ربها بسكينة ،  
إنها عزيزة التي غابت فخلفت في مطرحها ألف شبح لعزيزة . راحت  
العبارات تتداعى في خاطرها وفي حديث نفسها : أمام كل هذه التجارب  
، ماذا تقولين يا ذكري ، ماذا كان بودك أن تقولي لعزيزة و غلبك التردد .  
إن من ينظر نظرة سوء لغيره ، تُنظر إليه نظرة سوء من يلفظ كلمة  
خبیثة لغيره ، تُلفظ فيه كلمة خبيثة ، من يسطو على ناموس غيره ،  
يُسطى على ناموسه . من يعز نفسه تعزه نفسه يا ذكري ، ومن يذل نفسه  
، تذل نفسه . إنها فطرة الإنسان ذاتها التي تأخذ ماتدفع ، وتدفع ما تأخذ  
 . التي اعتادت أن تكافئ صاحبها ، واعتادت أن تعاقبه .

عند الظهيرة وعلى مائدة الغداء غازلها بشري بوجود نجم قائلا : لاظن  
أن هناك امرأة في هذه البلاد تجيد فن مضغ الطعام مثلك . حتى لو  
مضغتي خبزا يابسا ، ستثيرين شهيتي لتناول كسرة من ذلك الخبز .  
وأنت يانجم ، ألا تدهشك عنوبة أمك الصغيرة هذه التي لا تريد أن تخرج  
عن طفولتها . ابتسم الصبي واستحى من الإجابة فقالت ذكري وهي  
تضع صدر الدجاجة المحمص جيدا في فمها : حتى عند مضغ الطعام  
أريد أن أبقى في حالة عبادة ، عندما أمضغ اللقمة وأتمتع بنكهتها ، أتذكر  
أن الله قد أتى بلحم بالغ اللذة ، ثم خلقتني وأرشدني إلى طهييه بطرق شتى

، وجعل لي فما وأسنانا ومعدة وشهية لتناول هذا اللحم والاستمتاع بتناوله • ثم أردفت وهي تحمل كأس اللبن إلى فمها : وأنا أشرب اللبن البالغ الطيب هذا ، أذكر الله الذي جعله في مراحل حتى يصل إلى فمي ، فأذن أنا مدللة لديه ، وهو يهيني ما ينعشني متذكرة قوله في هذا الشراب ونكهته تملأ فمي : / وإن لكم من الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين / . أتناول هذا الشراب بشهية وليس عن طيب خاطر ، أتناوله من الله بقوة وشكر لأنه هو الذي أهدها لي وكان يمكن أن يحرمني منه حتى لو كان في متناول يدي • عندما يمنحنا الطبيب سنا صناعيا فإننا ندين له ونتذكره كلما نظرنا في السن ، فأذن أذكر الله وأنا أنظر في طقم أسنان طبيعية •

في الصباح خرجا إلى عيادة الطبيب لإجراء تحاليل لذكرى ، فطلب المخبر أن يعودا بعد ثلاث ساعات ليأخذنا النتيجة • عادت ذكرى إلى البيت ، واتجه بشري إلى المطعم • وبعد ثلاث ساعات ترك عمله ثانية وراح إلى المخبر ليطلب نتيجة التحليل الطبي • دخل البيت فرحا كأنه يتقافز ليرى ذكراه في انتظاره تستمع إلى المذيع ، وما إن رآته حتى أطفأت الأغنية التي كانت تسمعها وقالت : ماذا رأى التحليل يا بشري ؟

فقال : مثل هذا الخبر يحتاج إلى ثمن •

أدركت ذكرى ما يرمي إليه فأعطته خدها قائلة : خذ •

لم يشأ بشري أن يترك فمه من خدها ، فكل قبلة هي قبلة جديدة يظفر بها لأول مرة لها رائحة مختلفة وطعم مختلف ونشوة مختلفة • فألصق خده بخدها الناعم وكأنه لا يريد أن يتركها فضحكت ذكرى وقد تراجعت إلى الوراء : قل فإني لا أطيق صبرا •

قال بشري بنبرات تحمل إليها نكهة العيد : أنت حامل في الشهر الثاني • ومد يده بعجالة إلى جيبه وقد أخرج مظروفا : هذا المظروف من عزيمة ، مرت بي في المطعم وطلبت أن أسلمه لك • وخرج على عجل ملتقفا بعمله الذي تأخر عنه كثيرا •

لم تستطع ذكرى أن تستقبل النبأ إلا بذرف الدموع متممة في حديث نفسها :الآن علي أن أقدم كائنا بشريا إلى الحياة • ثم نظرت في بطنها وراودها إحساس لأول مرة بأن اسنانا ما يسكن بطنها ، وعليها أن تحسن سكناه • عادت إلى الجلوس فتذكرت مظروف عزيمة ، فضته وهي شاردة لتقع على خط مربك : لن أبدأ كلماتي هذه ب اسم الله ، لأنني لأستحق أن أبدأ باسمه ، لن أبدأها ب أختي ، لأنني لأستحق أن تكوني أختا لي ، ولن أبدأها ب صديقتي لأنني لأستحق أن تكوني صديقة لي • أبلغك شوقي الفائنض ، لكن لم أملك طاقة النقاء الكافية ولو للحظة واحدة لأزورك ، أجل ياغالييتي إن عشك الزوجي الطاهر لهو أسمى وأنقى من أن تدخله امرأة تحمل حجم تلوثي ، كل المرات السابقة التي زرتك فيها كنت أشعر

أنني لوئت ركنا مقدساما، حرصت طوال عمري أن يبقى نقيا .  
أصارك يا ذكري أن العفونة الروحية بلغت بي ذروتها ، لم أعد قادرة  
على فعل شيء غير أن أمضي بين جدران زنزانتني هذه ، وبإلها من  
زنزانة روحية قذرة . ذكري ، وأنا أتخطب من حيث أدري ولا أدري  
رغبت أن أقول لك أشياء من هوتي السحيقة هذه . إن دناءة نفسي  
علمتني ما لا يمكن لنقائك أن تعلمك إياه أيتها الزهرة المجيدة ، يا شجرة  
الأمل الصامدة كالطود التي من أجلها يهطل المطر ، ومن أجلها يأتي  
ذاك الربيع محملا بالبلابل والزهور وسحر الطبيعة . في الصباح خرج  
/ رمضان / إلى عمله وخرجت إلى انحطاط نفسي الذي لأخفيك بأنني  
غدوت أتسوله . ثمة شيء أسوأ من الإدمان يدفعني لرائحة الدناءة وأنا  
أدرك بأنها تحطم سمعتي وجسدي وروحي معا ولا تحقق لي غير  
الإشمئزاز لأنه لا يوجد رجل عاقل يكن احتراما لعاهرة ، ولذلك لا يخلف  
هذا العهر غير مشاعر الإشمئزاز العميقة في كلينا .. كنت في لحظات  
أقول في نفسي أن الإنسان مهما أوتي من قوة للصبر فإنه ينحني محققا  
ضعفه دون رفيق يعينه على الوقوف .

كنت دوما أقول أن سيدك بشري كان سيستسلم في النهاية على تلك  
الضفة المهجورة لولا أن رأيك ، وهل كان حقا يعيش وقد رفض كل  
ألوان الحياة ، هل كان قلبه سينبض بالحب مرة أخرى ويضمك بكل

حنان الرجولة • وأي مصير كان سيكون لك وقد انطفأت في روحك كل شعلة للحياة لولا أن قادتك الأقدار إلى شباك ذاك الرجل النبيل • بالنسبة لصديقتنا ، كانت ستواجه عواصف شتى لولا أن وضعت تربية صالحة ، وقيما نبيلة مع حليب أمها •

كان بينها وبين الهوة السحيقة خطوات روحية ، لكن الأم نادى ابنتها بكل قوة :/ إن من يحوم حول الحما يوشك أن يقع فيها /• كان نداء الأم الغائبة الحاضرة هو الذي يدفعها للخروج عن الحما وما فيها • البذرة الصالحة لايشوبها فساد يذكري ، ولاتينع ثمرة فيها فساد

لقد انحرمتُ من كل لمسة أمومة تططبب لإشراقة طفولتي .. من كل قبلة أبوة تشد أزري .. من كل كلمة طيبة تغرسني في أرضي .. من كل مطر ينزل على صحري .. من كل شمس تشرق على ارتجاف روحي

لكنني لأنسى أن أدين أنانية المجتمع الذي لايفكر أحد فيه أن يبادر ولو مترددا بمد يد عوم إلى غرقي . إنها الأنانية الإجتماعية التي أودت به ليفقد مثلي كل شيء . التربية الصالحة حرمتها لغياب أمي المبكر ، الثقافة التي دوما تتادين بها يا صديقتي كانت أبعد ماتكون عن متناول يدي



بسبب اضطهاد وعنجهية أبي وزوجته ، وقد خسرت حتى فرصة الظفر  
برجل يمكن أن أحلق على كتفيه في الفضاء.

الأتذكرين حكاية المرأة الطيبة في منبت السوء التي حذر منها النبي في  
حديث / خضراء الدمن / . أعترف لك أنه فاتني أن أعمق ثقافتي الدينية  
، وكنت أجد فرصا متاحة . لكن رغم كل هذا فلا أجد فرصة لأبرر ذاتي  
من يم الآثام. الذي مثلي يبكي نفسه بحرقه أما م كالذي مثلك عله يجد في  
بكائه شيئا من عزاء . بيد أن الذي كمثلك لا يبكي نفسه حرقه على الذي  
كمثلني لأنه لا يرنوا إلى أن يكونه .

لا توجد آثمة سعيدة في آثامها يا صديقتي ، ولكن توجد نقية سعيدة بدفء  
نقائها . كل امرأة آثمة تنظر إلى يوم لسوف تشرق فيه الشمس لتقول  
لبحر الآثام : وداعا . لكن ليس ثمة امرأة نقية تنظر إلى يوم تقول فيه  
لبحر الآثام : أهلا . كل ما يمكن ان أختتم به هذه الاعترافات لك هو  
شعوري الأعمق بأنني قاعدة الآن على لغم موقوت . نكرى ، منذ يومين  
لأعرف كيف خطر لي أن أعود إلى القلم الذي هجرته ، كتبت شيئا  
أحسست بأنه أراحني ، أرفقه لك مع هذه الرسالة وإني لأرجو منك قراءة  
متأنية لها .

فتحت نكرى الصفحات المطوية ، وضعتها جانبا وأحضرت كأسا من  
الشاي ، جلست على الكنبه وقد بدت في حالة تهيئها لاستقبال ما كتبته

عزيزة التي كانت في السابق مشروع كاتبة قصة وكان سبق لها أن كتبت نحو ست قصص بيد أنها مزقتها ونست الأمر كله عندما تزوجت .

مدت ذكرى يدها إلى الأوراق ولكن صوت الباب جعلها تنهض والأوراق بيدها لتدخل إحدى جاراتها قائلة بأنها رغبت أن تزور جاريتها الجديدة : أنا جارتك أم حساني ،ابني اسمه حسن ، يلقبونه حساني . استقبلتها ذكرى بحفاوة و قدمت لها إبريقا من الشاي الحجازي الأحمر مرحبة بها بكل حرارة ، وبعد ذلك قدمت لها فاكهة ، ثم فنجان قهوة وعبارات الترحاب تتجدد بين دقائق وأخرى في فمها ، فطلبت منها المرأة أن تقبل دعوتها للغداء يوم الجمعة القادم مع بشري ونجم . مضت ساعتان والمرأة ماتزال تتحدث وذكرى تعيد عبارات الترحاب بها وتقدم لها ألوان الضيافات حتى جاء طفل في نحو السابعة من عمره قائلاً بأن أباه قد عاد ويريدها ، فقالت : هذا ابني حساني غلامك .

فنادته ذكرى ، ومدت يدها تسحب محرمة من علبة المحارم ، مسحت أنفه ، وقبلته من خده .

قالت المرأة : غلامك .

مدت ذكرى يدها وناولته تفاحة ، فأعادت المرأة : غلامك .

ثم نهضت وبعد لحظات عادت بيدها كمشة كرميلا وضعتها في جيبه .

فكررت المرأة : غلامك يا جارتني .

خرج الطفل فشكرتها المرأة على كرمها ، لكنه بعد ساعة أخرى عاد قائلاً بأن أباه يريد لها بسرعة ، فنهضت ، وليثت تتحدث واقفة وبين دقائق وأخرى تخطو نصف خطوة حتى مضت نحو نصف ساعة إلى أن وصلت الباب ، وهناك وقفت تتحدث لمدة ربع ساعة ، فعاد الطفل قائلاً بأن أباه يريد لها حالاً وهو في عجلة من أمره ، عند ذلك نادته وأمسكته من أذنه حتى بكى ثم صفعته على وجهه قائلة : ألم تسمع ، قلت لك أنا قادمة .

عادت ذكرى وهي تحس بإرهاق لأن الزيارة حرمتها الاستراحة في وقت القيلولة فاستلقت على الكنبة وقد تغطت ببطانية .

غفت إلى أن عاد نجم وأيقظها بدخوله ، دخل المطبخ تناول بعض طعام من البراد واقفا وعاد يجلس إلى التلفاز .

دب النشاط في جسد ذكرى بعد غفوتها ولا تعرف لماذا رغبت أن تطلب من نجم أن يصنع لها فنجان قهوة ، فنهض وأحضر لها ركوة القهوة مع فنجان وكأس ماء . تمتعت باحتساء القهوة رغم أنها كانت قهوة فاشلة لأنها كانت خفيفة وكثيرة السكر ولم تكن مغلية جيداً .

قعدت في الكنبة تشاركه مشاهدة التلفاز فدخل بشري قبيل وقت عودته بساعة قائلاً بأن شوقه إلى هذه العائلة الصغيرة هو الذي جعله يترك العمل قبل ساعة .

بغثة قفز كل حديث عزيزة الذي قرأته في رسالتها إلى مخيلة ذكرى . قفز كلمة كلمة ، جملة جملة ، وكأن عزيزة نفسها واقفة قبالتها . لأول مرة انتابها رغبة قوية لتعامله كطفلها ، فراحت تقبله من عينيه وتأخذه إلى المغسلة ، تغسل شعره بالصابون ، تفرشي أسنانه ، تغسل يديه ، تغسل قدميه ، تنشفه وتعيده إلى غرفة الجلوس .

لا تريد أن تتركه لحظة ، فراحت تقص له أظافر يديه ، وبعد أن فرغت مدت يدها تقص أظافر قدميه وهي تزداد شعورا بأنه طفلها الكبير المدلل الذي لامستقبل لها غيره . ثم جلبت إناء ووضعت قدميه في ماء ساخن قائلة : أنت تطيل الوقوف على قدميك في المطعم ، اجلس في وقت تراه

ثم أخذته إلى السرير وأخذت تهدده لينام باكرا . عند ظهيرة اليوم التالي فرغت ذكرى لقراءة ماكتبته عزيزة وطلبت إليها أن تقرأه بعمق ، فأحضرت الأوراق وجلست مهياً للقراءة : هذه هي الليلة السابعة التي لم ترقد فيها مليكة ، لاتقوى على فعل شيء غير أن تلبث متيقظة ، تغمض عينيها من جديد وتتحايل على حواسها بأنها غفت وودعت عالم الاستيقاظ في محاولة أخرى للهروب من تلك الانهيارات في أعصابها، تذكرها أمواج اليقظة المشتعلة بأن رموشها مالمست النوم لحظة واحدة فتمسي مجرد غفو صغيرة كحلم بعيد المنال ، ومرة أخرى يستبد بها ذات

الشعور بأن الليالي السبع الفائتة ماكانت غير محاولات فاشلة. تبرك في فرشتها ،تجرع جرعات جديدة من مرارة اليقظة المتواصلة، تمد يدها إلى مظروف الأقراص المنومة وتبتلع قرصا ، تدخن سيجارة .. تتجاوز الساعة الثانية من جديد .

ياله من وقت مزعج هذا الذي لايسرها أن تكون يقظة فيه ، لم يعد يهتما إن كانت هي التي تقرر القيام بما تقوم به من أفعال ، أم أنها تنقاد غير دارية ، فنهضت ، أو نهضت ، لافرق، إلى المطبخ ، جلست ترتشف ابريقا من البابونج .. ومن المطبخ اتجهت إلى الخارج ، تأملت السكون والمصابيح المشتعلة في الشارع ، تأملت القبط وهي تمزق أكياس القمامة الموضوعة بجانب الأبواب ، خطت تاركة الباب مفتوحا ، سارت خطوات وخطوات ، لم ترغب في العودة رغم برودة الطقس • عند وصولها إلى نهاية الشارع استدارت عائدة إلى البيت •• لافائدة ، ماتزال منطقة صناعية بكاملها تعمل في رأسها • لا بد أنه النوم ، أجل إنه النوم ياملية هذا الذي يناديك إلى دفء الفراش • تزغرد كل حاسة فيهاوتتجه إلى الفراش تغطي كامل الجسد إلى قمة رأسها باللحاف علّه يعرّق جسدها فيطول النوم • يمضي الوقت فتزداد المنطقة الصناعية نشاطا وكأنها عادت بعد أسبوع عطلة • تقذف باللحاف بعيدا وتقفز برعب ، وفي أثناء ذلك بدا لها أنها كانت غافية وهاهي وقائع حلم

خرجت منه للتو • زاد هذا الشعور من ألمها فسحبت اللحاف وعادت تتغطى به كاملة وقد تكورت تحته كأنها أرنية لاذت من الثلج بوريقات شجرة • تغمض عينيها وتبدأ تعد الأرقام ببطء شديد متخيلة أنها سوف لن تصل الخمسين ، يزداد العد ببطأ ، تكتشف أن العد تجاوز المئتين • : مليكة ، يكفي هذا التوتر ، كوني مسيطرة على نفسك • كل ماحدث لم يكن برغبتك •

لكنني وافقت عليه

كنت صغيرة يامليكة ، تظنين أن رغبتك مقترنة برغبة أبيك • تتقلب في الفراش من ظهرها إلى الجهة اليسرى متممة والدموع في عينيها : كيف للإنسان أن يبقى يدفع ثمن خطيئة واحدة مدى العمر • تنهض وكأنها في عز ظهيرة ، تدخل غرفة نوم الأولاد •• كل هؤلاء خرجوا منك يامليكة • وترمق رجلا في الثلاثين جاء ينعم بدفء الليل مع رائحة أطفاله : لقد بذر كل واحد من هؤلاء بذرة بذرة •• ثمانية أطفال يامليكة وأنت ماتزالين طفلة • إنه مستغرق في نوم وقد نسي ، ولكن هل بمقدرورك النسيان وهم يهرعون إلى حضنك كلما جاعوا وبردوا •

في الآونة الأخيرة كان يدينك بنظراته على مائدة العشاء : ستجعليني جدا وأنا ما أزال في الثلاثين • وكانت نظراتك هي التي تقول لنظراته : بل أنك الذي ستجعلني جدة وأنا في السابعة والعشرين • ردت نظراته المحدقة : ماعدت تصلحين غير أم للأولاد • • أحتاج لامرأة زوجة •

تطايرت الادانة من عينيك : جاء الأب ، خرج الأب ، نام الأب ، فاق الأب • لاتصدق أيها الأب أن هناك أنثى تهناً في بيت رجل إلا إذا كانت أنيسته الأولى ، وأنه لها أكثر من أي كائن آخر • ها أنت لم تعد غير لهؤلاء الذين أخذوك مني وأخذوني منك • مات الزوج فيك ، ماتت الزوجة فيّ •

هاهو العمر يتفتح للحياة ياملية ، زهرة الأنوثة تتفتح فيأتي الانطفاء • نسيت الثياب الجديدة • • العطور • • بعت حتى خاتم الزفاف والقيراط كي ترضعي هؤلاء الذين أتيت بهم ليغتالوا سنوات مراهمتك ولادة إثر ولادة • هل ستشعرين أن عمرك انتهى وأنك لن تمارسي طقوس ووقائع وحميمية العلاقة الزوجية مرة أخرى ، هل انتهى العمر في بدنه • انسحبت من حجرة النوم بذات الهدوء الذي ولجت فيه ، وعندما ألفت نظرة إلى الساعة رأتها تشير إلى الثالثة والثلاث ، رأيت نفسها تدخل غرفة صالون الاستقبال وتبرك جوار الهاتف • رنّ حديثه في أذنها :

لا تتصوري أن الأمر سوف يكون بالسهولة التي تتصورينها ، إنك أم  
لثمانية أولاد .

رّ كلامها : ألن تفكر أن تخرجني من سجن نفسي ولو بكلمة ، أن تمد  
إلى ضياعي كلمة أمل .

رّ هتافه : أنت منفعلة الآن ، أنصحك بترك البيت لأسبوع ، وقضاء  
وقت في إحدى القرى التي لك فيها أهل ، سيكون كل شيء على مايرام .

رّ صداها : لا - - لا - - لست منفعلة ، عندما نلتقي أشرح لك ظروفي  
ستكتشف كم أنك متسرع في نظرتك .

للحظة خاطفة اجتاحتها رغبة في التدخين ، عادت إلى غرفة نومها  
المضاعة ، سحبت سيجارة من العلبة وعادت إلى ركنها تتأمل جهاز  
الهاتف . أشعلت سيجارة بطريقة خفيفة أولى من قداحة جديدة اشترتها  
صباح أمس من بائع متجول نادى ببضاعته أمام بيتها . نفتت دخانا كثيفا  
في ركود الأجواء وتداعت في مخيلتها صور لم تكن راغبة في  
استرجاعها ، بيد أن الصور بدت مقتحمة عليها فضاء الذاكرة ، فغدت  
تسترجع كيف أن أباهما كان على علاقة بأبها قبل الزواج وأن هذه العلاقة  
أرغمت عليهما الزواج ، وهاهو شريك الحياة يفقد كل دفقة من رجولة  
وحميمية الزوج ويترك يده من يدها في منتصف الطريق ، تتذكر رنين



الهاتف المتواصل الذي لا يرد إلا إذا رفع زوجها الهاتف ، تتذكر أن زوجها المبكر ما كان إلا لخوف الأب أن تطلع البنت لأمها فلا يكون الرفيق شهما مثله .

لأول مرة اجتاحتها احساس غامض بغربة عميقة إلى أنها بدت تشك بمعرفة المكان الذي تبرك فيه ، وبمعرفة الجهات ، ومعرفة الأبواب والنوافذ . أطفأت عقب السجارة وحدقت في جهاز الهاتف ، ران كلامه : صورتك كأم لثمانية أطفال الآن هي الأجل من أي صورة أخرى كنت أو يمكن أن تكوني فيها .

دوما - - دوما - - لاتدعني أستفيض في شرح ما أقول لتعرف موقفي . . أشعر بملئ العالم وفراغ روعي ، قمت بأشياء ماكان علي القيام بها . . لكن هل يخسر الإنسان كل شيء في لحظة طيش واحدة . . هل انطفأت مصابيح العالم إلى الأبد بالنسبة لامرأة عاشت غبية في مرحلة من عمرها ، يكفي أنني أطلقت ثمانية أولاد ، أرضعتهم من حليبي . ماذا يحدث فيما لو تركت كل شيء هنا ورحلت إلى بلاد أخرى ، تعلمت لغات أخرى ، شاهدت مدنا أخرى ، ماذا يحدث لو تخلصت من هذا الإعياء المرعب الذي يفتت صفاء النهار . أنا واثقة بأنني أرى أشباحا تحوم حولي وأفقد أي قدرة على التركيز ، وأي قدرة على تمييز الناس والألوان يوما بيوم . يستوطنني إنهاك مميت ، لم أعد قادرة على

الخروج ، حتى النسيم يتأمر علي ، يضرب بسوطه وجهي • أرى أشباحا تتراقص أمامي ، وأسمع أصواتا مشوشة في أذني • بي مس من شيطان ، مس من شبح ، مس من جن و لقد نضجت تمام النضج لأكون فريسة للوساوس والهواجس والمس ، لكن لماذا تصر ألا أقترب منك ، وتصر أن تتفرج على مأساتي من بعيد ، كان علي أن أحرص على كل لحظة من لحظات عمري ، أنا محتقنة بالإستياء ، لن ينتهي العالم إذا التقينا وقمنا بمغامرة نبتغيها عليها تطفئ شيئاً من لهيب نيرانني وتخفف قليلاً مما بي من مس •

ران كلامه : بالنسبة لي هذا يعني الكثير ، لست مستعداً لمغامرة كهذه ، مغامرة لأبتغيها • الإنسان نفسه هو الذي يروي أشجار الشر في تربة روحه •

تحركت بتوتر متصاعد : يبدو أنه الشر ذاته الذي يبحث عن مخلوق واهن يستبد به •• هاهو يسكنني •

عاد كلامه إلى ذاكرتها : على الإنسان أن يكون في انتظار دائم لتوقع المصائب الكبرى التي تقع على روحه •• عليه أن يروض نفسه دوماً لتحملها ومواجهتها بذات اللحظة •

نظرت إلى السقف : لكنني فقدت كل شيء •

عاد كلامه بقوة : إنه الصراع ذاته الذي عليه أن يبقى مشتتلا في معركة الإنسان مع نفسه من أجل الانتصار .

ابتسمت كبسمة بين المقابر وددنت : لكن الحب سيأتي مرة أخرى ، لا بد أنه الحب الذي لا يموت في ضمير الإنسان ، إنه الحب الذي يحمل معه أجنحة الخلاص .

رفعت السماعه وصارت تدق على أرقام مثلما تدق على آلة كاتبة .

الرنين الأول . . تذكرت كلامه : أفضل ما تفعله ألا تتصلي بي ، أن تنسي اسمي من ذاكرتك .

تذكرت كلامها : وهل سأقدر؟! .

الرنين الثاني . . تذكرت كلامه : ليس لدي ما يقدم شيئا مجديا لك .

الرنين الثالث . . كانت أصابع الساعة تشير إلى الرابعة .

الرنين الرابع . . تناهت نبرات خافتة ، لم ترد ، ارتفعت النبرات ، اندفع صوتها : أسفة لأنني أيقظتك ، أنت الوحيد الذي لي في هذا العالم .

جاء صواته : أمانزالين متيقظة . . شكرا لاستيقاظك لي . اندفع صوتها : هل ستغلق السماعه وتتركني أهلوس مع شبحك .

ترامى صوته : سنُسمعيني شيئا لايهمني .

عندما تسمع شيئا لايهمك ، سأشرق كوردة مية ، سترى ذلك بأذنك .

لكن ، لاشيء يغري للسقوط

انفجر صوتها كشجار : إذا كنت تسميه سقوطا ، فلأجل أي شيء لا  
أسقط .

وقعت السماعه إثر ذلك من كفه ، لم يشعر برغبة كافية لإعادتها فخرج  
على الفور يعد فنجان قهوة ويستمتع لأغنية صباحية • برك بجانب النافذة  
يتأمل منظر طلوع نهار جديد فتختلط الأغاني بزقزقة العصافير الطالعة  
للتو من أعشاشها ، وكما تقع صاعقة صغيرة انتفض إثر سماع جرس  
الباب ، رغب في أن يكون ذلك وهما ، ولكن الجرس تواصل •• : هل  
يمكن أن تكون غامرت بالمجيء • انتظر علّ الصوت يكون وهما ،  
ولكن الجرس ذاته عاد يصدح في الحواس المرتبكة • دنا من الباب ••  
امتدت أصابعه الراحشة إلى الممسك ، وبكل ما أوتيت من تردد سحبت  
الباب ، فرأها تقف كشبح قبالتها ، تذكر سقوط السماعه للتو ، تراجع  
بخطا بطيئة إلى الخلف وأخذت تتقدم إليه بخطوات هزيلة وكأنها خطوات  
أخيرة لشخص على وشك الموت • لكمت قدمه بسماعة الهاتف ، فأعادها  
إلى موضعها وفجأة انفجر صوته : لكن لماذا لاتسعين لإعادة حميمية  
العلاقة بينكما ؟ • لم ترد عليه ، أعاد ما قال عشر مرات متلاحقة ، لكنها  
لبثت تنظر إليه وكأنها لاتسمع كلمة واحدة • برك على الكنبه ، بآلية راح  
وجهه يندفن في راحتي كفيه ، رغب في الخروج من الواقع بأي طريقة

وأغمض عينيهِ متجاهلاً وجودها ، مضت ساعة عليه فرفع رأسه ،  
فوجئ بعدم وجودها •  
بعد شهرين أحست المرأة بأنها كانت في بئر فخرجت ، دب النشاط فيها  
من جديد وغدت تحتضن أولادها وتولي اهتماما خاصا بزوجها في  
محاولة لتعويض برودها نحوهم خلال ستة شهور فائتة • في المساء  
هتفت له وعندما رفع سماعة الهاتف ، لم تدعه يتحدث ، قالت : شكرا  
على موقفك البطولي نحوي ، الآن أشعر بأنني بطلة ، إنني مدينة لك بكل  
ما أنا فيه من نقاء • أعاهدك بأنني لسوف أحافظ على هذا الكنز •

## الفصل السابع

الواحدة ليلا ، يستلقيان في فراشهما على ضوء النواصية الخمري الخافت  
وموسيقى هادئة تنبعث ببطء من المسجلة كأنها نهر رقرق عذب . يقول  
بشري وكأنه ينشد نشيدا : لم أكن أعلم بأن هناك امرأة في هذا الكون  
يمكن أن تعيدني لأتعلق بالحياة بهذه القوة .

عندما أستيقظ من النوم في أي لحظة فإنني أبحث لأراك بقربي وعندها أدرك أن لليقظة نكهة جديدة ماكانت في يوم قبلها • ذلك الذي لم يظفر بامرأة يحبها يثير الشفقة في نفسي لأنه يمضي حياته بدون محبة ، وأي شقي هو ذلك الذي يمضي حياته بدون دفء وبيتوتية المرأة التي تسحره بصوتها وحركاتها وعنايتها به وقبلاتها الطائفة عليه حتى وهو مستغرق في سابع نوم •

في المساء عندما أنام ويدي في يدك لاينتهي خوفي من أن يستيقظ أحدنا فلا يرى الآخر ، وعندها ستنطفئ الحياة مجددا وتأتي أصابع الأشباح لتستبد بكل شعور جميل عشناه معا ، أظن بأنني سأكون قد خسرت كل شيء سواء كان الفراق بي أو بك ، وهذه المساءات الفائضة بالحوية والفائضة بكل شيء جميل ، كل هذا العالم الذي نعيشه معا هل سينتهي إلى الأبد ويتحول إلى شيء من إرث الماضي •

هنا ياذكري ليس بوسعي أن أتخيل مرارة أن يأتي رجل آخر فيدخل هذا البيت ويأخذ كل شيء يخصني •

سيكون مؤلما بالنسبة لي أينما كانت روعي أن تكوني مع رجل آخر ، سيؤلمني ذلك وستكون خسارتك هي الأفدح من خسارة أي شيء آخر يربطني بالحياة • أجل بي رغبة ألا يمكث أحدنا ساعة بعيدا عن الآخر ، وكم ستكون مؤلمة تلك الساعة التي يفصل فيها بيننا عالم كامل نجهل كل



شيء عنه ، ولكن عندما تكون يدك بيدي وتكون يدي بيدك سندخل إلى أي مكان مجهول أو مظلم بشجاعة لأننا نكون معا وسنكون أقوىاء بهذا الحب الكبير الذي يحمله أحدنا للآخر وسوف يكون الله إلى جانبنا • لن نياس ياذكرى من أن نلتقي مرة أخرى ، تلك الأقدار التي جعلتنا نلتقي في زمان ومكان وظروف كهذه ، سيكون بإمكانها أن تجعلنا نلتقي في أماكن وأزمنة وظروف أخرى • كل شيء إذا مات وتحول إلى رمار ياذكرى فإن الحب الكبير وحده يبقى حيا ولن يتحول إلى رماد ، على أجنحته تتحقق المعجزات الكبرى •

تهمس ذكرى وقد غاصت عيناها بدموع غزار ، والهمس يخرج ثقيلاً كجبل معبأ بشحنة البكاء : هاهي الحياة تزداد دفناً وإشراقاً إلى درجة أننا تعلقنا بها بكل هذه القوة • الحياة الجميلة تحمل سريرنا على جناحها وتحلق بنا في سماوات الله الرحبة • الحياة تكون مشرقة بوجود الله فيها ، كل لمسة جمال تراها هي لمسة من الله ، دوما يهب الله الفرص السخية لنا لنكتشف جمالية الحياة وكنوزها ونصلح من شأن أنفسنا ، إنه لا ينظر أن يعاقبنا ، ينظر أن يعفو عنا ، ولذلك كانت مساحات العفو هي أكثر سعة من مساحات العقاب .

• أنا متفائلة بالعلاقة المتبادلة بين الله والإنسان وبين الإنسان والإنسان •

لأأريد أن يستبد بك خوف وأنت تؤمن بعدالة الله الكبرى ، هذه العدالة التي تلازم الإنسان أينما كان • ما أغمضت عيني يوما إلا وحلقت في فضاءاته بنشوة • إنني راغبة في لقاء الله ، لأننا هناك عندما نلتقي عند الله ، سيكون اللقاء أكثر حميمية ، سيبدو أمامه لقاءنا هذا باردا كحلم مضى ، ليس لحبنا أي مستقبل بعيدا عن يدي الله ، إن اللقاء عند الله هو مستقبل حبنا ، ليس من أحد بإمكانه أن يهرب من يدي الله لأنه لم يسبق لإنسان أن تمكن من الهرب من لقاء الله • الإنسان الذي أتى من الله فسوف يعود إليه ، ولكن لماذا يستبد بك الخوف من العودة إلى من أتيت منه ، عندما أعود إلى يدي ربي فإنني أحلق إليه كطائر مغرد بأمان ، لن أقلق على مصير شخص عزيز علي لأنني سأتركه بين يدي ربه الرحيمتين •

لن أسف على الحياة التي تركتها والذكريات التي عشتها لأن الله هو الذي ناداني النداء الذي لبثت عمري في انتظاره ، ستذهب يابشري إلى من هو خير مني ، ستذهب إلى من يحبك أكثر مني ومن تحبه أكثر مني ، إلى من يرحمك أكثر مني • لو حدث وولدت هنا دون إله ، للبثت طوال عمري أبحث عن إله عادل كالهي ، ولو لم أجده لراق لي أن يكون هذا في محض الخيال • نفس الإنسان تحدثه بأفكار وتصورات شتى ، ولاشيء في هذا يابشري •

قال النبي لأمتة : / إن الله تجاوز لي عن أمتي فيما حدثت به نفسها  
• / الله يرضى عن الإنسان والإنسان يرضى عن ربه ولذلك فإن  
رضا الله عن الإنسان يجعله يمد في بقاء الإنسان ، ورضا الإنسان يجعله  
يستمر في عبادته واللجوء إلى ربه في الضيق والفرج ، وهو يسعى إلى  
الخلود بكل الوسائل حتى أنه في النهاية وكي لا يترك الأرض خالية من  
رائحته فإنه يتواصل في الزواج والتكاثر • إنه يضمن خلود رائحته في  
الأرض هذه الرائحة التي هي عزائه الوحيد في الجهود التي بذلها خلال  
رحلة عمره وذكرياته الحميمية في دفء العيش على سطح كوكب  
سحري بهي مدهش كهذا •

عندما يستصلح الأراضي وقيم المشاريع الصناعية الكبرى وبيني  
الأرض ، فإنه يقدم ذلك لورثته ، وعدذاك وإن كان لا يموت سعيدا ، بيد  
أنه يموت وبه شيء من طمأنينة ، حتى هذه الموسيقى الرائعة التي تهدئ  
أعصابنا وتهذب نفوسنا فإن قائلها تركها لنا وليس لنفسه ، وكان بوسعه  
أن يكتفي لوحده بسماعها ، لكنها الآن تنبض بروحه • وهذه الفنون  
والآداب تحرك نفوسنا وتدفعنا إلى اليقظة والحكمة والشروق ، أما  
نظرت إلى عظمة الفن في رقص الباليه • إن الله غني بكل شيء ولذلك  
جعل من إنسانه غنيا بكل شيء •

يرفع الله عن الإنسان كل دواعي الملل والضجر والعيش بوتيرة واحدة ،  
ويحقق له التنوع والتجدد • يقول الله لك يا بشري : / جعلت لك سمعا  
لطيفا وبصرا حادا وحواسّ دراية وقلبا ذكيا وفهما ثاقبا وذهنا صافيا  
وفكرا لطيفا ولسانا فصيحاً وعقلاً رصينا وبنية تامة وصورة حسنة  
وأعضاء صحيحة وأدوات كاملة وجوارح طائفة •  
ثم ألهمتكَ الكلام المقال ، وعرفتكَ المنافع والمضار وكيفية التصرف  
بالأفعال والصنائع والأعمال ، وكشفتُ الحجب عن بصرك وفتحتُ  
عينيك لتتنظر إلى ملكوتي وترى مجاري الليل والنهار والأفلاك الدوارة  
والكواكب السيارة وعلمتكَ حساب الأوقات والأزمان والشهور والأعوام  
والسنين والأيام وسخرت لك مافي البر والبحر من المعادن والنبات  
والحيوان تتصرف بها تصرف الملائك وتتحكم فيها تحكم الأرباب / •  
ثم يذكرك حتى لا تنسى : فلما رأيتك متعدياً جائراً باغياً ، خاننا ظالماً  
طاغياً متجاوز الحد والمقدار ، عرّفناك الحدود والأحكام والقياس والمقدار  
والعدل والإنصاف والحق والصواب والخير والمعروف والسيرة العادلة  
ليدوم لك الفضل والنعيم ويُصرف عنك العذاب والنقم ، وغرضتكَ لما  
هو خير لك وأفضل وأشرف وأعز وأكرم وألذ وأنعم ، يا عبدي إذا تعذر  
عليك فعل شيء مما أمرتكَ به فقل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم  
كما قالت حملة العرش لما ثقل عليهم حملة .

الإنسان يحب ربه ويحب الحياة التي يعقد علاقات غاية في الحميمية فيها ، ولذلك ينجب أطفالا بسعادة ويعلمهم محبة الله ومحبة الحياة • يكفي الإنسان رقيًا أنه استطاع أن يقدم شخصا راقيا مثل / محمد / •

لكن على الإنسان أن يقبل بفكرة الموت حتى يأخذ أشكالا متجددة في اكتشافه لمختلف المراحل التي لها جمالياتها وخصوصياتها ، وحتى لا يبقى يدور في فلك جامد واحد ، عليه أن يرتفع إلى يدي الله لتأخذانه إلى أمكنة وأزمنة جديدة لم يرها أو يسمع بها من قبل ، وكذلك حتى يدع فسحة لأبنائه ليمروا بتجربة الحياة القصيرة هذه • التراوح في المكان يبعث على الملل ياسيدي ، فلو لبثنا هنا إلى الأبد لماترددنا من البحث عن وسيلة تخفف عنا وطأة الملل ، فليس بوسعك أن تمكث نصف مليون سنة مثلا هنا على وتيرة واحدة ، وكم من الأطفال ستنجب ، لسوف تشعر عندذاك بضياح ، وأنت تسأل الله أن يتدخل ليعث فيك تجددا •

لكن الله دوما ينظر إليك بقوة عدله فيجدد الحياة بتجدد الإنسان فيها ، ويجدد الإنسان بتجدد الحياة فيه • عندما جاء ملك الموت إلى خليل الله ابراهيم ليقبض روحه قال له : كيف الخليل يقبض روح الخليل؟! •

عندها توقف قابض الروح عن مهمته حتى أعلمه الله ليحيب : هل الخليل يكره لقاء خليله • هناك أناس لسوف يأتون ويعيشون كل هذا الدفء والصقيع ، كل هذا الهدوء والعنفوان معا •

هؤلاء أيضا سوف يأتون من الله ويعودون إليه ، سوف تزداد أعداد الناس في السجل البشري ، وأينما حلت هذه الحشود الكبرى سوف تحل معها البركة الإلهية ، هؤلاء سوف لن يشعروا بأي وحشة أينما حلوا لأن التجمع والتآلف والتوادم يولد السكينة في أفئدتهم • إن ملائكة الله يكونون مع عباد الله هؤلاء أينما حلوا، لأنهم في استضافة الله ، لذلك يابشري إن محبة الإنسان لهي أسمى علاقة ينبض بها القلب تجاه الروح الإنسانية المشتركة ، دوما ابحث عن شخص حزين لتخفف شيئا من حزنه ، دوما قدم شيئا يسر ، إياك ياسيدي أن تسبب ألما ولو للحظة واحدة لإنسان ، إن محبة الإنسان هي من محبة الله • دوما انظر إلى كل هؤلاء على أنك أب وأخ وابن وعم وخال لهم مهما كانت أديانهم ولغاتهم وألوانهم ، إنك لن تكون سعيدا إلا بقدر ما ينبض قلبك بحب كل هؤلاء •

قال بشري : لكن الموت مر يا ذكري ، قبل أن أعرفك كان ذلك لا يخطر لي على بال ، كانت الحياة سيان مع الموت ، الآن حبي لك هو الذي يبعث في نفسي كل هذه المرارة من جحيم الفراق •

لنكن أكثر هدوءا ونحن نتحدث في عشنا الزوجي الآمن هذا ، في مملكة حبنا المدهشة هذه ، لنكن أكثر سكينة ، فأنت ياسيدي تتحدث عن أمر لم تره ، وأنك تضع تصورا وبناء على هذا التصور يأتي حكمك ، عندذاك

سوف ننظر إلى الموت ونحن فيه كما أننا ننظر إلى الحياة الآن ونحن فيها •

هل سيكون بإمكاننا أن نرى الله ؟

النبي قال : / رأيت ربي عز وجل / والقرآن يقول : / وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها / • ولكن علينا أن نرتقي إلى درجة النظر إلى نور السموات والأرض • ليلة الإسراء ارتقى النبي في السموات ولبث يرتقي إلى أن بلغ سدرة المنتهى •

\* \* \*

في الصباح هتفت خورشيدة لذكرى وقالت بأنها سوف تزورها برفقة زوجها مساء غد إن لم تكن مرتبطة بموعد • أحست ذكرى باحراج شديد من الموقف وهي مترددة في أن توافق أو تنتظر إلى وقت زوجها ومدى تهيئه لاستقبالهما • ولكنها تشجعت قائلة : سوف أتصل ببشري لأرى إن كان مرتبطا بموعد ، وأعود للاتصال بك لنتفق • قالت خورشيدة وهي تبتسم : كل يوم تزادين نضجا يا ذكرى حتى أكاد أرى بأنك امتلأت بالحياة •

قالت ذكرى : المسألة أبسط مما تتصورينها • قد يكون مرتبطا بزيارة عائلية أتنه في العمل • كان النبي يقول ياخورشيدة أنه لو أمر إنسانا يسجد لإنسان ، لأمر الزوجة أن تسجد لزوجها • ولكن بشري بعد لحظات أبدى ترحابه وسعاده باستقبال خورشيدة وزوجها للعشاء

لأنه منذ اللقاء بها عندما روت قصتها أحس بلطافتها وحكمتها ، و رغب التعرف بزوجها حتى يكون صديقا له • مساء يوم غد عاد بشري مبكرا من عمله ، وانتظروا قدوم ضيفيهما ، عند الساعة السابعة والنصف مساء رن جرس الباب ، فدخل رجل لأول مرة إلى هذا البيت ، رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، أحمر البشرة يميل بقامته إلى القصر ، ممتلئ الصحة ، أصلع الرأس ، يبدو بعض الشعر المائل للبياض على فوديه ، وعقبته خورشيدة والبسمة تملأ فمها .

راحت خورشيدة تقبل صديقتها وراح الرجل يصافح بشري ، فقالت خورشيدة في تلك اللحظة : هذا هو زوجي موسى الذي حدثتكما عنه • قال موسى : كم تقف للتعرف عليك ياعزيزي ، أرجو أن تجمعنا صداقة كتلك التي تجمع زوجتينا • قال بشري : إني لأرجو ذلك يا صديقي ، ثم أخذ كفه وبالكف الأخرى ربت على كتفه قائلا ببسمة : أقدم لك زوجتي



ذكرى . فمد موسى يده يصادفها : إني سعيد برؤيتك مدا م ، أكاد أعرفك كما تعرفك خورشيدة وهي لاتمل الحديث عن صداقتكما • أردف بشري وعبارات الاحتفاء تتكرر في فمه : وهذا ابني نجم • تقدم نجم مسلما على موسى الذي انحنى قبله على جبهته • جلسوا جميعا فقدمت لهم ذكرى في البدء عصير البرتقال المجفف ليفتح الشهية لوجبة العشاء التي أخذت ست ساعات عمل من ربة البيت الفتية • وبعد حديث تعارف قصير دعتهم ذكرى إلى المائدة • استغرق ذلك نحو ساعة فعادوا جميعا إلى الصالون • عندئذ قالت ذكرى وهي تنظر في عيني خورشيدة : أصارك بأني متشوقة لحديثك • وعقب بشري بتوق : ليتك تسمعينا شيئا من نظرتك عن الحياة والموت •

قالت خورشيدة : ولماذا يابشري ترى الحديث في هذا الموضوع • لأنني أشعر بتعلق هائل بالحياة ، ولكن فكرة الموت تقلقني • قال موسى : ربما لأنك دخلت إلى حياة جديدة ، هذا شعور برأيي يلزم كل محبي الحياة الذين لديهم علاقات ثمينة في الحياة ، ولذلك يتسامحون حتى مع أولئك الذين يسيئون إليهم حفاظا على تلك العلاقات الثمينة كي لا يخسروها ، أو يبتعدوا عنها ، أما أولئك الذين لاارتباطات ثمينة ولا علاقات حميمية لديهم فيميلون إلى المغامرات لأن لاشيء يخسرونه •

قالت ذكرى معقبة : هؤلاء لاتقلقهم فكرة الموت لأن الحياة ذاتها لاتعني لهم شيئاً ، الحياة تقترن بوجود الآخر الذي أنت متعلق به . ثم نظرت إلى خورشيدة مردفة : الحقيقة أرى أن خورشيدة لديها المقدرة لحديث كهذا ، وبى رغبة يا صديقتي أن أسمع معهم حديثك الذي اشتقت إليه . ولما رأته الرغبة ملحة لديهم جميعاً قالت : منذ اللحظات الأولى التي يفتح فيها الإنسان عينيه ليرى العالم ، ويغدو أحد سكنة الأرض ، يحمل معه بذور الصراع مع ظلمات لاتنتهي بدءاً من ظلمة الروح ومروراً بظلمة الحياة إلى ظلمة القبر . يغريه كل ما هو غامض وسري ومجهول ، فيكون دائم الرغبة والحاجة لاختراق المجهول وسبر أغواره . إذ أنه قدم من مكان مجهول ، ويقوم في مكان مجهول لايعرف شيئاً عنه ، ويمضي نحو مصير مجهول كذلك . إنه مخلوق باحث في الظلمات عن اكتشاف سراج ما ، مخلوق باحث في ظلمات نفسه عن نفسه .

عندما يتأمل الوجود في لحظات ما ، يعتريه إحساس مرير بالضياح الكلي في مملكة الحياة المجهولة ، يدرك حجم ضياعه وضعفه في عالم الحياة والأشياء الواسع ، فتتوالد في كوامنه نزعات متناقضة ، فهو أكثر الكائنات الحيائية تناقضاً ، يمكن له أن يبلغ ذروة السلوك العدوانى في الوقت الذي يبلغ فيه ذروة السلوك التسامحى ، ذروة الرتبة وذروة الفوضى ، ذروة التعقل في الوقت الذي يمارس فيه أقصى حالات الجنون

• ، يمكن له أن يمارس الاغتيال في الوقت الذي يمارس فيه الإنجاب ،  
ومن ناحية مختلفة، فعندما يشعر هذا الإنسان بأنه نضج تمام النضج  
للحياة فإنه بذات الوقت بأنه نضج تمام النضج للموت .  
أرى أن بشري به شعور بأنه نضج تمام النضج ليفرغ طاقات حبه في  
المرأة التي أعجبه وأعجبها ، ويشعر بأنه اتحد معها واتحدت معه في  
الروح ، ولكن هذا بذاته يولد حالة من الفزع للموت الذي يمكن أن يقع  
في أي لحظة فينتزع منه كل شيء ، أو ينتزعه من كل شيء انتزاعا .  
يمكن للإنسان أن يرتب أوراق نفسه ، ويعتمد في جانب كبير من هذا  
الترتيب على أشكال الثقافة المتنوعة كي يكون أكثر انفتاحا على الحياة ،  
وأن يمنع نفسه التوقع في دائرة مغلقة ، وأنا أقترح أن تسافرا خارج  
البلاد لشهر أو شهرين ، أن يكون السفر إلى بلاد مختلفة من حيث اللغة  
والطبائع والتركيبات الاجتماعية .  
لم يفه أحد بكلمة وكأنهم لا يريدون قطع تسلسل أفكارها ، رغم أنها  
توقفت لبرهة ، فاستأنفت الحديث بنبرتها الهادئة : يعتمد الإنسان في  
بعض مراحل حياته على الخيال بحثا عن نفسه في ظلمات نفسه ، وبحثا  
عن واقعه في ظلمات واقعه ، إذ أن الخيال يبدي له في مواضع كثيرة  
ماتخفيه الحقيقة ويقدم له بذور واقع أبهى كان خافيا عليه . إنه كائن  
خيالي بالدرجة الأولى ، وما به من خيال لهو أعلى مما به من واقع ،

وما يشغله من خيال لهو أكثر مما يشغله من واقع ، وهو يعقد بما لا كبرى على الخيال أوسع مما يعقدها على الواقع ، هذه الخيالية المشرقة تميز الكائن البشري عن بقية الكائنا الحياتية التي تشاركه السكن في الأرض • ينظر هذا الإنسان إلى نفسه على أنه كائن مطارد ، ففي مرحلة المراهقة تطارده سلطة المغامرات ، وما أن يتجاوز سنوات الرشد والبلوغ حتى يتنازع مع سلطات أكثر حدة : الايديولوجيا ، الدين ، الاقتصاد ، المعرفة ، السياسة •

كلما يدخل مرحلة جديدة من عمره تتبدى أمام روجه سلطة جديدة حتى ليبدو أمامه بأنه كائن مُطارَد منذ مهده وحتى لحدده • عندما يولد يبكي خوفا من الكوكب المجهول الذي أتى إليه ، وعندما يموت يبكي حزنا على فراقه •

مرة كانت ذكرى في بيتي تتحدث عن المحبة ، وعندما ذهبت لأحضر شايا يبدو بأنها كتبت شيئا على صفحة بيضاء ونست أن تأخذه إلى دفترها الذي اعتادت أن تكتب أفكارها عليه ، ولكن ذاكرتي أبت أن تنسى ذاك المقطع الذي قرأته وتأملته كثيرا • كتبت على صفحة بيضاء :

التقى عاشقان في الغسق تحت شجرة خوخ  
قال لها : لن أتركك إلى الأبد

قالت : هل تعدني  
قال : أعدك  
قالت : هل تعدني أنك لن تتركني أموت  
نظر إليها ، وفارت عيناه بالدموع •

صمتت خورشيدة فعقب موسى على الفور : برأيي هذا أمر طبيعي مادام  
يقترن بالولادة ، ولكن الذي يثير الأسى هو أن يأتي هذا الإنسان فيمارس  
العنف بحق أخيه ، يأتي فيسلبه حياته •  
قالت ذكرى : ياموسى هذه أسوأ أشكال الأنانية ، لأن الإنسان عندذاك  
يبلغ مرحلة يشعر بها أن ممتلكات الكون كلها هي من ملكه ولايحق لأحد  
أن يتنفس حتى نسمة هواء •  
قال موسى : لعل اسم هولالكو يفرض ذاته بقوة في حديث كهذا ، فهو  
مارس قتل نحو مليون إنسان وراح يشكل هرما من الجثث ، ويحيل نهر  
دجلة إلى دماء ، ثم يذهب فيجلس في قصر المستعصم ويقول له  
مستهزءا : سنسهر الليلة في قصرك يامستعصم ، نصخب ونعربد ، ما  
رأيك • ولما يثقل السكر رأسه يقول : استعد يامستعصم ، مكافأتي لك  
ستكون مجزية ، هل تستطيع أن تخمن ، لكن قبل أن أمنحك المكافأة ،

هل تدلني على مخبأ الجواهر حيث الذهب والفضة والماس والأحجار  
الكريمة •• جواهر الخمسة قرون التي ازدهر فيها الحكم العباسي •  
يشير المستعصم إلى مكانها ، وعندذاك يتناولها هولاءكو ويقول للخليفة :  
هاأنا أملك العالم بسيفي وذهبي ، وهاهي الأرض ملك يميني، ومكافأتي  
هي قطع رأسك • وكان المستعصم قد سخر من هولاءكو عندما قال بأنه /  
ممثل السماء على الأرض / • وكان البطريارك / مكيفا / نفسه تدخل  
متوسطا للمستعصم أمام هولاءكو ، لكنه رفض وساطة البطريارك قائلاً له  
: إنني أريد الإنتقام لأنه وصفتي بالوعد ، وكذلك أعلن التمرد علي  
واستهزأ بصفتي ممثل السماء على الأرض • هذا الرجل الذي يظن بأنه  
يستمد حياته ويحقق ألوهيته بمقدار ما يعتدي على حياة الآخرين ويمتلك  
من أرض يستمر في فكرته فيذهب إلى الناصر يوسف حفيد صلاح الدين  
في حلب ويجتث رأسه بعد أن يخنقه بوضع لحمه في فمه ، ثم يرفع  
رأسه على سن حربته ويطوف بها بين جنوده ، ويقتل خمسين ألف  
شخص في هذه المدينة كذلك ويستولي عليها • لعل تاريخ نيرون يعطي  
صورة عن هذه المقارنة ، فقد تمكنت أمه أن تنصب ابنها المراهق البالغ  
من العمر ستة عشر سنة ليحكم الامبراطورية الرومانية ، وما إن تمكن  
من الامبراطورية حتى بدأت نوازعه العدوانية في الظهور ، فقتل ابن  
أخيه بالتبني برتانيكوس بن كلوديوس حتى لاينازعه على العرش ،

ويبني علاقة غير شرعية مع بوباياسا بينا زوجة أحد المقربين إليه ، وعندما تأتي أمه جربينا فتوبخه على عدوانيته بحق ابن أخيه ، وعلاقته الأثمة مع بوبايا ، لا يتردد من قتلها كذلك ، لأنه يريد أن يتخلص من كل شخص يمكن له أن يمارس عليه نفوذاً ، فيستمر في عدوانيته حتى يقتل زوجته أوكتافيا ، ويعلمن زواجه من عشيقته بوبايا •

عندما بلغ هذا الرجل الثانية والعشرين كان قد تخلص من معظم من لهم صلة قربي به ، وعندذاك بدأت نوازعه العدوانية تظهر بأشكال مختلفة في محاولات يائسة لسلب الناس مواهبهم وإمكاناتهم وكفاءاتهم ، ويظهر ميوله للتراث الفني الهلليسييني وللمباريات الرياضية والمسرح الروماني ، فيشارك فعليا في المباريات الإغريقية التي تقام في دلفي وألمبيا ويفوز نيرون في ألف وثمانمائة مرة بالمرتبة الأولى • ثم بنى قصرا هائلا أسماه / البيت الذهبي / ملأه بالتحف وروائع النحت الإغريقي ، ووضع تمثالا هائلا له بطول ١٢٠ قدما • كانت السنوات تزيد عنفا حتى توصل إلى حرق إمبراطوريته ، وقد قام بنشب الحريق الهائل ثم عاد إلى قصره ، أمسك بقيثارة وصار يغني عن / طروادة تحترق / • ولكن روما لم تحترق كلها ، فقام بعد أيام باشعال الجزء المتبقي من إمبراطوريته فامتدت النيران هذه المرة إلى معظم الأحياء • في تلك اللحظات ترك إمبراطوريته المحروقة وتوج عنفه بحق نفسه وهو ينتحر

بشكل مأساوي منشدا قصيدة / أوديب في المنفى / ، يغرز الخنجر في عنقه ويردد نشيد العنف الأخير : قرينتي وأمي وأبي قد دفعوا بي إلى حتفي ، يالي من فنان عظيم يلقي حتفه .

العنف لا يقتصر على زمان ومكان وأمة وشكل ، إنه يأخذ أشكالا مختلفة . كان كاليغولا يقول : ليس هناك قدر متفهم ، لذا أختار أن ألعب دور القدر . إنني ألبس الوجه الغبي الغامض لإله محترف . يمكن لأي إنسان أن يلعب الدور الرئيسي في الكوميديا الإلهية ويصبح إلها . كل ما يحتاج إليه هو أن يقسي قلبه . وكان يقول مدافعا عن نزعته العدوانية : إنها الحقيقة ، كوني لأحترم الحياة الإنسانية أكثر مما أحترم حياتي الخاصة ، وإذا كنت أجد القتل سهلا ، فما ذلك إلا لأن الموت سهل بالنسبة لي . وينتهي في أواخر حياته إلى أن يخنق عشيقته كايرونيا تتويجا لنزعته وهو ينظر إليها في المرأة تتحول إلى جثة ، ولكنه يلقي العنف ذاته من الناس الذين يقعون عليه ضربا حتى يلقي حتفه .

حتى نموذج هتلر لم يملك إلا أن يتوج عنفه بحق أقرب الناس إليه ثم بحق نفسه . كان يدافع عن نزعته العدوانية شارحا : الجماهير كالمرأة تريد أن يسيطر عليها رجل قوي لارجل ضعيف ، ولهذا فإنها تحب الحاكم القوي لاالحاكم المتضرع المتوسل ، وهي في أعماقها تكون أكثر اقتناعا بالنظرية التي لاتتسامح مع الخصوم . فهو شديد الثقة بأفكاره



ويريد أن تسري على كافة شرائح الناس بمختلف ثقافتهم ومقاماتهم ومواقعهم ولذلك يأمر أن تذهب توجهاته هذه حتى إلى طلبة المدارس في الصفوف الأولية فيوجه المعلمين إلى أن : هدف التربية ألا يؤكد الفرد ذاته ، وأن الطفل في المدرسة ينبغي أن يتعلم الصمت ، أن يكون صامتا ليس فحسب عندما يوجه إليه اللوم ، بل عليه أن يتعلم أيضا إذا دعت الضرورة أن يتحمل الظلم بصمت .

قالت ذكرى : برأيي يدور الإنسان في دوامتي الشر المتمثل في الجانب الأبرز منه في الحروب الفردية والجماعية ، والخير المتمثل في محاولة إعادة بناء ما تم تدميره في الإنسان والأرض . فالموسيقى جاء بها الإنسان لتخفف من الآلام التي سببها الإنسان لنفسه ، وكذلك الفنون والآداب ، وفي العلاج العضوي يطور الإنسان السلمي أدواته مع تطور وسائل العنف التي يقوم بها الإنسان السلبي . فعندما يتطور الخنجر إلى رشاش ، يقابله تطور الكشف الحسي إلى الإيكوغرافي . كل ما استطاع الإنسان أن يأتي به من منجزات تقنية كانت إلى جانب ما يأتي به من منجزات في ألوان العنف .

قال بشري : يبقى للموت سواده الدائم على مر الزمن ، الموت حدث أبدي يتعرض له الإنسان عبر التاريخ البشري ، لكن الحياة المفعمة

بالعمل والحب هي كفاح مستمر في مواجهة الموت وفي مواجهة فكرة الموت • ليس بالضرورة أن يجهد الموت تفكيرنا ويعشعش في المخيلة ، المهم أن نقاوم كافة أشكال الموت ونصر على إشراق الحياة •

عقبت خورشيدة : مع بدايات تشكل الوعي ، يتشكل الشعور الأعمق بالموت في الذات البشرية ، وما يعزز هذا الشعور هو رؤية موت / الآخر / باستمرار ، ومن ثنائية الحي والميت تولد نزعات مختلفة لدى / أنا / الحي • فمحاولة الاستنساخ تفود في النهاية إلى سعي الإنسان إلى شكل ولو أولي للخلود ، والطبيب الذي يجهد طوال الوقت لينقذ حياة مريض يشعر بسعادة عندما ينجح في ذلك ، لكن صورة الموت تتراءى أمامه عندما يفشل في مهمته ، فلا يتردد أن يتخيل نفسه ميتا بدل المريض الميت الممدد أمامه • فيخرج مستاء من غرفة العلاج وعلى وجهه الحزن والأسى • ويمكن أن تتطور العلاقة بين الطبيب ومريضه فيشعر الطبيب بألم عندما يتألم مريضه ، ويشعر برضى عندما يكون مريضه في سكينه • هذه العلاقة يمكن أن تتوالد بكثرة بين أطباء الروح ومرضاهم ، فترى الطبيب يسهر طوال الليل مضطربا عندما يتحسس أن مريضه مضطرب في ركن آخر •

قال موسى : ما يكون مجديا هو أن يؤمن أحدنا بحق الآخر في الحياة والعمل وقول شيء جديد لم يقله أحد قبله .  
هناك في اعماق كل شخص يستقر عالم كامل مستقل ومتفرد كفرادانية اي فرد وعلينا ان نتصوركم من العوالم موجودة في اعماق عدد سكان العالم . عندما يولد الانسان يولد معه عالمه المختلف كلياً عن عالم اي كائن آخر غيره، كل انسان يأتي بالجديد الذي لم يُكتشف من قبل ويعيش تفاصيل حياتية لم يعيشها أحد قبله وينظر إلى الحياة نظرات لم ينظرها أحد قبله وهذه الاستقلالية الذاتية والروحية تفرز التمييز الفردي وأيضاً تولد منها النرجسية بمختلف مستوياتها ونزعاتها.  
اذن الفرد واي فرد هنا بمفهومه ومواقفه يعرف ما لا يعرفه غيره ولديه ما ليس لدى غيره ولديه ثقة بنفسه اكثر من اي شخص اخر وايضا ربما يعلم المجهول او شيئاً من الغيب بحدسه مثلاً، قد نلتقي بشخص يقال بانه عندما يلقي بنظراته على اي شخص اخر فانه يستبطن ان كان سيعيش طويلاً أو لا، أو يقول آخر بان حادثة ما ستقع او غير ذلك او ان شخصاً ما نسمعه في احدى المناسبات يقول بانه يعلم اشياء خفية تخص جماعة او مدينة او دولة بحدسه فيصح ما يقوله فيما بعد . علينا ان نحترم الناس اجمعين على مختلف مستوياتهم الفكرية والعقلية والشخصية والاجتماعية والميولية وعلى هذا لا يوجد اغبياء في العالم، فكل انسان يحمل في

روحه اسراره وخفاياه، نحن لا نستطيع ان نفعل شيئاً بدون الاخرين ولا نستطيع ان نحقق شرط وجودنا الانساني بدون احترام الاخرين وعلينا ان نعترف باننا من صناعة الاخرين من صناعة افكارهم ورعاتهم وطاقتهم والامهم ولقد صنعونا فكيف نحاربهم ونعيش في قطيعة عنهم او نتعالى عليهم وقد اطعمونا حليبهم وخبزهم وزيتونهم وبصلهم وعدسهم،، نستعبدهم او نستهزىء بهم . اي فرد هو امتداد للغير واي حادث يصيب اي طفل في اي قرية من قرى العالم فهو اصابة لسكان الارض اجمعين. بالنسبة لي ولخورشيدة ننظر الى اي شخص على انه يعلم ما لانعلم وندنو منه ونتعلم منه حتى لوطننا للوهلة الاولى بانه سفيه وما ادرانا انه لا ينظر النظرة ذاتها الينا - فلدیه ماليس لدينا واوتي ما لم نؤت مثلما اوتينا ما لم يؤت ، فنحن نعيش بفضل الاخرين ولكل شخص فضل على الاخر سواء من الاموات او الاحياء ، نحن ندين للعالم بتعلمنا اللغة واستماعنا الموسيقى وتعلمنا السباحة وقراءتنا للروايات المذهلة والقصائد الجميلة وسكنانا واستخدامنا للاختراعات البشرية وبقدر هذا الاعتراف علينا ان نصر على وضع لبنة على عمارة الحياة الخالدة التي وضع اساسها اجدادنا اولئك القدامى ، وما دمنا نحب الاخرين علينا أن نتعلم السماح والهبات نعطي حتى ثيابنا وما في جيوبنا لاننا من صنعهم واخذنا منهم ما هو اهم وارحب . نستطيع ان نمسح دمعة ما ونضع

مكانها افتتارة ثغر؁ أبل إن الشمس الشمس تشرق وكل ما حولنا  
يصرخ ويقول انها الحياة الرائعة التي تحمل لنا مفاجآت مذهلة •  
نهضت ذكرى متجهة إلى المطبخ؁ وبعد قليل عادت تحمل على صينية  
كبيرة أطباق الرز والحليب بجوز الهند؁ تناول كل واحد صحنًا؁ وفي  
غمرة ذلك خطر لبشري أن يضفي جوا من المرح على السهرة فقال :  
منذ أيام جاء زبون إلى المطعم وبعد أن تغدى قال بأن لديه ساعة فراغ  
يريد أن يقضيها عندنا • رحبنا به فقال بأنه يريد أن يروي قصة كي  
لانضجر جلوسه؁ فعرفنا بأنه رجل ظريف يحب أن يضفي روح النكتة  
أيما حل •

أشعل الرجل سيجارة ورشف رشفة شاي ساخن قائلاً : رغم مسافة  
خمسمائة متر بين بيتي وبيت علي بطه فإننا نتعامل كجيران في هذا  
الحي غير المنظم بالقرب من حدود تركيا؁ وهو رجل في الستين من  
عمره؁ له أولاد يماثلونني في السن؁ قصير القامة إلى حد القزم؁ جهم  
الوجه؁ ذو نظرات حادة؁ له حاجبان كثيفان؁ كثير السعال؁ يرتدي  
حتى في الأعياد ثياباً رثة؁ ويبدو للمرء أن هذا الرجل لم يستحم منذ أن  
أنجبته أمه؁ يحمل بيده حقيبة متوسطة الحجم ويدور في البيوت يلحم  
تتكات الجبن التي يخفيها الناس للمونة؁ والأواني المعدنية المثقوبة؁  
وفي بيته يملأ بوابير الغاز الصغيرة؁ أحياناً تزورنا زوجته وأحياناً

يزورنا هو ، ولكن هذه الزيارات نادرة كأيام الأعياد أو الواجبات الاجتماعية التي تطراً بين الجيران • وأذكر أنني زرت بيت علي بطه مرتين ، مرة منذ عشر سنوات عندما اشترى أبي منه بسكليتاً وأرسلني لأجلبه إلى بيتنا ، وكان بدون مقعد ولا يصلح للركوب ، فقال أبي بأنه اشتراه من علي بطه بمبلغ زهيد ليصلحه ويبيعه • المرة الثانية التي زرت فيها بيته كانت منذ ثلاث سنوات عندما أصابت ابنه الطفل / حَمَدُو / رصاصة في عرس بالحي فذهبت أعزيه • أما هذه الزيارة الثالثة فقد حدثت منذ شهرين عندما اتفقنا نحن من نعد أنفسنا جوار علي بطه لزيارته حين سمعنا أن أحد حراس الحدود أطلق على جارنا النار وهو حالياً في الفراش بين الموت والحياة • اتجهنا نساء ورجالا صوب بيت جارنا على شكل قافلة • دخلنا حوشه الواسع فاتجهت النساء إلى حيث جمعهن ، واتجهنا إلى غرفة الرجال التي يستلقي فيها علي بطه في فراشه مستقبلاً الناس • بوصولنا إلى باب الغرفة تنهى صوت جارنا الأجنس : أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب • طرقت أحدنا الباب ودلفنا ، كانت الغرفة تضيق بالجالسين ولما رأوا أعدادنا ، نهض البعض ليفسح لنا مكاناً • كل واحد منا راح يمد كفه إلى علي بطه الذي بالكاد استطاع أن يبرك في الفراش ويده اليسرى ملفوفة بشاش على جبصين معلقة برقبتة بواسطة محرمة بيضاء قائلاً له : حمداً لله على سلامتكم يا جار •

ومنا من طبع قبلة على وجهه حتى جلسنا جميعا في الغرفة المملوءة بدخان السجائر • أهدنا الذي جلس تحت نافذة صغيرة ، مد يده وفتح شفا منها • رحب بنا بحرارة وشكرنا على زيارته وراح يدفع علبه تبغه المعدنية الضخمة إلينا ويلحقها بسجائر ملفوفة ، ثم أمر أحد أولاده ليحضر شايا ، فسأله أهدنا : ما الذي حدث يا جار ؟ • أراد أن يعدل بعض الشيء في جلسته وهو يمد قدمه اليمنى ببطء ويقول بأنها تنملت ، وأنه لم يعتد على الاستلقاء في فراش المرض ، فتقدم ابنه الذي أحضر الشاي ووضع مخدة أخرى على المخدتين اللتين تسندان ظهره • عندذاك تناولته نوبة سعال حادة، ولكنه برغم ذلك مد يده إلى كأس الشاي من يد ابنه وأشعل سيجارة جديدة متجاهلا نوبة السعال التي أخذت تخف قليلا مع رشفه للشاي وقال : أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب ، أردت أن أذبح أرنبه فتحايلت على أن أمسك بها ، ولكنها نظرت إلي وكأن صوتها تسرب إلى أذني : علي أنت تقذف الخس لي لا لتطعمني ، بل لتذبحني يا علي • فجفلت واستعدت بالله من الشيطان الرجيم • قلت لنفسي : يا علي إنه شيطانها الذي قذف الكلام على مسمعك ، لا تتردد من ذبحها يا علي • ولما رأته أنظر إليها وأنا ما أزال مصرا على موقفي، استسلمت لإصراري حتى أمسكت بها ، لكن بعد قليل استطاعت أن تفلت من يدي هاربة خارج الحوش فأقسمت ألا أكف عن مطارتها حتى

تقع في يدي وأنا أجري خلفها كالمجنون- أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب - رأيتها تتجه قافزة نحو البستان صوب الحدود ، فلحققتها بخطواتي السريعة وهي تتجه إلى السور إلى أن اقتربنا من حرس الحدود الذي أعرفه ويعرفني ، ودوما أقذف له أرغفة من خبز التنور الحار ، ويقذف لي علبة دخان تركية ، وكان يحمل بندقيته على كتفه واقفا على البرج يصوب نظره إلي وأنا أطارد الأرنبة التي وصلت السور . فقلت بأن أرنبتي سوف تستسلم لأنها لن تستطيع تجاوز السور ، ولم تكتمل فرحتي حتى سمعت صراخا جاء من الحارس أعقبه صوت عيار ناري ، شعرت بأن برقا أصاب يدي اليسرى ، تمددت على الأرض وقد نسيت أمر الأرنبة . بعد قليل نادى الحارس بي ، فأجبتته بأنني علي بطه الذي يقذف له أرغفة الخبز . عندذاك قال لي بلغتي أن أرجع من حيث أتيت زحفا على بطني وإلا سوف يطلق علي النار مجددا . زحفت مستديرا نحو الخلف ساحبا معي خيطا من دمي إلى أن وصلت البيوت - أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب - فحملني رجال كانوا ينظرون إلي وأعادوني إلى بيتي . تعالى صوت أحدنا : احمد الله يا علي أنها لم تصب رأسك . قال بحشجة خرجت من صدره بالكاد : ياليتها أصابنتي وأراحتني . ثم سعل قليلا وأردف مستعيدا بعض صوته : اطلاق النار علي في كف ، وخسارتي للأرنبة في كف . هربت مني وتركت حسرة



في قلبي ، ولا أظن أن هذه الحسرة ستطلع إلى يوم القيامة • سأقول لكم كيف وقعت هذه الحسرة في قلبي ، منذ السنة الماضية ركبت دراجتي النارية واتجهت إلى البرية لأصطاد الأرناب فكانت هذه أول أرنبه أصادفها ، سبحان الله ما إن وقعت عيناى على هذه الحيوانة الأليفة حتى اشتعلت في نفسي شهوة للحمها • ثم مد يده إلى فمه وهو يخفي بسمه قفزت إليه وأردف : تذكرت وأنا أنظر إليها أم الأولاد عندما ركبنا الطائرة وذهبنا نقضي شهر العسل في العاصمة ، عندها شممت رائحة خبز التنور ونحن نطلق في السماء ، اشتهيت الخبز وقلت لأم الأولاد : يا امرأة الشهوة أكلتني ، لابد أن أكل رغيفا بأي ثمن • قالت : كيف يصلك الرغيف يا علي ونحن في السماء ؟ • ناديت السائق بأن يهبط قليلا نحو التنور ، فهبط إلى أن صرنا فوق المرأة التي تخبز ، عندذاك مددت يدي من نافذة الطائرة وصحت بها أن تقذف لي رغيفا ، فرفعت المرأة رغيفا ، التقطته وعادت الطائرة للارتفاع - أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب - قلت لنفسى : لن أترك الأرنبه حتى أمسك بها وأجعل أم الأولاد تشويها لي في التنور • لحقتها بدراجتي دون أن أستخدم البندقية حتى لايفسد لحمها ، وأخذها إلى البيت حية،ابتعدت عني ووجهت الدراجة إليها ، طارتها نحو ساعتين حتى حاصرتها في حفرة بدولاب دراجتي الأمامي • نزلت من الدراجة و مددت يدي إلى الحفرة ، لكنها

عضنتي فسحبت يدي وخلعت المحرمة من رأسي ، واستطعت أن أسحبها بواسطة المحرمة • عندها امتلأت نفسي نشوة وأنا أنظر في عينيها المستسلمتين بين يدي ، فقد اشتهيت في حياتي كلها حاجتين وظفرت بهما • فربطتها جيدا ووضعتها في خرج الدراجة حتى لا تهرب وقررت العودة إلى البيت وأنا مسرور كأنني صدت عشرين أرنبا، أخرجت علكة من جيبي وبدأت أمضغها مع تدخين سيجارة بدلا عن الشاي • ووجهت الدراجة إلى طريق العودة ، مشيت مسافة بدراجتي وأحسست بأنها تتباطأ في سرعتها ، ففطنت على الفور أن ملاحقتي للأرنبة لمدة ساعتين قد أنفذ البنزين ، وعندذاك توقفت الدراجة وانطفأ محركها • فتحت غطاء / الخزان / وحركته ، كان ناشفا كأنه لم ير البنزين أبدا • فتحت الخرج ونظرت في الأرنبة التي بادلتني نظرة استياء ولا أدري كيف صفعتها على وجهها بظاهر كفي وأنا أوجه لها شتيمة ، ثم أعدت إغلاق الخرج وقد استبد بي شعور بأنني سوف أبات الليلة في البرية وأنا أنظر في لون الغروب • بركت بجانب دراجتي مستسلما لهذا القدر منتظرا الصباح كي أمضي بدراجتي سيرا لعلني أبلغ الطريق العام الذي خمنت بأنه يبعد مسافة خمسين كيلومترا عني • مرت دقائق قليلة – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – وكأني سمعت هدير طائرة ، رفعت رأسي وبالفعل وقعت عيناى على طائرة تطلق في السماء

• قلت : جاءك الفرج يا علي • وأخرجت بندقيتي بأقصى سرعة ، صوبتها نحو خزان وقود الطائرة وأطلقت طلقة فنزل البنزين كحبل إلى خزان دراجتي حتى امتلأ ، وكي لاينفذ وقود الطائرة – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – أخرجت علكتي من فمي بأقصى سرعة ، وضعتها في فوهة البندقية وضغطت على الزناد فسدت ثقب الخزان • عاد إلي أمل العودة إلى البيت والنوم مع أولادي ، وعندذاك شعرت بأنني ظلمت الأرنبه عندما صفعتها ووجهت لها شتيمه ، فمددت يدي وفتحت الخرج ، داعبت رأسها برفق وأنا أعتذر عن الصفعه والشتيمه ، ثم ملت بفمي لأقبلها من خدها حيث وقعت الصفعه فحركت يديها المربوطتين بحركة خاطفة وخرمشتني من وجهي حتى ركضت وأنا أمسك بوجهي ، وفي أثناء ذلك ارتمت الدراجة على الأرض وانسال بعض البنزين منها وخرجت الأرنبه مربوطة من الخرج • عدت راكضا إلى الدراجة وأعدلتها ، ولكن الدماء التي انسالت من وجهي ولدت في نفسي شعورا بالفزع من الأرنبه ، فأخرجت كيس الخيش من الخرج وأمسكت به الأرنبه المربوطة ، وضعتها في الكيس ، ووضعت الكيس في الخرج ووجهت الدراجة مجددا صوب درب البيت • نحو منتصف الليل وصلت بيتي حاملا أرنبتي وكان أهل البيت قد ناموا ، أخرجتها من الكيس وتركتها مربوطة في الغرفة التي أنام فيها وأنا أقاوم شهيتي للحمها لأن

الوقت متأخر • في الصباح أول مافعلته بعد الصلاة هو أن ناديت أم الأولاد وطلبت منها أن تحضر سكيناً واحداً وتأتي لتمسك لي برأس الأرنبة لأذبحها • فصوبت نظرة إلى الأرنبة وقالت : غبت عن البيت يوماً من أجل أرنبة واحدة ، أين كنت يا علي • • أرنبة واحدة وتريد أن تذبحها قبل أن تفطر كمن لم يذوق طعم اللحم منذ سنتين •

قلت : يا امرأة هذه الأرنبة أثارت شهيتي مذ أن وقع نظري عليها ، لتعلمين بأي حال جلبتها إلى هنا • • أرنبة ولا كل الأرناب ، لم يسبق لي أن اشتريت لحم حيوان كشهيتي للحم هذه الحيوانة •

فناولتني السكين الحادة ، ومدت يداً إلى رأس الأرنبة والأخرى إلى يديها ، ومن ناحيتي وضعت قدميها تحت قدمي • قلت : باسم الله • ومددت السكين إلى حلقها وفجأة انفجرت أم الأولاد وهي تترك الأرنبة : مهلك • • مهلك يا علي لاتذبحها •

انتفضت الأرنبة لتهرب فأمسكت بها جيداً وأنا أوجه بصاقاً لأم الأولاد : ابنة الكلب ، كادت الأرنبة تفلت مني • فقالت : يا علي الأرنبة حامل وبعد أيام سوف تضع سبعة أرناب • رميت السكين جانبا وأنا ألمس بطنها : سبعة أرناب ، مادام الأمر فيه سبعة أرناب أجل شهيتك يا علي وستظفر بطعام سبعة أرناب ، لا بد أن لحم أرنابها سيكون بلذة لحمها الذي صار حسرة في نفسك يا علي •

عندذاك قمت بحفر حفرة في الحوش وتركتها تكمل الحفر ، وصرت ألملم لها الأوراق الخضراء والحشيش وأحيانا أنزل سوق الهال أشتري بقايا الجزر والخس لها حتى مضى شهر ورأيناها تخرج فتبحث عن الصوف والأقمشة المهترئة والخيوط وتمزق الأكياس لتأخذ إلى الحفرة • بعد ذلك اختفت أرنبتنا أياما قليلة لنتفاجأ بصغارها تخرج للحظات وتعود • فقالت أم الأولاد : هاقد عوضك الله على صبرك خيرا وبركة ياعلي • قلت : ألم يحن الوقت ، شهوتي صارت تأكلني يا أم الأولاد ، أشعر بأن صبري نفذ • • أحضري السكين ، يكفي كل هذا الصبر • فقالت أم الأولاد : الصبر جميل ياعلي ، لقد منّ الله علينا برزق وأنت تريد أن تقطعه ، هذه الأرنبة لو ذبحتها الآن ، سوف تقطع علينا نهرا من الرزق ، أما إذا جلبت لها ذكرا فسوف تلد سبعة أرانب أخرى ويصبح لدينا أربعة عشر أرنا ، وعندذاك ستكون أرنبنا السبعة هذه على وشك الولادة ، فتنزل كل أسبوع إلى السوق وتبيع جوزا من الأرانب ، ياعلي يمكن أن نجمع رأسمالا من هذه الأرانب ، تخيل ياعلي بعد سنة كم من الأرانب سنبيع ونأكل ونذبح لضيوفنا • اجلب لها ذكرا من سوق الأرانب وأعدك أنها عندما تضع سوف أذبحها لك وسوف أذبح واحدة لنا حتى لايشاركك أحد بلحم أرنبتك ، سوف أشويها لك في التنور • • وفجأة تناولته نوبة سعاله الحادة حتى ظننا بأنه سوف يذهب معها ، لكنه واصل

الحديث وهو يتجاهل النوبة الحادة التي أدمعت عينيه وقال : وإذا بقي منها شيء سأخفيه لك لليوم التالي ، سوف يكون لحمها كله لك ، تمهل يارجل ولا تقطع علينا رزقا أرسله الله لنا من أجل شهوة عابرة .

استطاعت مرة أخرى أن تقنعني ، فنزلت يوم الجمعة إلى سوق الأرناب واشتريت لها ذكرا . ثم وجه كلامه إلى ابنه بشيء من التوبيخ : قم يا ولد اجلب للضيوف قهوة ، كم مرة صرت تسمع هذه القصة اليوم .

فنهض الابن إلى الباب ووجه صوته إلى غرفة النساء : قهوة . قهوة . قهوة . وخرج ليعود بها بعد قليل . قذف جارنا علبه تبغها الضخمة إلينا وأعاد قذف سجائر ملفوفة إلى كل واحد مكملا حديثه : . لن أطيل عليكم يا جماعة . صبرنا حتى ولدت الأرنبة مرة ثانية فانتظرنا خروجها ليكون الخروج الأخير . فذهبت ساعة العصر إلى العشب الأخضر ، تمددت عليه تحت أشعة شمس العصر وبقدرة قادر أخذتني غفوة رأيتني معها أستيقظ في فسحة خضراء يمر بجانبها نهر رقرق أمام قصر ضخم كأنه صنع بكامله من الذهب الصافي ، ورأيت أناسا لا يشبهون ناسنا ، أمسك بي اثنان منهم وقاداني إلى باب القصر – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب – اتجها بي إلى باب كبير مفتوح ، بعد قليل انفتح الباب وانحنى لي رجال على رؤوسهم ريش طاووس ، أوصلوني إلى رجل ممدد في فراش من ريش النعام ، حوله صبايا جميلات فتيات

إلى جانب أشخاص ينتظرون منه أي إشارة لينفذوها ، و رأيت آثار  
النعمة في وجهه رغم مرضه الشديد البادي عليه • قال لي الرجل : أنت  
الآن يا علي في مملكة لم يدخلها أحد من الإنس قبلك ، وأنا يا علي ملك  
هذه المملكة ، اجتاحني مرض فقال لي الأطباء أن دوائي الوحيد هو عند  
إنسان يدعى علي • فأمرت باحضارك إلى مملكتي ، إن أعطيتني هذا  
الدواء فسوف أشفى وأعطيك ما تشاء من الذهب والجواهر ، نحن ليست  
لدينا صلاحيات ولا امكانيات لنسلب الإنسان ممتلكاته ، فأنت يا علي  
حر في أن تعطي أو تمتنع •

قلت متعجبا : دواؤك عندي •• أي دواء هذا ؟

قال الملك : الدواء هو لحم الأرنبه التي اصطدتها من البرية يا علي •  
فشرحت له شهيتي للحم هذه الأرنبه وأني إن لم أتل هذه الشهوة قد  
يصيبني مرض أخطر من مرضه ، لأن الحسرة سوف تبقى تآكل قلبي  
حتى أموت • فقال : لا بأس يا علي ، لن أترك الحسرة في قلبك ، اذبحها  
يا علي ، وناقاسمها ، دع نصفها لك واجلب لي نصفها مشويا ، وعندما  
أتناوله سوف أشفى فأعطيك ما تشاء مما وعدتك به ، ووعد الملوك دين  
في رقابهم • قلت له بأني موافق – أعوذ بالله من الرجل الذي يكذب -  
وطلبت أن يرشدني إلى طريق الذهاب وجلب الأرنبه • فأشار إلى رجل  
ممن حوله ، وعلى الفور أحنى الرجل رأسه لي ودعاني للذهاب معه ،

فاتجه بي نحو الفسحة الخضراء التي رأيتني فيها أول مرة • وقفنا في المكان وقال : تمدد يا علي واغمض عينيك ، سوف تكون ممددا في المكان الذي أتيت منه ، اجلب نصف الأرنبه مشويا وعد إلى مكانك ، تمدد هناك واغمض عينيك وسوف تكون هنا ، سنأخذك إلى ملكنا لتطعمه اللحم الدواء بيدك ، وسوف تكون ضيفنا ، لن تخرج قبل أن نكرمك وفي ملكنا بوعده لك • تمددت على الفسحة الخضراء وأغمضت عيني فرأيتني مرة أخرى في مكاني الأول الذي غفوت فيه ، نهضت غير مصدق إلى البيت وأنا أرسم أحلاما وآمالا كبيرة سوف تحققها لي هذه الأرنبه ، لدى وصولي إلى البيت ، ذهبت إلى أم الأولاد وشكرتها على حكمتها بتأجيل ذبح الأرنبه وشرحت لها ما وقع معي وأنني سوف أعود ومعني ما أريد من الذهب والجواهر ، وطلبت منها أن تتكتم على الأمر حتى لايطمع بنا الطامعون • ثم اتجهنا إلى الأرنبه التي كانت في حفرتها ، تحايلت عليها مرارا وتكرارا وبلبونة محببة حتى خرجت وأمسكت بها • داعبت رأسها بلطف وطلبت من أم الأولاد أن تحضر موسا حادا وتجهز اشعال التنور لأن ملكي المريض بانتظار عودتي في أقصى سرعة ، فهرولت أم الأولاد إلى المطبخ وفي أثناء ذلك لأدري كيف تملصت الأرنبه من بين يدي وأخذت تجري إلى الخارج •• طار عقلي وأنا أطاردها وأقذف عليها الحجارة وهي تتجه صوب الحدود، خاطرت



بنفسي حتى آخر خطوة ، لكن الحارس الملعون قال بأنني لو خطوت خطوة أخرى سيجعل جسدي غربالاً ، فبقيت الأرنبة أمام عيني ملتصقة بالسور وأنا أنظر إليها وأعود زاحفاً أتجرع مرارة خييتي ، أعود بالله من الرجل الذي يكذب .

انفرج شق الباب ودخل أناس غيرنا من الجوار ، فنهضنا لنفسح لهم مكاناً ، تقدمنا إلى غرفة النساء ننادي نساءنا ، عندها تناهى إلينا صوت زوجة علي بطه وهي تقول للنساء : أعود بالله من المرأة التي تكذب .  
قفزت ضحكة مشتركة إلى الجميع وقال موسى : ياله من رجل ظريف .  
فقال بشري وهو يخفف من موج الضحك الذي أتاه : قبل أن ينهض روى لنا قصة ثانية بعد أن ألحنا عليه أن يبقى بعض الوقت ، فأحضرنا له إبريقاً من الشاي وقدمنا له السجائر . فقالت ذكرى : ليتك تسمعنا هذه القصة يا بشري . فقال بشري : لن أرويها قبل أن تقدمي لنا قهوة .  
نهضت ذكرى صوب المطبخ ونهضت معها خورشيدة ، ثم عادا بالقهوة . تناول بشري رشفة من الفنجان قائلاً : عند الساعة السابعة والنصف من صبيحة يوم السبت كان جابر خلف الموظف لدى مديرية الأوقات الضائعة يهيم بالخروج مع دراجته الهوائية ماسكاً بيد مقودها وبالأخرى مديراً الباب خلفه ، هجم عليه ثلاثة أخوة من البيت المجاور له ، فأدرك جابر أنهم كانوا في انتظار خروجه ، لم يدعوا له فرصة لقول كلمة ، ولا

لوضع الدراجة على وقافتها ، وفي غمضة عين وأخرى انهالت عليه لكلمات كرصاص مجهول فارتمى مستسلما للأقدام التي تدوس عليه وتركله بعدوانية • مع مواصلة اللكمات التي تسدد على انحاء جسده دون تمييز ، أبرز أحدهم / مشرطا / كذاك الذي لدى الحلاقين وصوبه نحو أنف جابر ، لكن جابر ومع الرعب الذي اعتراه من تصويب المشرط نحو أنفه انفجر بصراخ غريب يشبه عواء ذئب ، كان الصراخ غريبا على الأسماع فشعر الأخوة بفرع وتراجعوا عن جابر المرمي على الأرض والذي يصدر منه صوت خافت غريب حتى اعتقد الأخوة بأنه تحول من إنسان إلى مخلوق آخر ، أو أن مخلوقا آخر كان يسكنه فمات جابر من إثر اللكمات وظهر فيه ذاك المخلوق الذي يصدر صوتا لايشبه صوت إنسان ، عندها لاحظ الأخوة أن الجيران خرجو على صراخه الأول الذي أفرعهم فلم يتردد أحد الأخوة من إظهار سكين وتهديد الذي يقترب من الجيران لانقاذ جابر منهم ، وقالوا بصوت جماعي بأن لهم ثأرا عند هذا المارد ولن يتركوه قبل أن يثأروا منه • بعد نحو نصف ساعة انطفأ أنين جابر الخافت الغريب فاقتربوا منه مرة أخرى وهم يحذرون الجوار من الاقتراب ، دنا حامل المشرط وقبض على أنف جابر باصبعيه في غفلة وقد تمكن من الأنف ، وبذات السرعة ضرب المشرط نحو الأنف لكن جابرا استطاع أن يبدي حركة غاية في السرعة برأسه

في آخر هنيهة مما أدى إلى بتر إبهام حامل المشروط ، وصار الإبهام يتقاذف على الأرض والدم ينز منه بغزارة كأنه لن ينقطع ، قذف شتيمة في وجه جابر ، ثم بصق عليه وراح يهرول نحو البيت ، لكنه قبل أن يدخل الباب عاد إلى إصبه المبتور فحمله في جيبه واتجه جاريا نحو البيت •

تناول أحد الأخوين المشروط من الأرض ودنا من أنف جابر قائلاً بحشجة : تفعلها بنا إن تركناك بأنف هذا اليوم يا رزيل ، مثلك يجب أن يمشي بدون أنف في الشوارع • ووقع عليه الأخ الثاني بالضرب وقد امتلأ غضبا بعد بتر إصبع أخيه وراح يمسك بشعره قائلاً : سوف تحلم يا جابر أنك كنت ذات يوم بأنف • وقبض على أنفه بشراسة وجابر مستسلم من أثر اللكمات التي انهالت عليه ، لكنه يحرك رأسه في كل الاتجاهات ويبصق ويشتم ويستغيث ، بينما الجوار تجمعوا على شكل تظاهرة يتفرجون عن بعد دون أن يجسر أحد منهم الاقتراب لانقاذ الرجل • دس الأخ إصبعيه في خياشيم جابر وكأنه يريد أن يخلع الأنف بيده وأشار لأخيه أن يسدد الضربة بشكل جيد إلى الأنف • طمأنه حامل المشروط بثقة وعلامات فوران الدم تتصاعد إلى وجهه المحتقن ، وبسرعة خاطفة أوقع الضربة إلى الهدف ، ومرة أخرى بدا جابر أكثر حذرا فانتفض هذه المرة بكامل جسده وكأنه بركان صغير انفجر وأبعد

القابع عليه جانبا، فأصاب المشرط جانبا من أنفه وترك فيه خدشا • عادا إليه بهزيمة وإصرار أشد وعلى الفور قبض ذات الشخص على الأنف وقد برك على بطن جابر الممدد ، دس إصبعيه في ثقب الأنف ، قبض الثاني بشعره مثبتا الرأس وسدد الضربة ليقع الأنف هذه المرة في يد أخيه • أحسا بأنهما نفذتا المهمة بصعوبة ، تنفسا الصعداء وهما يصوبان نظرات النشوة إلى وجه جابر الذي خلا من الأنف • أخذ الأنف معهما وتواريا عن الأنظار • في اليوم التالي أبلغت الشرطة مديرية المشفى بأن الموقوفين رموا الأنف المبتور في إحدى المجاري ويتعذر البحث عنه ، فاضطر الطبيب الجراح الذي تولى إجراء العملية أن يبتز قطعة لحم من مؤخرة جابر ويلحمها موضع أنفه ، بينما جابر تنازل عن ادعائه الشخصي عليهم قائلا : لاشيء في العالم بمقدوره أن يعيد إلي أنفي • أمضى شهرا في البيت يتردد من الخروج بلا أنف ، وبين يوم وآخر يجري اتصالات بالعمل يقول بأن وضعه النفسي لايسمح له بالخروج من البيت • يمضي جابر معظم وقته أمام المرأة يمعن التحديق في القطعة الملحومة فترتسم مؤخرته في وجهه ، يزداد استفزازا وغليانا ، تتدخل أمه وتبعده عن المرأة قائلة : هذا نصيبك يا جابر ، احمد الله أنهم لم يبتروا عضوا أكثر خطورة ، كان مستقبلك كله سيضيع في أوقات أخرى يفكر بخطيبته التي خطبها قبل الحادث بشهر على أن يتزوج في ظرف شهرين

قادمين عندما يحصل على قرض ولكن المفاجأة وقعت عليه بعد مرور شهر ونصف على الحادث عندما أرسلت خطيبته الخاتم والهدايا إليه مع أخيها ليبلغه كلام أخته: لقد انخدعنا بك يا جابر ، لكن حقيقتك بانث في وجهك . . لا أريد أن أرى وجهك الأسود بعد الآن ، العودة من منتصف طريق الهلاك أفضل من الاستمرار . أراد جابر في تلك اللحظة الفورانية أن ينقض عليه ويقرض أنفه بأسنانه ليصبح زميلا له ، بيد أن الكلمات هي التي كانت سبابة : لا يشرفني الاقتران بهكذا امرأة تقرر قرارا مصيريا كهذا مستندة على كلمات سمعتها من الناس . خرج الأخ وعاد جابر إلى المرأة يحدث نفسه بخفوت : يبدو أن الخسارة لم تكن في الأنف فقط يا صاحبي ، هاهو الأنف جر معه الخطيبة التي كنت تمضي معها أجمل الأوقات بعد منتصف الليل على الهاتف ، وهل ستنتظر من تفكر بالزواج من رجل بلا أنف ، وهل ثمة امرأة بلا أنف في هذا العالم كله لتقبل الاقتران بك . لو كان البتر في أي عضو آخر . . أذنك مثلا ، يدك ، قدمك ، حتى لو فُتت عين . ثم أخذ صوته الغريب يعلو قليلا ، هذا الصوت الذي يخيف السامع ، حتى أن أمه عندما تسمعه فإنها تخرج من البيت وتقول للجوار بأن كائنا آخر يسكن غبنا ولا يظهر إلا في أوقات الشدة : عندما تخرج يا جابر فان الناس سوف يحدقون بك ويتهامسون ، يتغامزون على سبب قطع أنفك ، إنه سبب وحيد لا غير يميز كل الذين

بُترت أنافهم • كيف ستجلس في مجتمع ياجابر وتحكي عن العفة كما كنت تتحدث طوال عمرك • بعد مرور شهرين أحس بأن البقاء في البيت يكتم نفسه ، وأنه لو لم يخرج سيجن ، فقرر الخروج على استحياء ، ارتدى بدلته الوحيدة ذات السنوات السبع من العمر التي اشتراها عندما قبض أول راتب من مديرية الأوقات الضائعة ، عقد ربطة العنق الحمراء الرفيعة وأمسك بمقود دراجته الهوائية ، فتح الباب لأول مرة منذ شهرين فجفل وهو يتذكر آخر خروج بذات الطريقة عندما هجم عليه جواره الثلاثة ، مد رأسه قبل أن يدفع الدراجة ، تأمل الشارع والرعب يسري في عروقه ، هل ينتظرون ليقوموا باعتداء آخر عليك ياجابر ؟ إنهم مجانيين ، كل شيء وارد في هذا العالم ياجابر • لم يثن هذا الرعب عزيمة الإصرار على الخروج ، فدفع مقود الدراجة إلى الشارع بينما أمه توصيه أن يكون حذرا • قاد الدراجة بيديه عدة خطوات دون أن يركبها فنادته أمه أن الإطار الخلفي مفروغ من الهواء • عاد بها إلى الباب ، أوقفها على الوقافة ومد يده إلى المنفاخ المعلق في موضعه على الدراجة الزرقاء اللون ، وضع رأس المنفاخ في موضع الهواء في الإطار وغدا جابر يعلو ويهبط ويلهث وبين لحظة وأخرى يمد يده إلى الإطار ليتفحص حجم الهواء الداخل ، وبذات اللحظة تتسرب منه نظرة سفلية خاطفة إلى حيث بيت هؤلاء الثلاثة المقابل ، بينما أمه واقفه جواره •

توقف جابر عن دفع الهواء وقد أدرك كفاية الإطار عن حاجته ، ولمح  
إذناك خروج الجوار وهم ينظرون إليه يضع لاصقا طبيا على أنفه  
ويركب الدراجة بدل أن يقودها بيديه ، فلم يسبق لأحد أن رأى جابرا  
يركب الدراجة ، إنه دوما يقودها بيديه ، يمشي معها كما يمشي مع  
صديق طريق وهو يدرك بأنه اعتاد هذا الصديق ولايستطيع المشي بدونه  
حتى لو ذهب لمشوار قصير في زيارة خاصة . لقد أصبحت جزءا منه  
وهو لا يخرجها ليركبها ، بل لتمشي معه ، فعندما يقول أي شخص من  
الجوار : رأيت جابر ، سيضيف : يمشي مع دراجته الزرقاء . وحتى  
في حالات السرعة فهو يدفعها بعجالة ويهرول معها . عندما مضى  
جابر راكبا الدراجة وهي ظاهرة غريبة استوقفت الجيران إضافة لمظهر  
الشاش الطبي على أنفه ، تناهى صوت مسموع من أحد أطفال الحي :  
جابر . . جابر يسوق البسكليت بابا . فأصبح كل مَنْ في الطريق  
يصوب إليه نظرات مطولة وهو يمر غير مسلم لأول مرة منذ ثلاثين  
سنة عندما سكن هذا الحي . قال البعض : لاتؤاخذوه يا جماعة ، عذره  
في وجهه . وعلّق البعض : قليل الحياء والاحترام ، لقد وصل لحقه .  
وقال رجل : أفتل اليد التي قطعت أنفه . واصل جابر طريقه ولم يقف  
إلا أمام رصيف الدائرة . نزل من دراجته وقادها نحو باب الدائرة لكن

الحارس منعه من إدخالها ، فقال : أنا جابر خلف . . موظف هنا . فقال الحارس : كنت جابر خلف الموظف هنا .

أوقف جابر الدراجة على الرصيف ، وهم بالخروج ، رأى شخصا يجلس على مكتبه ، وفي دقائق قليلة اكتظ المكتب بالموظفين والموظفات يتفرجون على جابر مقطوع الأنف . فاتجه إلى مكتب المدير مغتاظا يقول بأن الموظفين يسخرون منه ، لكن المدير قال بأنه فصل من عمله نتيجة غيابه لمدة شهرين دون عذر ، وكذلك لأسباب تمس الأخلاق ، لأن الموظف عليه أن يتمتع بأخلاق حميدة .

خُرج جابر من دائرته مطرودا لايعرف أين يتجه ، وقد بدا أمامه الرجوع إلى البيت كالرجوع إلى هاوية . عندئذ وقف على الرصيف جوار دراجته وقد مد يده إلى مقودها يسترد وقائع يوم العطلة المشؤوم عندما تفاجأ بجارته خولة تقع عليه في غرفة نومه صباحا . انتفض من الفراش قائلا : ما أتى بك هنا ياخولة؟! . قالت وهي تقف في المدخل : لماذا تهرب مني يا جابر ، ألسنتُ جميلة .

قال : اخرجي ، هذا لايجوز ، أنا رجل خاطب . تأتئين لزيارة أمي أهلا وسهلا ، أما أن تلعبى بذيالك معي فلا أسمح لك دخول هذا البيت بعد اليوم .



قالت : بل أدخل هذا البيت من أجل أن أراك وأسمع صوتك يا جابر ، أمك هي حجة لأدخل .  
قال : اخرجي يابنة الحلال ، لأريد أن تدخل بي بيتي بعد اليوم .  
قالت مستاءة : لن أخرج وافعل ماشئت .  
وكضربة السوط وقعت كفه على خدها . قالت : ستدفع ثمن صفتك غاليا يا جابر ، ستندم طوال عمرك على هذا الصفة التي صفتها لخولة ، أنا خولة يا جابر ، أخت ثلاثة شباب . انتفض من خياله وهو يرى خولة أمامه على الرصيف المقابل للدائرة ، قال في نفسه : هل راقبتني عندما خرجت من البيت ، وما الذي تريده مني . ف اشارت خولة إليه ليلحقها ، قاد جابر دراجته ومضى وهي تسير بخطوات متسارعة ، سار جابر خلفها نحو ساعة إلى أن دخلت حيا شعبيا ووقفت أمام أحد البيوت ، تقدم جابر إليها ، ولكنه عندذاك اكتشف بأنها ليست خولة .

## الفصل الثامن

تقضي ذكرى أخرى الأوقات في التأمل بقراءة كتابها المبارك ، تحلق  
بخيالها في فضاءات من نور ، وتحس أن الكلمات تجري على لسانها  
أطيب من شهد العسل ، تشعر بأن نور الكلمات يجري في عروقها فتكون  
في حالة صفاء هائلة ، وحالة صلح عظمى مع الله الذي أكرمها بالانفتاح  
على قراءة هذا الكتاب قراءات تجعلها تشرق كوردة في ربيع غني .  
كل شيء يغدو أمامها ككتاب قابل للقراءة ، وقابل للاستيعاب ، وياله من  
يوم بئس ميت ذلك الذي يمضي دون أن تقرأ فيه شيئاً من كتابها فنقول :  
المدينة التي لا يُقرأ فيها الكتاب هي مدينة تموت من البرد ، الإنسان الذي  
لا يتدفأ بنور قراءة الكتاب هو إنسان يموت من البرد الروحي .  
هل سيمهلك العمر يا ذكرى للارتواء من هذا الكتاب ؟ إن الذي أنزله  
يتعهد بأنه لن يتحول إلى كتاب منفذ الصلاحية في أي زمان ومكان . لن

يكون بوسعك الارتواء منه ولا أخذ كل شيء منه ياذكرى لأنه عند ذلك سيكون قد أدى مهمته ونفذ مفعوله ، لن تمدي يدك إليه لأنه لن يحمل لك جديدا ، وستكونين كائنة باهتة لن يكون ثمة جديد في انتظارها ، ولن تكون هناك متعة الاكتشاف ، ودهشة الإنفتاح على العالم ، ولن تنجبي الأولاد لأنهم لن يعرفوا شيئا جديدا .

كتاب الله المفتوح لكل إنسان يفتح عينيه لأول مرة في الحياة ، وتفسيره مفتوح ليفسره كل إنسان من أي عصر تفسيراً لم يُفسر من قبل .

مهما أوتي مفسر من قوة معرفة وفقه فإنه لا يدعي وضع تفسير ثابت لآية لتفسير بعده لأن هذا المفسر لو عاش الف سنة سوف يكتشف تفاسير جديدة في عامه الألف لم يكن اكتشفها من قبل .

كما أن الكتاب لا يغلغ في وجه أحد فإن تفسيره كذلك لا يقتصر على شارح .

بيّن سيد الشراح في قوله بأن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد للأمة أمر دينها .

هذا التجديد ينبثق من الكتاب الغني ذاته . حتى الطب ليس بوسعه أن يأتي بنظرية ثابتة ياذكرى ، لأن لا ثبات في الطبيعة ، يمكن ألا تنجب المرأة في سن الخصوبة ، وتنجب في سن اليأس ، يمكن ألا يهطل المطر في الشتاء ويهطل في الصيف ، ويمكن أن يطول عمر الإنسان عن الذي

أقره له الله عند خلقه ، ويزداد رزقه ، كأن أعطاه الله ستين سنة ، ولكن هذا الإنسان عمل صالحا فيهبه الله سنوات أخرى إضافة إلى عمره ، ويرزقه رزقا إضافة إلى رزقه • كان النبي يقول أن الله يزيد في رزق واصل الرحم ويطيل في عمره •

نحن على الأغلب ندعو للطيبين بطول العمر وهذا ليس عبثا ولا مزاحا • ويمكن للدعاء أن يرد القدر كما أتى النبي بأ ن القدر عندما يحل يتصارع معه الدعاء فلبث الدعاء يصارعه ويمنعه إلى يوم القيامة •

القراءة عبادة يذكرك ، لكن أي قراءة ، هل هي قراءة للقراءة فحسب ، أم أن العبادة تتحقق بشكل أكثر رسوخا في قراءة الاكتشاف ، في قراءة المعرفة ، قراءة الاقتراب من الله ، التي تقربك من الله وتقرب الله منك ، تجعلك تنظرين إلى الله ، وتجعل الله ينظر إلى قوة معرفتك به • يالها من بيوت مية تلك التي لا يفتح الكتاب فيها ، يا لها من نفوس مظلمة تلك التي لم تشرق بنور القراءة • عندما يخرج هذا الكتاب من بيتك ستفوح منه رائحة المقابر ، وعندما يخرج من نفسك ستفوح منك رائحة الموت • حتى الحيوانات الضارة فإنها تكون أقل ضررا في بيت تتلى فيه سطور هذا الكتاب المبارك •

فتشفق على شخص ينام بالمهدئات والأدوية المنومة والكتاب في ظهرانيه ، وتذكر كيف أنها تغفو بعد صلاة وقراءة قريرة العين والفؤاد ، لاتظن

أن هناك من يستمتع بحالة النوم الغارقة ، نوم طبيعي لاتساويه كل مهدئات العالم في تلك الأوقات الاسترخائية التي يغرق كل عضو وكل ذرة فيها في نوم عميق ، وتأتي لحظات الاستيقاظ المشرقة لتتوج كل تلك الساعات المستغرقة بانفتاح جديد على حياة كاملة وكأنها استيقظت فيها للتو ، كل صباح يعقب ذلك النوم الهادئ يكون بمثابة ولادة جديدة لها على حياة جديدة بكل لحظاتها وثوانيتها ، حتى الطعام تشعر بأنها تتناوله لأول مرة ، وبشري تشعر بأنها تكتشفه وتنظر إليه لأول مرة .

تحتضن كتابها وتيقن أن علاقة الإنسان بكتابه أنه إذا دنا إليه فإنه يدنو متدرجا إلى أن لا ينساه ، وإذا ابتعد عنه فإنه يبتعد متدرجا إلى أن ينساه .

لذلك فإنها كل صباح تطلق صوت مقررئ يتلو آيات من سطور كتابها المبارك الذي يبارك حتى في اللبس والطعام والآثا والآيات تتلى عليها ، فتشعر ذكرى بأنها تحلق بمعاني الكلمات إلى ربها و تزدد إيماننا على إيمانها وهدوءا على هدوئها وراحة نفس على راحتها .

\* \* \*

ينفتح بشري على أحاديثها الإيمانية كما تنفتح شجرة في صحراء بوابل المطر فيقول لها : لم أكن أهتم بتفاصيل هذه العلاقة بين الله والإنسان ، ولم يخطر ببالي أن أتعلم في هذه العلاقة • تعلمت منك قوة عدل الله ، وهذا أمر غاية في الأهمية يحقق لي التوازن الذي كنت أفنقه ، أحيانا كنت أرى أشكال الظلم ، أو أشكال اللاعدل في الناس ، لكنها تحولت إلى مسار عدلي بعد تعرفي بك • هذا أمر مؤلم ، لكنه الحقيقة ، وأظن أن ألم الحقيقة هو أهون على المرء من ألم اللا حقيقة • علينا أن ننظر إلى الحياة نظرات أكثر جدية وأكثر واقعية ، كنت أحيانا قبل تعرفي بك أفنقد الواقعية وأتجنبها •

أمر آخر تعلمته منك هو التردد من عقد آمال على أولئك الذين لديهم تاريخ من السوء ، وألا نفرط في تفاؤلنا لانتقالهم إلى أناس إيجابيين • أما أولئك الذين لديهم تاريخ من الرقي فعلينا ألا نمرهم باختبارات

تعجيزية متكررة وكأننا نقودهم إلى الأخطاء لنصطادها فيهم . تعلمت منك أن الرجل يتعلم من المرأة ، ويمكن أن تتحول الزوجة إلى معلمة وموجهة حكيمة لزوجها إذاتشجع الزوج وقبل أن يمنحها هذا الدور وقبل أن يكون تلميذا في مدرسة زوجته .

غدوت الآن أنظر إلى الأشياء نظرات تأملية بعد أن كنت أنظر إليها نظرات شكلية تفتقد أي شكل من التأمل ، وهو تأمل ينعش القلب ويضفي غنى على بهجة النظر في جماليات الأشياء .

كنت تقولين لي : عندما تنظر إلى الإبل لايفوتك أن تتأمل جمالية الخلق فيه ، وعندما تنظر إلى السماء لايفوتك أن تتأمل جمالية ارتفاعها ، وعندما تنظر إلى الجبال لايفوتك أن تتأمل جمالية انتصاب قوامها ، وعندما تنظر إلى الأرض لايفوتك أن تتأمل جمالية تسطحها ، / ألم تر إلى ربك كيف مد الظل / .

تقول زكري : دوما يأتي الله ليقف إلى جانب الإنسان ويبعد عنه الأذى ، كنا نرى على النهر أن السمكة عندما تفسد فإن الله يبعث فيها رائحة كريهة حتى يتجنبها الإنسان ، فإن فقد الإنسان حاسة الشم ، بعث الله لونا يبين فساده أمام ناظره ، فإن فقدهما ، أمرها الله أن تبعث إلى فيه طعاما فاسدا يجعله يلفظ هذا الطعام الفاسد .



المجتمع الإنساني يشكل عائلة بشرية كبرى هي عائلة الله ، وهو رب هذه العائلة ومعيها ، يوصي عياله ألا يؤذوا بعضهم وألا يتفرقوا ، وأن يتكاتفوا ويصلوا أرحامهم ويتجاوزوا ويتسامحوا ويتحابوا ، وألا يدع جار جاره جائعا إذا استطاع ، وأن يزيحوا الأذى من الطرقات ، وأن يلقوا السلام على بعضهم البعض ويتحاضنوا ويتباوسوا •  
إنهم عيال الله وهو الذي يطعمهم ويسقيهم ويكسيهم • واعلم يابشري أن الإنسان عندما ينادي من أعماقه : يا رب .  
فإن الله من سمواته يجيب : لبيك عبدي •  
أحست ذكرى أن شمساً أشرقت في أعماقها وملأت حواسها بنور الله ، عندذاك نزلت دموع من عينيها زادتها خشوعاً فنهضت إلى الغرفة الثانية تصلي بخشوع هائل لم تذق حلاوته من قبل • ثم عادت تبرك مطرحها فقال بشري : غدا سأقدم بطلب إلى نقابة المحامين أطلب فيه عودتي إلى عملي ، أظن أن الغبار سيكون متراكما على أثاث ذاك المكتب المهجور ، أظنه بحاجة إلى يد تنفض مآثره عليه من غبار .

